

عِلْمُ الْإِنْسَانِ الْقُرْآنِي الأنثروبولوجيا القرآنية

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن اتجاهات أو أفكار
يتبناها مركز عین للدراسات والبحوث المعاصرة وإن كانت تقع في دائرة
اهتماماته وأولوياته..



الطبعة الأولى

١٤٣٨ هـ - ٢٠١٦ م



من أهداف مركز عيّن:

مركز "عين" للدراسات الفكرية المعاصرة، يعنى بتفاعلات الواقع الإسلامى، ويحاول أن يؤصل للحلول والمقترحات تجاه مشكلات الإنسان المعاصر..

كما وينطلق من رؤية راسخة بقابلية الحضارة الإسلامية على قيادة الحياة وتقديم نموذج يتناسب مع احتياجات العصر من غير أن ينقطع عن أصوله ومنطلقاته وثوابته..

يسعى المركز ضمن برامج بحثية وهموم ثقافية ودورات لكتابة البحوث وتصديرها، لتعزيز الوعي الاجتماعى بقضايا الثقافة والأفكار ومناقشة مطاريح التخلف والتسيد لقيم غير أصيلة في المجتمع..

ليس من أهداف المركز أو مطاريحه الاعتناء بالتبشير الطائفى، ويؤمن أن ما يحدث اليوم هو طائفية سياسية تسعى لتجيير كل الدين والإنسان في أتون معركة مصالح دنيئة.. ولا تُمانع من دراسات تنطلق من التسامح في التعايش والإيمان بمشتركات الإنسان دون إلغاء الآخر مع الاحتفاظ بالرصانة العلمية وشروطها..

كما يؤمن المركز أن الحلول الإسلامية تنطلق من جذورها المناسبة، ولهذا فهى تحاول التأسيس من منطلقات إسلامية خالصة، بعيداً عن كل التحيزات المحيطة..



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على أشرف الأنبياء و
المرسلين حبيب إله العالمين أبي القاسم محمد و على أهل بيته الطيبين
الطاهرين

على الرغم من غنى العلوم في التراث الإسلامي و تنوعها، و تشعبها
، إلا أن علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) لم يلقَ الاهتمام المناسب و لا الكافي
لدى المراكز العلمية و البحثية العربية و الإسلامية ، كما عليه الحال - على
سبيل المثال - في المؤسسات العلمية الغربية، سواء في البحوث الميدانية
التطبيقية ، أو في الدراسات الأكاديمية التخصصية.

إن ظهور نظرية النشؤ و الارتقاء ، و كون الأنثروبولوجيا أداة من
الأدوات المهمة التي خدمت الإستعمار في طريقه التوسعي ، و أسباب أخرى
هي التي شكّلت الحساسية - و بشكل عام - من هذا العلم في العالم الإسلامي،
تلك الحساسية التي جعلت من الدين الإسلامي - و وفق معطيات أولية عند
بعض الأشخاص - ديناً متحسناً لكثير من الأشياء و يقف موقف المتردد من
أشياء و يحتاط بالترك في أشياء أخرى، وليس ذلك - في الحقيقة - موافق
لمنظومته، بل هو موافق لفهم (مدعي المعرفة به) مما جعل الكثيرين ينظرون
إلى الدين الإسلامي على أنه دين انطوائي، أو متخلف. بل، قد جعل البعض
يربط ما بين التخلف و الدين - عموماً - في قياس مغلوط لا يقوم على أي
أسس صحيحة.

لابد أن يُدرَس الدين الإسلامي في المجتمعات العربية والإسلامية باعتباره موضوعاً للعديد من المعارف، و أنه تراث متعدد الأوجه، يرتبط بترسيخ الأخلاق في النفوس، مع قابليته لإنتاج معارف متعددة، لا باعتباره (عبادة) فقط، أو باعتباره ممارسة بعيدة عن حياة الفرد في تعاملاته مع نفسه، و مع مجتمعه، و مع من يختلف معهم و عنهم في الدين و الاعتقاد.

نعم، فعلى الرغم من اعتراف بعض مفكري أوربا بأثر التراث الحضاري العربي الإسلامي على الحضارة الغربية، إلا أنه ساد اتجاه مجافٍ متكرر لهذه الحقيقة التاريخية لأجل طمسها، أو التقليل من شأنها، و قد دعم هذا الاتجاه حركة الاستعمار الأوربي للعالمين العربي و الإسلامي، مؤكداً ذلك -اعلامياً- أن العرب و المسلمين عاجزون عن الابتكار و الابداع، أو الإسهام الفاعل في ركب الحضارة الإنسانية، الأمر الذي يجعل من (التغريب) أمراً ضرورياً -بحسب المدعى- لمواكبة تطورات العصر الحديث.

و مما تقدم نقول : لقد كان المنطلق نحو التعريف بالعلوم (الإنسانية)، و التعرف على موقف الدين الإسلامي منها -الذي لا يعارض العلوم التي تقود للتطور، و ذلك لخدمة بني الإنسان - إن الكرامة الأولى للإنسان كانت (إلهية) قبل أن تكون إنسانية.

قال تعالى : ((وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)) سورة الإسراء، الآية (٧٠).

و قال تعالى : ((وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)) سورة البقرة، الآية (٣٠).

فالكرامة، و الصلاح، و الإصلاح (إلهي)، أما الخراب، و الفساد، و الإفساد فهو (إنساني) بامتياز.

قال تعالى : ((ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)) سورة الروم، الآية (٤١).

إننا و في بحثنا حول (الأنثروبولوجيا القرآنية) سنحاول التركيز على أهمية علم الإنسان القرآني، و أن ندرس أبرز معالم هذا العلم قرآنياً، في محاولة ليس منشؤها (أسلمة المعرفة) بل لأن الدين الإسلامي كان و لا يزال الرائد في كثير من العلوم و المعارف الإنسانية، فهو دين العلم و المعرفة و المشجع على طلب العلم في كل زمانٍ و مكان.

إننا لو تأملنا في المجال (النظري) أو (التنظيري) لعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا) سنجد علماء خاصاً له أسسه و مبادئه و نظرياته الخاصة به، فهو علم مستقل كباقي العلوم الأخرى المتخصصة. ليس له أي ترابط مع العلوم الأخرى إلا من خلال ما يقدمه من خدمة (علمية) و (إنسانية)، أو من خلال (طريقته) في تقديمه لتلك الخدمة.

أما في المجال (التطبيقي) أو (العملي) و (الواقعي) لهذا العلم فإننا سنجد لا ينفك عن علوم أخرى كثيرة ملتصقة به إلتصاقاً يصعب معه الفرز بينها، و من أمثلة ذلك : (علم الاجتماع، و علم النفس، و علم البيولوجيا، و علم الآثار، و علم التاريخ).

فمن قال أن (علم الإنسان) لا يتداخل مع العلوم الأخرى، و لا تتداخل فيه علوم أخرى فإن هذا القول تنظير يصعب تطبيقه على أرض الواقع إلا في جزئيات بسيطة جداً.

أما في الحقيقة فإن (علم الإنسان) هو علم تكميلي يهتم بالإنسان بالدرجة الأولى، متناولاً كل ما يتعلق به و ما يحيط به و ما يؤثر فيه، من خلال استفادته من العلوم الأخرى.

و مرادنا بـ(التكميلي) أنه يتكامل مع العلوم الأخرى كالتي ذكرناها، و التي تكاد تندك به، و لا تنفك عنه أبداً، بتلازم نفقد معه التمييز، بل و حتى التعبير عن مورد الإشكالات المطروحة حينها.

إن الدارس للأنثروبولوجيا يعرف بأن لها فروعاً، و للفروع تقسيمات، و للتقسيمات ما تحتها من تفرعات كثيرة.

إن الأنثروبولوجيا في أصلها كعلم تهتم بالإنسان فهي (علم الإنسان) و بما أن القرآن الكريم نزل على أفضل إنسان في الكون ألا و هو النبي محمد (صلى الله عليه و آله و سلم)، و جاء لهداية الإنسان، و تحدث عن مسار الإنسان منذ الخلق الأول، كما و تناول عاقبة و جزاء أعمال الإنسان. كان من الأولى تناول هذا الكتاب الكريم الذي نزل من أجل الإنسان لتوضيح و بيان كل ما يتعلق بهذا الكائن الذي سخر الله سبحانه و تعالى له كل شيء.

قال تعالى : ((أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ)) سورة لقمان، الآية (٢٠).

إذن فالأنثروبولوجيا كـ(علم إنسان) و رغم حداثتها فهي لا تتعارض مع أساسيات القرآن الكريم، كما و أنه ليس في القرآن الكريم - و لا في التشريع - ما يعارض أو يمنع الاستعانة بالعلوم من أجل خدمة بني الإنسان،

ذلك للوصول إلى الهدف المنشود في فهم حقيقة الإنسان و التي ستفضي إلى فهم سر الخلقة و الغاية من الوجود و لو بقدرٍ ما.

و نحن في بحثنا - هذا - عن (الأنثروبولوجيا القرآنية) لن نقول بأن القرآن الكريم فيه نفس الفروع و التقسيمات الأنثروبولوجية، أو أنّ ما قسمه علماء الأنثروبولوجيا متوافقٌ - بالضبط - مع القرآن.

بل إننا سنذكر ما هو موجود في القرآن الكريم من إشارات تتوافق - معرفياً - مع علم الأنثروبولوجيا، و سنساير علم الأنثروبولوجيا بكل فروعه و إن لم يكن ما يازائه موجوداً في القرآن الكريم و ذلك من باب تحقيق الفائدة (معرفياً) من باب احترام العلم و التخصص.

إن هدفنا الأساسي في تناول (علم الإنسان القرآني) هو الوقوف على محورين مهمين هما :

١- تبين الجانب الإعجازي في القرآن الكريم، في تناوله للحقائق العلمية ، و وقوفه على محاور علمية مهمة أشار إليها بدقة متناهية.

٢- تبين الجانب الأخلاقي في القرآن الكريم، و النظم الأخلاقية التي رسمها لنا هذا الكتاب العظيم و التي تحيط بكل شيء تقريباً، فما من طرح إلا و الجانب الأخلاقي ملازم له.

قال تعالى : ((مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)) سورة الأنعام، الآية (٣٨).

لقد حاولنا في هذا البحث أن نقدم ما يمكنه أن يحقق الفائدة في المجال (الأنثروبولوجي) من جانب، و في مجال (الدراسات القرآنية) الحديثة من جانب آخر. إذ تناولنا الجوانب المهمة في (الأنثروبولوجيا

القرآنية) من خلال التمهيد و الوقفات المهمة فقد تناولنا في الوقفة الأولى محورية الخطاب القرآني، و في الوقفة الثانية تناولنا موضوع الأخلاق العلمية و ما يختص بأخلاق العلم و ثنائية العلم و الأخلاق. و في أهداف البحث تناولنا الغاية منه لنعطي الصورة العامة و المهمة حول الموضوع. من ثم تطرقنا إلى مشكلة البحث و المؤاخذات و الملاحظات التي أثيرت على موضوع الأنثروبولوجيا بشكل عام، و كان ذلك ضمن ثلاثة أسباب رئيسية في هذا المجال. ثم كان المدخل إلى تعريف الأنثروبولوجيا، و تناولنا موضوع الأنثروبولوجيا من حيث ظهورها الإصطلاحي.

و كان لابد من الدخول بعد التعريف إلى علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الأخرى كعلم الأحياء، و علم الاجتماع، و الفلسفة، و علم النفس، و الجيولوجيا، و الجغرافيا، و علم الآثار.

ثم تطرقنا بعدها إلى اتجاهات دراسة الأنثروبولوجيا، لنعرّج على فروع الأنثروبولوجيا من أنثروبولوجيا عضوية، و أنثروبولوجيا نفسية، و أنثروبولوجيا ثقافية، و أنثروبولوجيا اجتماعية، و أنثروبولوجيا اقتصادية، و أنثروبولوجيا دينية، و أنثروبولوجيا استعمارية، لتتم بذلك فروع الأنثروبولوجيا جميعها تقريباً.

و تناولنا بعدها موضوع (نحو علم إنسان إسلامي) و الأنثروبولوجيا في الفكر الإسلامي، و القرآن الكريم و علم الإنسان.

و كان لابد أن نبين الأسس المهمة في الأنثروبولوجيا القرآنية، إذ لابد لكل شيء من أساس يقوم عليه.

بعدها عرّجنا على موضوع القواعد القرآنية و الذي يعتبر و بصورة عامة من المواضيع البكر، و كذلك تطرقنا للقواعد القرآنية و دورها في التأسيس للقضايا العلمية.

من ثم أشرنا إلى القواعد القرآنية حول الوجود الإنساني، و بما أنه لا بد للقواعد من نماذج تقوم عليها، فكان من اللازم التطرق إلى موضوع النماذج القرآنية، و ذكر ميزات النماذج الإنسانية و مقارنتها بالنماذج القرآنية، لنقف عند أهم ميزات و أساسيات النموذج القرآني.

بعدها دخلنا إلى أسس البحث ألا و هو : الأنثروبولوجيا القرآنية و موضوع خلق الإنسان و تطوره في المنظور القرآني، و موضوع إبطال نظرية النشوء و الإرتقاء، و موضوع البدائية و الإشكالات حولها. و كان في نهاية البحث أن أضفنا ملحقين مهمين به تامة بحثنا. سائلين من الله تعالى العون و التسديد إنه نعم المولى و نعم النصير.

و الحمد لله رب العالمين

المؤلف

النجف الأشرف

١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م



الفصل التمهيدي:



مدخل تمهيدي:

وقفات مهمة:

الوقفات الأولى: محورية الخطاب القرآني.

إن القرآن الكريم هو كتاب الله تعالى أنزله على نبيه محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لهداية البشر ، ولخلاصهم ، ولتحقيق سعادتهم في الدارين ، إذ للقرآن الكريم أهمية كبيرة وعظيمة في تحقيق السعادة الحقيقية للبشرية في الدنيا والآخرة ، وذلك لمن أهتدى بهداه ، و سار على نهجه.

إننا لو حققنا ، و فحصنا بدقة للفت أنبأها شيء مهم ألا وهو ؛ أن هناك محورين أساسيين يتكرران دائماً في آيات القرآن الكريم وإن اختلفت الألفاظ، و المحاور، و الأسباب، أو الدواعي ؛ وهما (الله) جلّ و علا، الخالق، البارئ، المصور ، و (الإنسان) المخلوق الأكثر كمالاً على وجه البسيطة. فهما المحورين الأكثر بروزاً في آيات القرآن الكريم ، و بالتالي سنستفيد أن هدف القرآن الكريم هو تنظيم علاقة (الإنسان) مع (الله) سبحانه و تعالى.

إن الله سبحانه و تعالى خالق الإنسان و ربه و سيده و المتفضل عليه بالنعم الكثيرة¹، فواجبٌ على الإنسان أن يطيعه و يعبدّه و يتقرب إليه، و أن يشكره على النعم الكثيرة التي وهبها له سبحانه و تعالى.

إن الله سبحانه و تعالى وضع الكثير من التشريعات ، و القصص ، و العبر ، و الحكم ، و الأمثال ، كل ذلك في سبيل رقي الإنسان نفسياً و روحياً ، و جعل في القرآن الكريم الكثير من الأسرار و الحكم و العلوم ما لو فهمها و طبقها الإنسان لنال السعادة الأبدية في دنياه و آخرته.

¹: داخلية وخارجية ، خاصة وعامة .

الوقفـة الثانية : الأخلاق العلمية.

الإنسان كائن أخلاقي، وهذه حقيقة لابد للكل أن يقرَّ بها. إذ بدونها لن يكون هناك فرق بينه وبين العجماوات. فالإنسان يتفرد بالأخلاق، وهذه أيضاً حقيقة جوهرية، وميزة إنسانية عظمى على الكل أن يعترف بها. فالأخلاق هي عماد كل خير و نبل و نقاء، و خلافها الشيطنة، و الظلامية، و التسافل، و الهمجية.

و ما اقترنت الأخلاق بشيءٍ إلا و زانته، و ما فارقتها إلا و شان. فبالأخلاق ترتقي الأمم و تُحترم، و تظل خالدة الذكر و الذكرى.

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا^١
إنَّ جذوة الأخلاق موجودة في داخل كلِّ فرد، و هي مرافقة لوجود أي أمة مهما كان دينها أو لغتها. إلا أن هذه الجذوة تحتاج إلى استنهاض و إظهار. و الدليل على وجودها قول النبي الأكرم (صلى الله عليه و آله و سلم): ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق))^٢.

فلا تمامية إلا لما هو موجودٌ، و لا تمامية إلا لما يعتريه النقص و الضمور.

إن من أهم أسباب تخليد الأمم و الحضارات و ازدهارها هو ؛ العلم، و هو بلا أخلاق يصبح مجرد آلة خالية من كل المشاعر و الأحاسيس. فأساس العلم ؛ الأخلاق، و الأخلاق زينة العلم، و عند انحلال هذه الثنائية فإن الخلل الذي سيحصل سيكون مدمراً للوجود الإنساني بشكل كبير و مخيف.

^١: للشاعر المصري : حافظ إبراهيم .

^٢: تفسير القرطبي ، ج٧، ص ٣٤٥.

إن العلم يرتقي بالأخلاق، و الأخلاق تنتشر و تزدهر بواسطة العلم
(العلم الصالح).

إن العلم بلا أخلاق أشبه بحربٍ غير شريفةٍ ستُستخدم فيها جميع
الأسلحة المحظورة، و تمارس فيها جميع صور التجاوزات اللاأخلاقية في
سبيل الفوز.

إن الأخلاق من أساسيات الأديان، فكيف لصاحب الدين - أي دينٍ
كان - أن يتجرد منها ساعة العمل أو التجارة أو ساعة طلب العلم و ما شاكل
ذلك ؟!

إن الأخلاق من أساسيات الإنسانية، فكيف يتركها الإنسان ليلهث
وراء شهواته الحيوانية مسبباً عقله و مسلطاً شهوته على كل حواسه. إننا نبقى
بالأخلاق، و نفنى بدونها، فالبقاء من غيرها ما هو إلا بقاءٌ اسمي مجرد عن
الروح، و بعيدٌ كل البعد عن الوجود الحقيقي.

إن العلوم التي تتجرد من الأخلاق ما هي إلا علومٌ شريرة، إذ أن
الرادع عن حصول المساوي هو وجود (أخلاقيات العلم) و مع عدم وجودها
فلا رادع من أن يُرتكب أي شيءٍ في سبيل الوجود و الهيمنة.

إن العالم شاهدٌ على مذابح كبرى أرتكبت تحت مظلة العلم، من
تجارب مورست على شعوب، و مذابح لتجربة الأسلحة الجديدة، و إبادات
باسم الهيمنة على الأراضي و الثروات، كلها انطلقت من تحت مظلة العلم
الغير إنساني. إن الحريين العالميتين هما أكبر شاهدٍ على الانحطاط الأخلاقي
للمجتمعات التي تدّعي التطور و الإنسانية. فلا بد لكل علمٍ من أخلاقٍ تسيطر
عليه، فمن دونها لا حرمة و لا كرامة لأي شيءٍ أبداً.

لذا فإن علينا أن نؤطر جميع العلوم بأطر أخلاقية، ونطلبها تحت مظلة الأخلاق، و نمارسها بوازع أخلاقي، فمن المعيب أن نفصل ما بين العلم و الأخلاق تحت مدعيات مخالفة لجميع القيم و معاكسة لكل الأذواق.

(لا يزال الموقف اللاأخلاقي نفسه سبباً في تنميط المعرفة و أسرها. الأمر واضح إذا ما تأملنا عدد الشعارات التي تُرفع اليوم دفاعاً عن حقوق الإنسان، و كيف يتم ذبح الإنسان على أكثر من غواية للمجتمع الحديث؟!)^١. إن من أساسيات العلم أن يكون له حامٍ، و ليس هناك أفضل من الأخلاق كحامٍ و مدافع عن العلم و أصحابه. فالأخلاق تحمي العلم من أن يخرج عن روحيته إلى المادية المقيتة ليكون مجرد آلة جامدة تفتقد لكل إحساس و لا تعرف التمييز، لا بل قد تكون أداة لزرع التفرقة و الطبقية و التمييز و هذا ما نشاهده - على سبيل المثال - عند - أغلب - من يحملون الشهادات العليا، فبمجرد أن ينال (الدكتوراه)^٢ نراه يعامل الناس جميعاً على أنهم جهلة فلا عالم إلا هو فقط، و هو - في حقيقة الأمر - لا يعلم مدى الجهل المركب الذي يعيشه.

نعم، لابد لكل علمٍ من أخلاق تُمنهج له طريقه، و ترسم له مساراته، و تعطيه الروحية و الحياة. العلم بلا أخلاق كالشجرة اليابسة، و كالصحراء القاحلة، و كالمدينة المهجورة.

لا بد لنا عند تنظيمنا لمؤسساتنا العلمية أن نركز في بنائها على الأخلاق و على التربية الصالحة. إن المدرسة مؤسسة تربوية و علمية، لكننا نشاهدها

^١: أخلاقنا في الحاجة إلى فلسفة أخلاق بديلة، إدريس هاني، ص ١٠٧.

^٢: ليس الكل، والمشار إليهم هم فقط من يمتلكون هذا الحس التكبري المقيت.

تعطي علماً فقط، و كذلك الجامعات و غيرها مع شديد الأسف.
نعم، إن للعلم و الأخلاق مسار واحد إذ يؤثر أحدهما في الآخر تأثيراً
تكاملياً، لكننا نجد أن مسارهما أصبح مساراً تنافسياً من أجل الظهور لأحدهما
على حساب الآخر فتكون الغلبة فيها - كما نراه حالياً و عالمياً - للعلم على
الأخلاق؟!

إن علينا أن نؤسس لـ (ميثا - أخلاق)¹ تكون أساساً في رقينا الروحي
قبل الجسدي. و لابد أن (نُشرعن) العلم بالشرعية الأخلاقية حتى لا يضل
السبيل و يخرج عن جادة الصواب.

¹: ميثا - أخلاق: أي المبادئ و الأولى و الأسس التي تقوم عليها الأخلاق .

أهداف البحث

لا يخفى أن لكل بحث أهدافه، فتارة تكون الأهداف عامة، و تارة تكون خاصة. و الأهداف المعرفية العامة هي - دائماً - المقدمة على كل أنواع الأهداف الأخرى.

إن تعرضنا لبحث (الأنثروبولوجيا القرآنية) أي (علم الإنسان القرآني) جاء لعدة أسباب مهمة هي :

١- إن القرآن الكريم ليس بالكتاب الذي اقتصر على قضايا معينة - فقط - بحيث لا يتجاوزها إلى غيرها ، و ليس هو بالكتاب الخاص بزمان معين ، أو مكان معين ، أو دين معين ، أو مذهب أو طائفة معينة ، و إن دل ظاهر بعض الآيات على ذلك ، لكن العمومات فيه كثيرة ، فهو قد جاء للناس جميعاً ، و هو كتاب ؛ (حمالٌ ذو وجوه). فالقرآن الكريم دستور البشرية و مصدر تشريعها الإلهي شاء البعض ذلك أم أبى.

٢- إن القرآن الكريم تناول آداباً ، و أسراراً ، و أحكاماً ، و علوماً كثيرة جداً ، لم يتم حصرها لحد الآن. فالقرآن الكريم قد وضح أساسيات معينة لقضايا كثيرة فُصِّل بعضها في أحاديث شريفة ، أو ترك تفصيلها و تفريعها للإنسان وفق مبادئ و أسس معينة. فلا بد من استجلاء القرآن الكريم لاستكشاف ما به من أسرار ، و كنوز ، لا بأن نعمل وفق مبدأ (التلفيق البعيد) لنربط كل شيء بالقرآن ، كما فعل البعض في تفاسير و كتب وضعت - لذلك - هي في حقيقتها تشتمل على إسقاطات بعيدة عن روح القرآن الكريم. و لا بأن نعمل وفق مبدأ (التبرير الماضوي) في تعاملنا مع القضايا و الحوادث التي تمر علينا ، أو الطارئ منها.

إن في القرآن الكريم إشارات يستطيع احداً مع (بساطته العلمية) أن يحصل عليها، لأنها موجودة في حيز (الإمكان البشري العادي) فيستفيد منها في مجالات مختلفة، أو يقارنها مع ما يشاء من قضايا ليستند إلى حقائق القرآن المقدمة على الإستقرارات البشرية الناقصة.

٣- إن معنى (الأنثروبولوجيا) هو (علم الإنسان) ، و بما أن للإنسان الحظ الأوفر ، و الذكر الأكثر في القرآن الكريم. فلا بد إذن من أن نبحث عن الإنسان، و عن علم الإنسان في هذا الكتاب الإلهي الخالد الذي ((لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد))^١.

و أن نعتد في رسم الحقائق الإنسانية على القرآن الكريم و نستمد منه ما يفيد في مجال فهم هذا الكائن الفريد، ذلك لأننا نريد البحث عن علم الإنسان القرآني، أي العلم المختص بالإنسان، ذلك المخلوق الذي جاء القرآن الكريم من أجله و لأجله. فمن اليقين إذن أن يكون هذا الكتاب أدق و أفضل من تكلم عن الإنسان، و ذلك من مرحلة قبل خلقه، و حتى مستقره الأخير في يوم القيامة ((فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ))^٢.

إننا لو أردنا الكلام عن كتاب اختص بعلم الإنسان فليس هناك أفضل من القرآن الكريم.

٤- لقد أصبح (علم الإنسان) (الأنثروبولوجيا) من الاختصاصات المهمة في الدراسات الأكاديمية، بل دخل في الاختصاصات الإسلامية، فماذا نصنع ؟

^١: سورة فصلت ، الآية (٤٢) .

^٢: سورة الشورى ، الآية (٧) .

هل نصفه بالكفر ؟ أم نمنع التخصص به ؟ أم نحرم دراسته ؟ أم نغيّر اسمه ؟ أم نأسلمه كما يحب البعض أن يؤسلم كل شيء ؟!

في الحقيقة كل تلك التساؤلات و أكثر منها قد وردت على هذا العلم ، و على علوم كثيرة أخرى اشتركت معه في كون تسمياتها (غريبة) مع عدم الالتفات إلى روح تلك العلوم ، و حقيقتها و فائدتها، و هل أنّها - في أصل وجودها - مستمدة من علوم إسلامية ، و هل تفيد هذه العلوم في تطور المنظومة (العربية - الإسلامية).

إننا لو فعلنا ذلك لخرجنا من إشكالات كثيرة ، و عُقد متراكمة خلفتها العقلية المتحجرة ، و الأفق الضيق لبعض الفئات التي تعيش خلف الحضارة في مجتمعاتنا ممن يدعون العلم أو الدين.

5- إن ما مر به الإسلام و المسلمون عبر التاريخ من مؤامرات و حروب و إبادات و معضلات و غزوات و سرقات لم يُتَحَ الفرصة لجمع و فهم التراث (العربي - الإسلامي) بكل ما فيه من كنوز و حقائق ، فلقد أمسى تراثنا بين ضائع و مسروق، و بين محرف و مزور ، و هذا ما يقرُّ به أكثر المسلمين إن لم نقل كلهم.

فكمثال من أمثلة التراث الإسلامي حين نأتي للأحاديث نقول : كيف لنا أن نتشدد في أمرٍ لا بد لنا وفق العقل السليم أن نتروى فيه لنعرف مدى مصداقيته ، و من الذي ذكره ، و متى ذكر ، و هل جاء ما ينقضه ، و هل قيل في حادثةٍ خاصة و هل هو عام أم مقيد ، و من الذي كتبه و نقله ، و ما شاكل ذلك، إن قمنا بها لحققنا جزءاً كبيراً من الوصول للحقيقة، أو - أضعف الإيمان - لما سيوصلنا إلى الحقيقة.

إن أهم شيء هو عدم الحكم المسبق على الأشياء ، بل لابد من التأمل بها ، و معرفة مدى فائدتها ، و بالتالي محاكمتها إسلامياً لنحقق الهدف المنشود و الذي أراده لنا الإسلام ؛ من استيعاب الثقافات الأخرى و صهرها في بوتقة الإسلام.

مشكلة البحث المؤاخذات والملاحظات على الأنثروبولوجيا

لابد أن نتعرض لأهم الأسباب التي دعت إلى عدم تقبل (الأنثروبولوجيا) في العالم (العربي - الإسلامي) - بشكل عام - و الملاحظات التي أثّرت حول هذا العلم، نعم، إن أكثرها قد ضُمِر و بدأ يندرس إلا أنه لابد من الإشارة إلى بقاء معارضين لهذا العلم، بالإضافة لوجود الخلفية التاريخية^١ المعارضة لهذا العلم. و عند بحثنا عن جملة المؤاخذات و الملاحظات التي أثّرت على الأنثروبولوجيا رأينا أنها - و بشكل عام - تندرج في الأسباب الآتية :

١- السبب الأول : -

عدم تقبل فكرة التطور الإرتقائي للإنسان ، و المتمثل بـ(نظرية النشوء و الإرتقاء) التي ظهرت عند (تشارلز داروين)^٢ في كتابه (أصل الأنواع) ، و ذلك لتعارضها مع أساسيات بدء الخلقة في الدين الإسلامي ، و التي منها :

^١: أو بالأحرى (مخلفات تاريخية) .

^٢: تشارليز داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢ ميلادي) .

كون الإنسان قد خلقه الله سبحانه و تعالى كما هو عليه الآن ، و ليس هو نتاج حلقة تطورات ذات أصل حيواني.

و في هذا الشأن يقول السيد الطباطبائي^١ صاحب تفسير الميزان (رحمه الله) : (إن النوع الإنساني ، و لا كل نوع إنساني ، بل هذا النسل الموجود من الإنسان ليس نوعاً مشتقاً من نوع آخر حيواني أو غيره حولته إليه الطبيعة المتحولة المتكاملة ، بل هو نوع أبدعه الله تعالى من الأرض ، فقد كانت الأرض و ما عليها و السماء و لا إنسان ، ثم خُلِقَ زوجان أثنان من هذا النوع و إليهما ينتهي هذا النسل الموجود... و أما ما افترضه علماء الطبيعة من تحول الأنواع ، و إن الإنسان مشتق من القرد ، و عليه مدار البحث الطبيعي اليوم ، أو متحول من السمك على ما احتمله بعض ، فإنما هي فرضية ، و الفرضية غير مستندة إلى العلم اليقيني ، و إنما توضع لتصحيح التعليلات و البيانات العلمية ، و لا ينافي اعتبارها اعتبار الحقائق اليقينية ، بل حتى الامكانات الذهنية ، و إذ لا اعتبار لها أزيد من تعليل الآثار و الأحكام المربوطة بموضوع البحث...)^٢.

فالاعتراض الأول يكمن في كون أصل الإنسان قرد ، أو أي شيء آخر^٣.

إن نظرية كون الإنسان قرد هي نظرية عُرفت عن (داروين) و التصقت به ، لكن لو رجعنا إلى الفلسفات الأخرى ، و بالخصوص الفلسفات الآسيوية حول أصل الإنسان لوجدنا العجب العجائب^٤ ، و كل ذلك ليس مدار

^١ : محمد حسين الطباطبائي (١٩٠٣ - ١٩٨١ ميلادي) عالم و فقيه و مفسر و فيلسوف .

^٢ : الجواهر النورانية ، السيد الطباطبائي ، أعداد و جمع رضوان سعيد فقيه ، ص ٢٢٩ .

^٣ : كما في بعض الفلسفات الدينية لأصل نشأة الإنسان .

^٤ : تراجع لذلك الكتب التي تناولت تاريخ الأديان ، و كتب الملل و النحل .

بحثنا هذا ، لكن المهم إن قضية (أن أصل الإنسان قرد)^١ غير مقبولة ، فهي تتعارض مع الثوابت الإسلامية و التي منها كون الإنسان أشرف المخلوقات ، و أفضلها ، قد خلقه الله تعالى كما هو عليه الآن بلا تغيير أو تبديل أو تعديل أو تطور ، و بما أن علم الأنثروبولوجيا ، و بالخصوص الغربي منه - بشكل عام - يؤمن بأن أصل الإنسان قرد لذا فلقد شُطب على هذا العلم ، بل حُرِّم لهذا السبب عند البعض.

و الاعتراض الثاني هو في خضوع الإنسان - كما يُدعى - لسلسلة من التطورات حتى وصل إلى شكله الحالي، و لا نعلم مستقبلاً - و بحسب هذه النظرية التطورية الإرتقائية - ما سيكون عليه شكله!؟

٢- السبب الثاني : -

ارتباط نشأة الأنثروبولوجيا ، و بداياتها التاريخية بالاستعمار ، حيث ان الدراسات كانت تتم على المجتمعات البدائية - كما يطلق عليها - بهدف معرفة بنيتها التركيبية ، و طبيعتها الثقافية ، مما سيسهل استعمارها ، فأصبحت (الأنثروبولوجيا) أداة استعمارية بامتياز هدفها تسهيل مهمة الاستعمار و السيطرة و استعباد الشعوب.

و هنا يقول (جيرار لكلرك) : (إن موقف الأنثروبولوجيا الاستعماري لم يتوضح بالفعل إلا بعد أن بدأت مرحلة إنهاء الإستعمار في العالم الثالث...

^١ : أو ما شاكلها .

يمكن القول إذن إن الإمبريالية الاستعمارية المعاصرة تتوافق زمنياً مع الأنثروبولوجيا المعاصرة...^١.

لقد كان الإستشراق المصدر الأول للبدايات التأملية الأنثروبولوجية في الشرق الأوسط - على سبيل المثال - ، ففي تلك المرحلة كان المستشرقون حتى منتصف القرن التاسع عشر تقريباً علماء للعهدين القديم و الجديد ، أو مبشرين ، و في أفضل الحالات علماء بالدراسات السامية.

و من أجل ذلك يربط (إدوارد سعيد)^٢ بين الاستشراق و الأنثروبولوجيا ، ليس في النشأة ، بل في المادة التي اعتمداها ، ثم في انهما علمان استعماريان ، أو نشئا في مرحلة الاستعمار و لخدمته^٣.

و في هذا المجال يقول الأستاذ (أكبر أحمد) ما نصه : (إن علم الإنسان الحديث... هو من نتاج الاستعمار... فحملة بونابرت على مصر كان يرافقها " ١٥٠ " عالماً منهم علماء متخصصون في دراسة الثقافات كانت في أيديهم أوراقهم ، و هذا الاتصال الأول بين أوروبا رائدة الاستعمار و آسيا و إفريقيا المستعمرتين ، كان - هذا الاتصال - حجر الأساس في طرق دراسة ثقافات المجتمعات في هاتين القارتين ، و بلغ الاهتمام بوصف ثقافات الشعوب المستعمرة ذروته فيما ظهر بعدئذ من دراسات مستفيضة للمجتمعات الإفريقية و الآسيوية و المحيطية. و لقد أسهم المستشرق - و هو العالم الغربي المتخصص في شعوب الشرق و تقاليدها - في رسم صورة الشرقي ، و في

^١ : الأنثروبولوجيا و الإستعمار ، جيرار لكلرك ، ص ١٢ .

^٢ : إدوارد وديع سعيد (١٩٣٥ - ٢٠٠٣ ميلادي) فلسطيني الأصل ، امريكي الجنسية .

^٣ : الأستشراق ، إدوارد سعيد .

غضون حقبة الاستعمار تكوّنت في عقول الغربيين صورة متزايدة التفاصيل عن الشرق...^١.

لكن لا بد من عدم الخلط ، فالأنثروبولوجيا مهما كانت هي علم وضعي استُغل من قِبَل الاستعمار وغيره ، لخدمة غاياته ، فهي - أي الأنثروبولوجيا - قابلة لأن تكون أداة خير أو شر على حد سواء ، فالخلل ليس في العلم ، بل في آلية العمل والاستخدام.

وإن كان ظننا أن نحرم كل ما جاء به الاستعمار الأجنبي فعلى الأرجح ستتوقف المسيرة الخاصة بنا ، و سنرجع إلى ما يسمى بـ(عصر ما قبل التاريخ) ، إذ يكفي لأي عاقل أن ينظر لما حوله فيجد كل المنتجات الموجودة هي من مناشئ أجنبية صنعتها الدول التي كانت تستعمرنا في يوم من الأيام ، ومنها (المطابع ، والورق ، والأحبار ، وأدوات الكتابة ، و الكمبيوترات ، والطابعات ، و... ، إلخ...) بل يبدو أنه كل شيء ؟!

نعم (لم تكن الثقافة الأوروبية الاستعمارية قط بريئة تماماً سياسياً ، إذ كان الهدف من وراء فهم أهالي المستعمرات فهماً أفضل هو إخضاعهم بكفاءة أكبر ، و بالفعل ترجمت المعرفة بأحوالهم إلى سياسة إدارية...) ^٢.

إن علينا أن نؤمن بما سوف نقدمه في المستقبل عن طريق استغلال وسائل التطور لتحصيل الاستقلال المعرفي الخاص بنا ، لا بأن نطبق المنظومة الغربية في كل مجالات حياتنا ، وبالخصوص في مجال التعليم ، وفي نفس الوقت ننتقدها ، إن ذلك و بحق (نفاق) نستعيد بالله تعالى منه.

^١ : نحو علم الإنسان الإسلامي ، أكبر أحمد ، ص ٤٢ .

^٢ : م . ن ، ص ٤٦ .

الغرب نَظَر ، و طَبَّق ، و بالتالي استفاد و جنى ثمار ما زرعه ، و ما نَظَر له ، فلماذا نبقى نمثل دور الضحية على طول الخط ؟ ، و لماذا نبقى نستجدي المعرفة التي أنطلقت من أرضنا في يوم من الأيام ؟ ، و لماذا نبقى في أزمة يتنازعها تياران مهمان في حياتنا (إما التقليد الأعمى) ، أو (النقد المطلق) المساوق للرفض.

٣- السبب الثالث : -

الحساسية من المصطلح ، فمصطلح (الأنثروبولوجيا) ليس مصطلح عربي ، و لم يشتق من لغة العرب ، بل هو مصطلح ذو أصل لاتيني ، و قيل يوناني ، و قيل أوربي ، المهم أنه مصطلح وافد ، و بما أن هناك حساسية من كل وافد غربي ، و المشهور محاربة و تحريم كل وافد أجنبي ، فلا بد إذن من تحريم (الأنثروبولوجيا) و لو اصطلاحاً.

ان (إشكالية المصطلح) و (المفهوم) من الإشكاليات التي لا تنتهي ، و بالخصوص ما بين دعاة التراث و دعاة المعاصرة ، فكلاهما يكفر الآخر وفق هذه الإشكالية التي لا حل لها أبداً.

و رداً على قضية (المصطلح)^١ نقول : إن المصطلح عبارة عن إختصار و إجمال لقضية أو لعلم ما جاء موافقاً لسياقات التعبير اللغوي و موافقة التأويل المراد.

و (المصطلح) ليس شيء جديد ، أو إنه مختص بالغرب ، أو جاء

^١: المصطلح باللغة الأنكليزية (term) وهو مشتق من الكلمة اللاتينية (terminus) ، أما علم المصطلح فهو (Terminology) .

منهم ، إنما هو شيء موجود بالتراث الإسلامي ، فنجد الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) يقول : ((وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني ، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء ، وهم اصطلاحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم ، فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف ، وقدوة لكل تابع))^١.

كما و نجد الخوارزمي (ت ٣٨٠ هـ) يقول في وصفه لكتابه مفاتيح العلوم : إنه جعله ((جامعاً لمفاتيح العلوم و أوائل الصناعات ، مضمناً ما بين كل طبقة من العلماء من الموضوعات و الاصطلاحات))^٢.

و نجد ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) يقول : ((حتى لا يكون شيء منه مصطلحاً عليه...))^٣.

كما و نجد التهانوي (ت ١١٥٨ هـ) صاحب كتاب كشاف اصطلاحات الفنون يقول : ((... فإن لكل اصطلاحاً خاصاً به...))^٤.

و نجد كتب و مؤلفات أعتنت بذلك و ذكرته ك(كتاب التعريف بالمصطلح الشريف) للقاضي ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ) ، و كتاب (بلغة الغريب في مصطلح آثار الحبيب) للشيخ محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ).

و يقول (الجرجاني) (ت ٤٧١ هـ) في تعريفه للاصطلاح : ((عبارة عن

اتفاق قوم على تسمية الشيء باسم ما يُنقل عن موضعه الأول ، و إخراج اللفظ

^١: البيان والتبيين، الجاحظ ، ج ١، ص ١٣٩.

^٢: مفاتيح العلوم، الخوارزمي، ص ٢ - ٣.

^٣: الصاحبي ، ابن فارس ، ص ٧.

^٤: كشاف اصطلاحات الفنون ، التهانوي ، ج ١ ، ص ٣.

من معنى لغوي إلى آخر لمناسبة بينهما. وقيل : الاصطلاح : اتفاق طائفة على وضع اللفظ بازاء المعنى. وقيل : الاصطلاح : إخراج الشيء عن معنى لغوي إلى آخر ، لبيان المراد. وقيل : الاصطلاح : لفظ معين بين قوم معينين^١ إذن فالمستفاد وجود الاصطلاح و المصطلح في التراث (العربي - الإسلامي) ، و هناك كتب عديدة ألفت حوله و بحثت فيه و أشارت إليه. و من جراء كل ذلك نشأ (علم المصطلح) و هو علم حديث يعتبر من العلوم التي ظهرت في القرن العشرين ، هدفه تحقيق المطلوب من مواكبة التطور العلمي و التقني الذي يشهده العالم ، و تحقيق الفهم الصحيح لكل وافدٍ جديد بما يوافق اللغة و الفهم السليم، و بما يلائم عقل المتلقي. و قد عَرَّفوا (علم المصطلح) بأنه : ((حقل المعرفة الذي يعالج تكوين التصورات ، و تسميتها سواء في موضوع حقل خاص ، أو في جملة حقول (المواضيع))^٢.

و كان أن تم تأسيس (المجامع اللغوية)^٣، من أجل وضع المصطلحات العلمية التي تفتقر إليها اللغة العربية ، و دراسة المصطلحات الوافدة و الجديدة و إبداء الرأي فيها^٤.

^١: التعريفات ، الجرجاني ، ص ٢٣ .

^٢: معجم مفردات علم المصطلح ، هيئة المواصفات والمقاييس العربية السورية ، مجلة (اللسان العربي) ، الرباط ، المغرب ، عدد ٢٤ ، ١٩٨٥ ، ص ٢٢٣ .

^٣: ك(مجمع دمشق ١٩١٩ ، و مجمع القاهرة ١٩٣٢ ، و مجمع بغداد ١٩٤٧ ، و اتحاد المجامع العربية ١٩٧٠ ، و مجمع عمان ١٩٧٦ ، و المجمع السعودي ١٩٨٣ ، و مجمع الجزائر ١٩٨٦) .

^٤: الأدوات المعرفية ، ليث العتايي ، ص ١٨٩ .

الفصل الأول



تعريف الأنثروبولوجيا

من عادة الكتاب في المؤلفات الخاصة بالقضايا العلمية أن يقدموا مقدمة يوضحوا فيها اسم العلم، و تعريفه، مع مقدمة تمهيدية مختصة به، و نحن و قبل الخوض في تفاصيل بحثنا - هنا - نود أن نمهد بمقدمة نعرّف فيها علم (الأنثروبولوجيا) و ما يتعلق به، لنسهل على القارئ فهم مجمل الموضوع و الاحاطة العامة بما سيتناوله هذا الكتاب.

فالأنثروبولوجيا هي : علم الإنسان ، و قد نحتت الكلمة من كلمتين يونانيتين هما (anthropos) و معناها " الإنسان " ، و (logos) و معناها " علم " ، و عليه فإن المعنى اللفظي لإصطلاح الأنثروبولوجيا (anthropology) هو : علم الإنسان^١. و لما كان هذا التعريف ينطبق أيضاً على علوم أو تخصصات متميزة أخرى كالتاريخ و علم الاجتماع و علم الاقتصاد و الفنون الجميلة و العلوم السياسية و علم الأديان - حيث تُعنى تلك العلوم و الدراسات الإنسانية بدراسة الإنسان في ناحية من نواحيه - فلعل أفضل طريقة في التعريف بالأنثروبولوجيا هي من خلال تحديد ما يقوم به في الواقع هؤلاء الأفراد الذين يُعرفون كمتخصصين في الدراسات الأنثروبولوجية^٢.

و تعرف الأنثروبولوجيا بتعريفات عدة أخرى و كثيرة لعل من

أشهرها:

١- علم الإنسان.

٢- علم الإنسان و أعماله و سلوكه.

^١: المعجم الموسوعي لمصطلحات الحداثة و نقدها، مادة أنثروبولوجيا، و مدخل إلى

الأنثروبولوجيا، حسن أبو زيد، ص ١٣ - ١٤

^٢: مقدمة في الأنثروبولوجيا، المجالات النظرية و التطبيقية، محمد عبده محجوب، ص ٢٥.

٣- علم الجماعات البشرية و سلوكها و إنتاجها.

٤- علم الإنسان من حيث هو كائن طبيعي و اجتماعي و حضاري.

٥- علم الحضارات و المجتمعات البشرية^١.

و قد عرّفته عالمة الأنثروبولوجيا الشهيرة (مارغريت ميد)^٢ من حيث الدور و ما يراد منه بقولها : (أن الأنثروبولوجي يحاول وصف الخصائص الإنسانية ، البيولوجية ، و الثقافية للجنس البشري عبر الأزمان ، و في مختلف المناطق ، و يحلل الصفات البيولوجية و الثقافية و المحلية كأنساق مترابطة و متغيرة ، كما يصف و يحلل النظم الاجتماعية و التكنولوجية ، و يبحث الإدراك العقلي للإنسان و ابتكاراته و معتقداته و وسائل اتصالاته)^٣.
و عرّفه الاستاذ (شاكر مصطفى سليم)^٤ بأنه : (علم دراسة الإنسان طبيعياً و اجتماعياً و حضارياً)^٥.

و يرى (كلود ليفي ستراوس)^٦ أن (الأنثروبولوجيا هي نسق للتفسير يضع في الاعتبار النواحي الفيزيائية و الفسيولوجية و السيكولوجية و الاجتماعية لكل أنواع السلوك)^١.

^١ : المدخل إلى علم الأنثروبولوجيا ، شاكر مصطفى سليم ، ص ٧ .

^٢ : مارغريت ميد (١٩٠١ - ١٩٧٩ م) .

^٣ : قصة الأنثروبولوجيا ، حسين فهميم ، ص ١٣ .

^٤ : شاكر مصطفى سليم العزاوي العماري (١٩١٩ - ١٩٨٥ م) ولد في مدينة العمارة جنوب العراق ، درس في بغداد و القاهرة و لندن ، استاذ الانثروبولوجي (علم الإنسان) له (قاموس الأنثروبولوجيا عربي - انكليزي) .

^٥ : قاموس الأنثروبولوجيا ، ص ٥٦ .

^٦ : كلود ليفي ستراوس أو شتراوس (١٩٠٨ - ٢٠٠٩ م) .

كما و تُعرف الأنثروبولوجيا بأنها : العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو كائن عضوي حي ، يعيش في مجتمع تسوده نظم و أنساق اجتماعية في ظل ثقافة معينة ، و يقوم بأعمال متعددة ، و يسلك سلوكاً محدوداً ، و هو أيضاً العلم الذي يدرس الحياة البدائية ، و الحياة الحديثة المعاصرة ، و يحاول التنبؤ بمستقبل الإنسان معتمداً على تطوره عبر التاريخ الإنساني الطويل ، و لذا يعتبر علم دراسة الإنسان (الأنثروبولوجيا) علماً متطوراً ، يدرس الإنسان و سلوكه ، و أعماله^٢.

إن علم الأنثروبولوجيا هو : ذلك العلم الشمولي الذي يدرس الإنسان و أعماله ، الذي تتمحور أبحاثه حول طبيعة الإنسان كمخلوق ينتمي إلى العالم الحيواني. و أنه الوحيد الصانع للثقافة ، و مبدعها ، و القادر على التعبير عما يجول في داخله بكلمات منطوقة مُرمزة ، و القادر على التفكير المجرد ، و العيش ضمن جماعة ، يرتبط أفرادها بروابط اجتماعية ، و ثقافية ، و روحية غير ثابتة ، لارتباطها بظروف موضوعية متنوعة ، و متحركة ، تحيط بهذه الجماعة أو تلك التي تختلف في الزمان و المكان ، و التي تنعكس بدورها على تلك الروابط ، مما يجعلها تتباين شكلاً و مضموناً^٣.

و يطلق على هذا العلم عدة مسميات منها : (الأنثروبولوجيا) ، و (علم الإنسان) ، و (علم الاناسة).

¹: Levi – Strauss Claude : Introduction a Loeuvre de Mauss " Sociologie & Anthropologie " ,P.U.F.1950 .P. XXV .

^٢: مدخل إلى علم الإنسان ، عيسى الشماس ، ص ١٣ - ١٤ .

^٣: علم خصائص الشعوب ، علي عبد الله الجبالي ، ص ٧ .

فتَحَصَّل بأن عِلْم الأنثروبولوجيا يدرس الإنسان بكونه أحد أفراد مملكة الحيوان ، و تدرس سلوك الإنسان في المجتمع ، و الأشكال الأولى للإنسان ، و المجاميع الأولى لبني البشر ، كما و تحاول الأنثروبولوجيا كشف و توصيف المعايير الفيزيائية التي تميز الجنس البشري عن سائر الكائنات الحية الأخرى ، وفق دراسات ذاتية و مقارنة حتى داخل الأسرة الواحدة^١.

و تدخل الأنثروبولوجيا ضمن نطاق (العلوم النوميوتيقية) (Sciences Nomothétiques) ؛ و المراد بها : تلك العلوم التي تبحث عن استخلاص (قوانين) بمعنى أنها تسعى للوصول إلى علاقات كمية و ثابتة نسبياً و يمكن التعبير عنها في صورة (وظائف) رياضية ؛ أو تسعى للوصول إلى شواهد عامة أو علاقات تنظيمية عن طريق تحليلات بنائية أو غير ذلك مما يمكن التعبير عنه بواسطة اللغة المتداولة أو بلغة رمزية.

إن علم النفس بمعناه العلمي و علم الاجتماع و عِلْم الانثروبولوجيا و علم اللغة و علم الاقتصاد و علم السكان هي بلا شك أمثلة لعلوم تبحث عن (قوانين).

لذا - و كما أسلفنا - فإن الأنثروبولوجيا تدخل ضمن (العلوم النوميوتيقية)، و هي في محاولتها هذه تسعى لأن تحذو حذو العلوم المضبوطة يواجهها ما يواجه سائر العلوم النوميوتيقية من صعوبات في المنهج.

إن علم الاجتماع و الأنثروبولوجيا علمين متقاربين متشابهين ، بحيث لا يمكن للباحث الفصل أو التمييز بين هذين العلمين لدرجة تقاربهما ، و لمن

^١ : المعجم الموسوعي لمصطلحات الحداثة ونقدها ، مادة أنثروبولوجيا .

أراد التفريق بينهما مراجعة الكتب المختصة في ذلك^١.

بل إن علم الأنثروبولوجيا تندك فيه كل العلوم التي لها صلة بالإنسان ، فهو العلم الشامل لكل ما يختص بالإنسان. وهذه الشمولية تُستمد من خلال فروع الأنثروبولوجيا المختلفة ، و التي تشكل جسراً بين العلوم الاجتماعية ، و الإنسانية ، و الطبيعية ، و الطبية ، و غيرها من العلوم^٢.

إن مهمة الأنثروبولوجيا الأساسية هي تمكيننا من فهم أنفسنا عن طريق فهم ثقافتنا بالإضافة للثقافات الأخرى، و من خلالها سوف نستطيع ان نتطور معرفياً، و نعرف طرق التطور المعرفي، من خلال الاستفادة من التجارب السابقة للآخرين، و معرفة كيفية التعامل مع الحضارات، و الأديان، و الأشخاص، وصولاً إلى فهم كامل لأنفسنا و لكل من حولنا.

و الأنثروبولوجي لا يقصر نفسه على دراسة أي مجموعة معينة من الناس أو أي حقبة من الحقب التاريخية، بل هو يدرس كلاً من التطور البنائي للبشرية و نمو الحضارات، كذلك يوجه اهتماماً خاصاً إلى الدراسات المقارنة في سياق اهتمامه بالجماعات و الحضارات الإنسانية المعاصرة، ثم يعتمد كذلك إلى كشف و توصيف المعايير الفيزيكية التي تميّز الجنس البشري عن سائر الكائنات الحية الأخرى^٣.

^١: المعجم الموسوعي لمصطلحات الحداثة و نقدها ، مادة أنثروبولوجيا .

^٢: الثقافة ، و الصحة ، و المرض ، رؤية جديدة في الأنثروبولوجيا المعاصرة ، يعقوب يوسف الكندري ، ص ٢٦ .

^٣: الأنثروبولوجيا ، سلسلة علم الاجتماع المعاصر ، محمد الجوهري ، ص ١٧ .

الأنثروبولوجيا من حيث الظهور الإصطلاحي

لقد ظهر مصطلح (الأنثروبولوجيا) في بريطانيا عام (١٥٩٣ ميلادي)، و كان المقصود به دراسة الإنسان من جميع جوانبه الطبيعية و السيكولوجية و الاجتماعية ، و ظل يحمل معنى الدراسة المقارنة للجنس البشري ، و يحاول أصحاب هذا العلم دراسة الإنسان و كل اعماله ، أي كل منجزاته المادية و الفكرية.

أما كعلم إنسان مختص لم يعرف في الغرب إلا منذ قرنين من الزمان، و إن الأنثروبولوجيين الغربيين ، و لا سيما الأوربيون منهم ، يرون أن الأصول النظرية الأساسية لعلم الأنثروبولوجيا ظهرت إبان عصر (التنوير) في أوروبا ، حيث تمت كشوفات جغرافية ، و ثقافية ، و صناعية كثيرة داخل أوروبا و خارجها.

و بذلك نعلم أن علم الأنثروبولوجيا - بما يحمل المسمى من معنى - علم حديث العهد إذا ما قيس ببعض العلوم الأخرى كالفلسفة و الطب و الفلك و غيرها.

و عن كلمة (أنثروبولوجيا) يذكر الباحث الفرنسي (جان بواريه) :
(إنها ظهرت أولاً في كتابات علماء الطبيعة إبان القرن الثامن عشر لتُعنى بدراسة التاريخ الطبيعي للإنسان)^١.

أما فروع (الأنثروبولوجيا) المتعددة فلم يشهد هذا العلم قبل النصف الثاني من القرن العشرين تقسيمات ، و فروعاً متعددة ، إذ كانت قبل ذلك خاصة بالباحث ، و العالم المتخصص بهذا العلم ، و مع إنطلاقها في الستينات

^١ : قصة الأنثروبولوجيا ، حسين فهم ، ص ١٣ - ١٩ .

من القرن العشرين أخذت تتبلور حتى وصلت إلى أن تكون علماً مستقلاً له خصوصيته و معالمة و أهدافه. لقد شهد القرن العشرين مراحل تكوين الأنثروبولوجيا و تطويرها لتصبح كياناً أكاديمياً ، و مهنة عند الكثير من العلماء.

أما من حيث المحتوى ، ألا و هو دراسة و توصيف الإنسان و كل ما يتعلق به ، و دراسة المجتمع ، و البحث في الشؤون الإنسانية ، و المجتمعات البشرية فإن عِلْم الأنثروبولوجيا قديم قدم التاريخ الإنساني ، فهو قد بدأ منذ وعى الإنسان ذاته و بدأ يعرف ذاته و يسعى للتفاعل مع بيئته و مجتمعه.

علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الأخرى

إن لعلم الأنثروبولوجيا صلة كبيرة و وثيقة بكثير من العلوم الأخرى ذات العلاقة ، و بذلك تُشكل الأنثروبولوجيا مع تلك العلوم - وبالخصوص الإنسانية منها - منظومة من المعارف التي مدارها الإنسان ، و يأتي هذا الترابط و التشارك بمساعدة الأطر و المناهج المعرفية التي تنظم ذلك الترابط ما بين العلوم نفسها.

لا بد أن نعلم بأن أهتمام عالم الأنثروبولوجيا منصبّ بالدرجة الأولى على (الإنسان) الذين يعتبر المادة الخام التي يعمل عليها ، لذلك تتداخل معه علوم أخرى لها أوجه تشابه مع هذا العلم كـ(البيولوجيا ، و السسيولوجيا ، و السيكلولوجيا ، و قضايا الثقافة ، و الاقتصاد ، و السياسة ، و الجغرافيا البشرية ، و الفلسفة، و ما شاكلها).

من خلال العلاقة بين علم الإنسان ، و العلوم الأخرى ينشأ علم الإنسان الاجتماعي الشامل الذي يصطلح عليه بـ(الأنثروبولوجيا).

إن الأنثروبولوجيا تعتبر علماً اجتماعياً تربطه علاقات أولية مع العلوم الأخرى ذلك لأن العلوم الإنسانية تهتم بفهم الثقافات الإنسانية المختلفة. فالأنثروبولوجيا ترتبط ببعض العلوم من جانب أنها لم تكن لتصل إلى ما وصلت إليه من تطور إلا بعد أن حققت تلك العلوم درجة معينة من النضج و التقدم. مضافاً إلى جنبه الاختصاص الموجودة في تلك العلوم.

في موضوعنا هذا سوف نتطرق لعلاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الأخرى ، و بالشكل الذي يحقق الفائدة المرجوة، إذ أن علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الأخرى تتمحور في التقارب الحاصل فيما بينها، و هنا لا بد أن نذكر هذه العلوم، و علاقة الأنثروبولوجيا بها كآلاتي :

١- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الأحياء (البيولوجيا) (Biology):

يتناول علم الأحياء دراسة الكائنات الحية من وحيد الخلية الأبسط تركيباً ، حتى متعدد الخلايا و الأكثر تعقيداً. فهو يُعرف بأنه : العلم الذي يدرس الإنسان كفرد قائم بذاته ، من حيث بنية أعضائه و تطورها.

و الأنثروبولوجيا من الناحية النظرية شديدة القرب من البيولوجيا ، فكلاهما يدرس عملية إعادة إنتاج الحياة ، و كلاهما مبني على نموذج نظري للتنوع ، لكن كل واحدٍ ضمن تخصصه.

٢- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الاجتماع (Sociology):

يعد علم الاجتماع من أحدث العلوم الاساسية و أهم العلوم الإنسانية ، لذلك يعرف بأنه : العلم الذي يدرس الحياة الاجتماعية بجميع مظاهرها ، و يتحرى أسباب الحوادث الاجتماعية و قوانين تطورها^١.

و علم الاجتماع يدرس العلاقات بين الأفراد و عمليات التفاعل فيما بينهم ، و تصرفاتهم كأعضاء مكونين لهذه الجماعة ، فهو يركز على سلوك الأفراد ضمن هذا المجتمع أو ذاك ، و يدرس بالتالي تأثير البيئة الاجتماعية في تكوين الشخصية الإنسانية ، و تحديد العلاقات بين الأفراد.

فهناك صلة مهمة و وثيقة بين علم الاجتماع و الأنثروبولوجيا بالنظر إلى أن كلا منهما يدرس (الإنسان).

٣- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الفلسفة (Philosophy) :

^١ : أحاديث في التربية والأجتماع ، ساطع الحصري ، ص ٨.

على الرغم من المعنى الاشتقاقي للفلسفة ، إلا أنها قد اتخذت عند أرسطو معنى أكثر دقة و شمولاً في فهمها و تعريفها ، فقد عرّفها بأنها : (علم المعنى الأكثر شمولاً لكلمة علم)^١.

فهي : علم الوجود بما هو موجود ، أو الفكر في جوهر وجوده.
فإذا كانت الفلسفة و بحسب المدعى إنها (أم العلوم) و ذلك بالنظر لشموليتها في دراسة العلوم ، فإن صلة الأنثروبولوجيا بها وثيقة جداً ، و لاسيما فيما يتعلق بنظرة الإنسان إلى الكون و الحياة.

٤- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم النفس (Psychology) :

يعرف علم النفس بأنه : العلم الذي يهتم بدراسة العقل البشري ، و الطبيعة البشرية ، و السلوك الناتج عنها.
أي أنه : مجموعة الحقائق التي يتم الحصول عليها من وجهة النظر النفسية^٢.

أو أنه : العلم الذي يدرس سلوك الإنسان بهدف فهمه و تفسيره^٣.
إذن : فعلم النفس هو العلم الذي يدرس الإنسان من جوانب شخصيته المختلفة ، بغية الوصول إلى حقائق حولها ، قد تكون ذات صفة عامة و مطلقة يمكن تعميمها، و هو بذلك يتشارك مع علم الأنثروبولوجيا في أنه يجتمع في الأطر النفسية للذات البشرية، و مشكلات السلوك الإنساني.

٥- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الجيولوجيا (Geology) :

^١ : مدخل إلى علم الإنسان ، عيسى الشماس ، ص ٣٩ .

^٢ : علم النفس العام ، هنري فراير ... ، ص ٣٢ .

^٣ : علم النفس في المجال التربوي ، عبد الرحمن عيسوي ، ص ٧ .

تساعد الدراسات الجيولوجية التاريخية في تحديد الفترات الزمنية التي عاش فيها كل نموذج من نماذج (النوع الإنساني) نظراً لوجود البقايا العظمية (البشرية)، وذلك على شكل بقايا مستحاثات حفريّة بين ثنايا القشرة الأرضية بعضها فوق بعض ، وفق مبدأ التقادم ، حيث يكون الأقدم أسفل من سابقه.

و علم الجيولوجيا يُمكننا من معرفة الفترات الزمنية التي عاش فيها ذلك الإنسان ، إلى جانب معرفة العالم الحيواني الذي كان يحيط به ، من بقايا المستحاثات العظمية للأنواع الحيوانية التي كانت معاصرة لحياته، وبذلك يقدم (علم الجيولوجيا) خدمة كبرى لعلم الأنثروبولوجيا من خلال دراسة التاريخ الجيولوجي للوجود الإنساني على سطح الكرة الأرضية.

٦- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الجغرافيا (Geography):

تستفيد الأنثروبولوجيا من علم الجغرافيا في النواحي الطبيعية كالتضاريس ، و المياه ، إلى جانب الظروف المناخية التي تتفاوت من منطقة إلى أخرى ، و ذلك بحسب قربها أو بعدها من خط الاستواء ، أو من شواطئ البحار و المحيطات ، أو ارتفاعها و انخفاضها عن سطح البحر.

و لا بد أن نعلم بأن الأحوال المعيشية و البنى الاجتماعية في المجتمعات البشرية ليست متشابهة و ذلك بسبب تباين الظروف الجغرافية التي توجد فيها تلك المجتمعات ، فإن للعوامل الجغرافية الأثر الكبير في طبيعة المجتمعات من شكل ، و لون ، و نشاطات، و طبائع نفسية ، لا بد أن نعلم أن طبيعة (الأكل) و (المناخ) له الأثر الكبير في تكوين شكل الإنسان ، و لون بشرته ، و ذكائه ، و أحاسيسه ، و كل ما يتعلق بطبيعته البشرية.

يقول (س. دايرل فورد) : (إن الجغرافي الذي ليس على دراية وثيقة بثقافة شعب البلد الذي يدرسه، أو بالدروس المستمدة من الأثنولوجيا كعلم، سوف يجد نفسه بمجرد أن يبدأ بدراسة المحركات الرئيسية للنشاط البشري يتلمس طريقة على غير هدى بحثاً عن عوامل جغرافية لا يستطيع أن يزن أهميتها الوزن الصحيح : فالجغرافيا البشرية تتطلب دراية بالإنسان بنفس درجة الدراية بالجغرافيا)¹.

٧- علاقة الأثنوبولوجيا بعلم الآثار (Archeology) :

يدرس (علم الآثار) ماضي الإنسان، و يبحث في الحضارات القديمة و المراحل البعيدة للمدن الغابرة، و يرمي إلى تحديد التغير الحضاري و تتابعه على مر العصور، و يهدف كذلك إلى إعادة بناء الحياة الاجتماعية لمجتمعات ما قبل التاريخ.

تعنى الأركيولوجيا بجمع الآثار و المخلفات البشرية و تحليلها، بحيث يستدل منها على التسلسل التاريخي للأجناس البشرية، في تلك الفترة التي لم تكن فيها كتابة، و ليس ثمة وثائق مدونة عنها.

و يبحث هذا الفرع من علم الأثنوبولوجيا الثقافية، في الأصول الأولى للثقافات الإنسانية، و لاسيما الثقافات المنقرضة، و لعل علم الآثار القديمة أكثر شيوعاً بين فروع الأثنوبولوجيا، و ربما كانت مكتشفاته مألوفة لدى الشخص العادي أكثر من مكتشفات الفروع الأخرى. فالأثنوبولوجي و إن كان يستخدم الوثائق المكتوبة للحضارات الماضية، إلا أنه يعتمد بشكل رئيسي على بقايا الحضارات التي خلفها الإنسان، حيث ينصب اهتمامه حول

¹ : C.Daryll Ford , Habitat , Economy , and Society , 2nd Edition , New York , E.P.Dutton and Co.,Inc.,1950,p.465.

الآثار ليرسم صورة أشبه ما تكون إلى الأصل المنقرض و إن لم تطابقه، و ذلك باستخدام أساليب دقيقة في القياس ليصل إلى أكبر قدر ممكن من الدقة و التحديد في القياس الزمني. من هنا جاء اعتماد الأنثروبولوجي على علم الآثار لتفسير و تقويم الأعمال التاريخية للإنسان، بما يمكن من إعادة تشكيل التاريخ الاجتماعي و البيولوجي بأقرب الأشكال إلى الزمن الراهن، و عندما تعتمد الأنثروبولوجيا في بحوثها على معطيات علم الآثار، فإنها بما تتوصل إليه من نتائج تضيف بدورها إلى تلك المعطيات إبعاداً جديدة، ترتبط بنظريات الأصول الأولى للحياة.

إن عالم الآثار يعتمد في دراسته على البقايا التي خلفها الإنسان القديم ، و التي تمثل طبيعة ثقافته و عناصرها. و على دارس الأركيولوجيا أن يستخدم مناهج دراسة الطبقات الجيولوجية دراسة علمية، و هي عبارة عن (تحديد العمر النسبي لطبقات المواد المختلفة عن طريق ترتيبها في ترسبات معينة) و ذلك لكي يحدد العمر النسبي للثقافات المختلفة.



الفصل الثاني



اتجاهات دراسة الأنثروبولوجيا

إن الأنثروبولوجيا لم تعرف تقسيماتٍ وفروعاً قبل النصف الثاني من القرن العشرين، إلا أنه و منذ انطلاقتها في ستينيات و سبعينيات القرن العشرين أخذت تتبلور مبادئها و أهدافها.

بعد أن لاقت الكثير من النظريات التي تناولت الأنثروبولوجيا الكثير من الانتقادات من حيث المستوى النظري أو التطبيقي، و من ذلك ما لاقتَه (النظرية التطورية) من انتقادات واسعة باعتبارها استندت إلى الحدس و التخمين، و تعميم الأحكام المطلقة على الثقافات الإنسانية، من دون أن تثبت صحة ذلك بالبراهين أو القرائن (العملية - الواقعية). لذلك، بدأت تضمحل تدريجياً مع بداية القرن العشرين، لتحل محلها أفكار نظرية جديدة لدراسة الثقافات الإنسانية، من حيث نشوؤها و مكوناتها و تطورها. فكان أن ظهرت خلال الربع الثاني من القرن العشرين ثلاثة اتجاهات رئيسية متفاعلة فيما بينها، ركزت في دراستها على تناول العلوم الاجتماعية، بأسسها و منطلقاتها و أهدافها. و هذا ما أسهم بفاعلية في إرساء دعائم علم الأنثروبولوجيا المعاصر. و يمكن أن نذكر إجمالاً أهم اتجاهات دراسة الأنثروبولوجيا و التي هي :

١- الاتجاه التاريخي : و يقسم إلى قسمين هما :

أولاً : الاتجاه التاريخي - التجزيئي.

ثانياً : الاتجاه التاريخي - النفسي.

٢- الاتجاه البنائي - الوظيفي :

فروع الأنثروبولوجيا

شهد القرن العشرين مراحل تكوين الأنثروبولوجيا و تطويرها

لتصبح كياناً أكاديمياً ومهنة متخصصة عند كثير من العلماء والفلاسفة و الباحثين. فعلى الرغم من أن الفكر الأنثروبولوجي قد ظلّ خلال العقدين الأولين من القرن العشرين متأثراً إلى حدّ بعيد بالنظريات التي سادت و تبلورت في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، فإنه سرعان ما تغيّر و تحوّل إلى منطلقات جديدة، نتج عنها اتّجاهات متعدّدة إزاء دراسة الإنسان و حضارته.

و مع إنطلاقة الأنثروبولوجيا في النصف الثاني من القرن العشرين أخذت تتبلور مبادئها و أهدافها، و كانت ثمة محاولات جادة لتوصيفها كعلم خاص، و بالتالي وضع تقسيمات لها و فروع من أجل تحقيق المنهجية التطبيقية من جهة، و الشمولية البحثية التكاملية - بقدرٍ ما - من جهة أخرى. فظهرت نتيجة ذلك تصنيفات متعددة، استند بعضها إلى طبيعة الدراسة و منطلقاتها، بينما استند بعضها الآخر إلى أهدافها.

فقد قسّمها (رالف بندكتون) في كتابه (مقدمة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية) الصادر عام (١٩٦٠ ميلادي) إلى قسمين أساسيين : (الأنثروبولوجيا العضوية أو الطبيعية، و الأنثروبولوجيا الثقافية). أما (بارنو) فقد قسمها في كتابه (الأنثروبولوجيا الثقافية) الصادر عام (١٩٧٢ ميلادي) إلى ثلاثة أقسام هي : (الأنثروبولوجيا التطبيقية، الأنثروبولوجيا النفسية أو الثقافة و الشخصية، الأنثروبولوجيا الاجتماعية).

و نحن في هذا البحث سوف نحاول التعرض - و بشكل عام قدر المستطاع - لكل أقسام الأنثروبولوجيا، رغم تعدد الرؤى، و المدارس، و الاتجاهات، في محاولة لفهم هذا العلم من خلال أقسامه و فروعته الرئيسية،

التي تتداخل تارة، و تتباين تارة أخرى فيما بينها، إلا أن الملتقى و الجامع المشترك هو كونها تدرس (الإنسان).

أولاً : الأنثروبولوجيا العضوية (الطبيعية)

الأنثروبولوجيا العضوية : هي العلم الذي يبحث في شكل الإنسان من حيث سماته العضوية ، و التغيرات التي تطرأ عليها بفعل المورثات ، كما يبحث في السلالات الإنسانية من حيث الأنواع البشرية و خصائصها بمعزل عن ثقافة كل منها ، فهي تدرس الفرد بوصفه نتاجاً لعملية عضوية ، و من ثم دراسة التجمعات البشرية و تحليل خصائصها.

فروع الأنثروبولوجيا العضوية :

إن للأنثروبولوجيا العضوية عدة فروع نذكر منها - على سبيل المثال - من أجل تحقيق الفهم الحقيقي لهذا الفرع من فروع علم الإنسان ما يأتي :

١- الحفريات البشرية (Paleontology) : —

و هو العلم الذي يدرس الجنس البشري منذ نشأته ، و من ثم مراحلها الأولية و تطوره ، من خلال ما تدل عليه الحفريات و الآثار المكتشفة ، أي أنه يتناول بالبحث (النوع البشري) و (اتجاهات تطوره) لاسيما ما كان منها متصلاً بالنواحي التي تكشفها الأحافير^١.

فهذا الفرع يحاول أن يدرس كيفية ظهور الإنسان على الأرض ، و كيف اختلفت الأجناس البشرية ، و كيف تطورت الحياة على وجه الأرض.

٢- الأجناس البشرية أو الأجسام البشرية (Somatology):

و هو العلم الذي يدرس الصفات العضوية للإنسان البدائي^٢ و الإنسان

^١ : الأنثروبولوجيا و أزمة العالم الحديث ، رالف لينتون ، ص ١٧ بتصرف .

^٢ : كما يسميه جملة من علماء الانثروبولوجيا ، في الحقيقة ليس هناك (إنسان بدائي) أو (فترة بدائية) إنما هناك تخلف تاريخي عند بعض الشعوب ، و إنطواء ، أو إنعزال . وما البدائية إلا

الحالي ، من حيث الملامح الأساسية و السمات العضوية العامة ، فانصبَّ اهتمام العلماء على تصنيف الأجناس البشرية المختلفة على أساس العرق^١ ، و إيجاد العلاقات المحتملة بين هذه الأجناس.

و تعد دراسة الأجناس (Races) في ضوء التطور العلمي نظرياً و منهجياً فرعاً قائماً بذاته من فروع الأنثروبولوجيا، و هي الدراسة التي تستهدف تفهّم الأجناس البشرية من حيث نشأتها و خصائصها و صفاتها^٢ و تصنيفها، مع التركيز على دراسة العوامل البيولوجية و الاجتماعية و الاقتصادية المؤثرة في تلك الأجناس.

و تُشكل المجموعات الإقليمية للأنماط البشرية وفقاً لتصنيف^٣ (كليمك) و هو من أعلام المدرسة الهولندية في الانثروبولوجيا إسهاماً واضحاً لتوزيع السلالات في العالم القديم قبل حركة الكشوفات الجغرافية، حيث قسم السلالات إلى ثلاث مجموعات كبيرة هي :

أولاً : المجموعة الزنجية (**Negroid**) : و تشكل هذه المجموعة ما يقرب من (١٠ ٪) من مجموع أبناء الجنس البشري، و توجد و تتوزع جغرافياً في المنطقة الأفروآسيوية الإستوائية.

ثانياً : المجموعة القوقازية (**Caucasoid**) : و يشكل مجموعها

مصطلح وضعه من يدعون معرفة حقيقة الانثروبولوجيا و من كتبوا عنها و هم يجلسون على كراسيهم في بلدانهم لم يغادروها ابداً . و ما نعت بعض الشعوب بالبداية إلا طبقية مقيبة .

^١ : كذلك فإن التركيز على كون العرق شيء أساس ما هو إلا من المبتدعات .

^٢ : فمن الصفات السلالية للأجناس : (اللون ، وطول الجسم ، ولامح الوجه ، والشعر أشكاله و لونه ، والأنف ، و شكل العينين ، والشفتان و شكلها) .

^٣ : وهو تصنيف وضعي .

ما يقرب من (٤٠٪) من مجموع أبناء الجنس البشري، و على الرغم من أن هذه المجموعة سكنت حوض البحر الأبيض المتوسط شمالاً و جنوباً و شرقاً، إلا أنها تعرف في كثير من الكتابات بالجنس الأوربي الكبير.

ثالثاً : المجموعة المغولية (**Mongoloid**) : و يشكل مجموعها

ما يقرب من (٥٠٪) من مجموع أبناء الجنس البشري و تسمى أحياناً بالجنس المغولي أو الآسيوي الأمريكي.

يقول الكاتب و الانثروبولوجي الأمريكي (كارلتون كون) : (إن علم الأجناس البشرية لن يكون بدءاً بالنسبة للعرب الذين درسوا التراث الأدبي لأمتهم. فقد وصف رحالة عربي هو " ابن فضلان " الأسلاف الوثنيين لسكان شمال غرب أوروبا الحاليين. كما أورد رحالة آخر هو " ابن بطوطة " روايات مفصلة عن الأخلاق و العادات للشعوب التي كانت تعيش من مراکش إلى الصين. و لا شك أن في التراث العربي عشرات من الكتب الأخرى في الوصف الحضاري غير معروفة لدى الغربيين من علماء الأجناس البشرية. و يجب أن يشغل علماء الأجناس من العرب بالبحث عن هذه المخطوطات و نشرها، لا باللغة العربية فحسب، و لكن بلغة أوربية كذلك. فهذه الأخبار ستكون بالغة القيمة، اذ تمكنا من أن نعرف التغيرات التي حدثت منذ كتابتها، و تهدينا إلى الاتجاهات التي علينا أن ننظر إليها لمعرفة التغير المقبل، شأن الملاح الذي يرسم اتجاه سفينته بأن يربط ما بين المركز الذي تكون فيه و أي

علامة مرت بها... و قد كان العرب هم الذين ابتكروا تقسيم العمل بين أنواع الدراسات، مما جعل الجامعات و علم الأجناس البشرية أموراً ممكنة...^١.

٣- الايكولوجيا البشرية (Human Ecology) :

و المراد بالأيكولوجيا هو : دراسة العلاقات المتبادلة بين الكائنات الحية و بيئتها.

و يمكن تحت هذا العنوان أن ندرس علاقة الإنسان ببيئته، ففي أي بيئة معينة تتشكل العلاقات المتبادلة بين الكائنات الحية ببعضها و بين هذه الكائنات و العناصر غير الحية أي ما يسمى بـ(النسق الأيكولوجي).

يشكل الإنسان جزءاً هاماً من العديد من الأنساق الأيكولوجية التي كثيراً ما يقوم بتغييرها و التعديل منها لخدمة حاجاته الخاصة.

و تحدد الايكولوجيا البشرية وسائل تكيف الانسان لظروف الحياة التي تختلف طبقاً للسن، و النوع، و الأصول العرقية، و هذا يعني توضيح كيفية التعامل بين الإنسان و البيئة في ضوء العوامل الكثيرة مثل العوامل البيولوجية، و التشريحية، و الفسيولوجية، و الباثولوجية.. الخ.

^١: بحث (انثروبولوجيا للعرب) ، كارلتون كون ، ضمن كتاب (الثقافة الإسلامية و الحياة المعاصرة) مجموعة البحوث التي قدمت لمؤتمر برنستون للثقافة الإسلامية ، جمع و مراجعة وتقديم : محمد خلف الله ، ص ٢٩٢- ٢٩٣ .

ثانيا : الأنثروبولوجيا النفسية

إن موضوع الأنثروبولوجيا النفسية هو العلاقة بين الثقافة و الشخصية ، هذه العلاقة التي تسير في اتجاهين متكاملين : إتجاه يأخذ أثر الثقافة في الشخصية ، وإتجاه يأخذ أثر الشخصية في الثقافة.

لقد ساعد ظهور الانثروبولوجيا النفسية علماء النفس في الوصول إلى فهم أفضل للمبادئ التي تحكم تشكيل الشخصية، و أثار في الوقت ذاته اهتمام علماء الانثروبولوجيا لدراسة الأنماط الأساسية للشخصية في المجتمعات المختلفة قديمها و حديثها.

يُعبّر مفهوم الشخصية عن الوصف الاجتماعي للإنسان ، والذي يشمل الصفات التي تتكون عند الكائن البشري من خلال التفاعل مع المؤثرات البيئية ، و التعامل مع أفراد المجتمع بصورة عامة. و هي تدرس الشخصية الإنسانية من عدة جوانب :-

١- من جانب مفهوم الشخصية و طبيعتها :

فقد احتلت الشخصية الإنسانية و العوامل المؤثرة في تكوينها مكانة هامة في الدراسات النفسية و الاجتماعية، و ذلك بقصد التعرف إلى مكونات هذه الشخصية و كيفية تكيفها و تفاعلها مع البيئة المحيطة، بما يتيح نمو الشخصية و تطورها.

و هنا لابد أن نقف عند موضوع سمات الشخصية الإنسانية، فالشخصية الإنسانية تتسم بالسمات التالية :

أ - النمو و التكامل : فالشخصية تنمو و تتطور في وحدة متكاملة، من خلال تآزر سمات هذه الشخصية و قدراتها، و عملها بصورة مستمرة و

متفاعلة مع مواقف الحياة المختلفة، و لا سيما تفاعل الإنسان مع بيئته و أنماط التنشئة الاجتماعية المتعددة التي يتعرض لها، و بالتالي استجابة هذه الشخصية بعناصرها الكاملة في أثناء التعامل مع هذه المواقف المتنوعة.

ب - الهوية الشخصية الذاتية : و تعني شعور الفرد بأنه هو ذاته، و إن حدث له تغيرات جسدية و نفسية عبر مراحل نموه. فمن طبيعة الإنسان أن يتغير و يتبدل من يوم إلى آخر، بحكم قانون التطور، و الذي يشمل جوانب الشخصية كافة من بداية الحياة و حتى نهايتها. غير أن هويته الأساسية تبقى هي ذاتها، على الرغم من التغيرات الجسدية أو الوجدانية التي تحدث بفعل عاملي : (العمر) و (الثقافة).

ج - الثبات و التغير : أي أن خاصية الثبات في الشخصية الإنسانية مستمرة ما دام الشخص على قيد الحياة، و في المقابل فهذه الشخصية تابعة لخاصية التغير و التطور التي تحدث بفعل المؤثرات المحيطة بالشخص، و التي تتفاوت في شدة فاعليتها لإحداث التغيرات التطورية.

٢- من جانب الثقافة النفسية :

أي دراسة الشخصية الإنسانية من خلال كون الثقافة عامل مهم في تصنيف المجتمعات و الأمم، و تمييز بعضها عن بعض، و ذلك بالنظر لما تحمله مضمونات الثقافة من خصائص و دلالات ذات أبعاد فردية و اجتماعية و انسانية ايضاً.

و لذلك تعددت تعريفات الثقافة و مفهوماتها و ظهرت عشرات التعريفات ما بين (١٨٧١ - ١٩٦٣ ميلادي) منها ما أخذ بالجوانب (المعنوية - الفكرية)، أو بالجوانب (الموضوعية - المادية)، أو بكليهما معاً، باعتبار الثقافة -

في إطارها العام - تمثل سيرورة المجتمع الإنساني و إبداعاته الفكرية و العلمية.

نحو فهم أنثروبولوجي حقيقي للنفس: وقفة مع النفس الإنسانية

لقد عُرِفَت النفس بعدة تعريفات و قد اختلفَ فيها و في ماهيتها و حقيقتها، فمنهم من أراد منها الجسد، و منهم من أراد منها الروح، و منهم من أراد منها الحياة، و غير ذلك من الأقوال التي تعددت حتى صلت إلى العشرات.

و قيل بأنها : لفظ يطلق فيراد به الإنسان أحيانا بكل سلوكه، ومشاعره، وجسده، ويطلق أحيانا أخرى على الجانب الداخلي له، ويشمل شبكة العواطف والانفعالات العقلية والمشاعر.

و قد عَرَّفَهَا (ابن سينا)^١ بأنها : جوهر قائم بذاته لا عرض من أعراض الجسم^٢.

و السلوك المراد دراسته في علم النفس هو عبارة عن النشاط الكلي المتضمن لـ: العقل، و الحركة، و الأنفعال.

و من المعلوم أن للنفس قوى ثلاث هي :

١- القوة العقلية : و هي مبدأ التمييز و التفكير و الشوق إلى إدراك

^١: ابن سينا : (٣٧٠ - ٤٢٧ هـ) ابو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا ، عالم و طبيب و فيلسوف ، ولد في قرية أفشنة بالقرب من بخارى في أوزبكستان حالياً ، وتوفي في مدينة همدان في إيران .

^٢: الشفاء ، ابن سينا ، ج ١ ، ص ٢٨٥ .

الحقائق، و يسمى تهذيبها (حكمة نظرية).

٢- القوة الشهوانية : وهي مبدأ الشهوة و طلب الغذاء كالإلتذاذ

بالمآكل و المشرب، و النكاح، و الملبس، و تهذيبها يسمى (عفة).

٣- القوة الغضبية : وهي مبدأ الغضب و الإقدام على الأهوال و

التسلط و الترفع، و الجاه، و العزة، و تهذيبها يسمى (شجاعة)

إن (الإفراط في القوة العقلية يُسمى سفهاً و جرأة، و التفريط يُسمى

بلهاً، و الإفراط في الشهوة يُسمى شرهاً و التفريط يُسمى جموداً، و الإفراط في

الغضب يُسمى تهوراً و التفريط يُسمى جنباً)^١.

^١: العاملي، آداب النفس، ج ١، ص ٧٠ بتصرف.

الدوافع السلوكية النفسية

دوافع السلوك هي القوى المحركة لنشاط الكائن الحي، ذلك النشاط الذي يحفز السلوك و يوجهه نحو تحقيق هدف أو أهداف معينة. والدوافع (Motives) هي الاسم المقابل للحاجات، فالإنسان و الحيوان على حد سواء يحاول إشباع تلك الحاجات لديه متى ما شعر بذلك، فهي بمثابة المنبه الذي يُخبر تلك المخلوقات إلى أن هناك نقصاً، أو خللاً ما في جسمه يجب تداركه، و من ثم إشباعه، و هي أيضاً المثيرة لل رغبات عند تلك المخلوقات، و التي يجب إشباعها للتخلص من الضغوط التي تسببها. و تنقسم تلك الدوافع إلى قسمين رئيسيين تبعاً للحاجات المتعلقة بها و هي :

أولاً : الدوافع الفسيولوجية : و هي الدوافع الأساسية التي تولدها الاحتياجات الملحة و التي لا يمكن لأي مخلوق إهمالها او التغاضي عنها، فهي احتياجات مباشرة للجسم، و تكون في معظمها دوافع فطرية، تنشأ مع الإنسان عند خلقه، و التي بغيرها لا يتمكن هذا الكائن من البقاء، و قد جعلها المولى القدير عز و جل دوافع فطرية في هذا الكائن، فالجنين عند ولادته لا يحتاج لمن يعلمه الرضاعة، و لا يحتاج لمن يعلمه البكاء عند شعوره بالجوع أو العطش.

قال تعالى : ((وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا *)) سورة الشمس، الآيات (٧ - ١٠).

ثانياً : الدوافع النفسية : وهي دوافع مكتسبة من الدوافع
الفسولوجية الفطرية أو أنها مكتسبة نتيجة تفاعل خبرات الإنسان مع عوامل
التنشئة الاجتماعية.

وهي في معظمها إن لم تكن جميعها رغبات وليس احتياجات
أساسية لهذا الإنسان، كونها مكتسبة وليست فطرية، وتنشأ الحاجة لها عند
الإنسان مع تطوره في النمو لا عند خلقه، وهذه الدوافع لا يتشارك بها الإنسان
مع الحيوان، فهي دوافع خاصة بالإنسان نتيجة تعايشه في مجتمعات تكافلية،
فهو كائن اجتماعي لا يستطيع العيش منفرداً، كما أن هذه الدوافع تولدت
نتيجة للعقل (التراكمي) عند الإنسان.

قال تعالى : ((زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ
الْمُفَنَّنَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)) سورة آل عمران، الآية (١٤).

القرآن الكريم والقضايا النفسية

للقرآن الكريم حصة كبيرة في ذكره للنفس الإنسانية و كل ما يتعلق بها فيزيقيا و ميتافيزيقيا، في عالم الجسد أو في عالم الروح، فقد ذكر و أكد على أهمية تربية النفس من حيث كونها (جسد) إنساني و ذلك من خلال تربية (الروح) كونها المحرك الأساس و الرئيس لذلك الجسد.

و قد أورد القرآن الكريم في العديد من الآيات النفس، فقد ورد لفظ (النفس) في القرآن الكريم (٢٩٦) مرة، إذ ورد بصورة المفرد (١٤٠) مرة، و في صورة الجمع ورد (١٥٥) مرة^١.

و نذكر من جملة هذه الآيات و على سبيل المثال :

قال تعالى : ((وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا *)) سورة الشمس، الآيات (٧ - ١٠).

الأمراض النفسية :

أما لو تطرقنا لذكر أسباب الأمراض النفسية و الاختناقات الروحية فقد أورد القرآن الكريم جملة من الأسباب منها :

١- الإعراض عن الله تعالى، و عن ذكره سبحانه :

قال تعالى : ((وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)) سورة طه، الآية (١٢٤).

و قال تعالى : ((إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً *)) سورة المعارج، الآيات (١٩ - ٢١).

٢- الضلال و العناد :

^١ : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقي ، ص ٧١٠ - ٧١٤.

و قال تعالى : ((وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)) سورة الأنعام، الآية (١٢٥).

٣- قسوة القلب، و الظلم :

و قال تعالى : ((لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)) سورة الحج، الآية (٥٣).

علاج الأمراض النفسية :

أما العلاج الحقيقي للأمراض النفسية فهو يكون بفعل الأمور الآتية و على سبيل المثال و الأجمال :

١- إتباع الدين الحقيقي، دين الله تعالى، ألا و هو : (الإسلام) الحقيقي

:

قال تعالى : ((فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ)) سورة الأنعام، الآية (١٢٥).

٢- أخذ العبرة و الاستفادة من الموعظة :

قال تعالى : ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)) سورة يونس، الآية (٥٧).

٣- شكر الله سبحانه و تعالى، و المداومة على ذكره :

قال تعالى : ((فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ)) سورة البقرة، الآية (١٥٢).

٤- الإستعانة بالصبر، و التضرع لله تعالى :

قال تعالى : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)) سورة البقرة، الآية (١٥٣).

الصبر هو : احتمال المكاره من غير جزع.

قال الامام الصادق (عليه السلام) : ((من ابتلي من المؤمنين ببلاء فصبر عليه كان له أجر ألف شهيد))^١.

٥- التقوى :

قال تعالى : ((وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)) سورة البقرة، الآية (١٩٤).

قال تعالى : ((وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)) سورة الطلاق، الآية (٢).

٦- التوكل على الله تعالى :

قال تعالى : ((وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا)) سورة الطلاق، الآية (٣).

التوكل هو : الاعتماد على الله تعالى في جميع الأمور، و تفويضها إليه، و الأعراض عما سواه.

قال الامام الصادق (عليه السلام) : ((إن الغنى و العز يجولان، فإذا ظفرا بموضع التوكل أوطنا))^٢.

^١ : الوافي ، ج ٣ ، ص ٦٦ .

^٢ : الوافي ، ج ٣ ، ص ٥٦ .

ثالثا : الأنثروبولوجيا الثقافية

تدرس الأنثروبولوجيا الثقافية (Culture Anthropology)

أصول المجتمعات و الثقافات الإنسانية و تاريخها، و تتبع نموها و تطورها، و تدرس بناء الثقافات البشرية و آداءها لوظائفها في كل مكان و زمان. فالأنثروبولوجيا الثقافية تهتم بالثقافة في ذاتها، سواء كانت ثقافة العصور القديمة ، أو ثقافة أبناء المجتمعات الحضرية المعاصرة، و في كل زمان و مكان. فجميع الثقافات تستأثر باهتمام دارس الأنثروبولوجيا. فهي تدرس الإنسان باعتباره كائن ثقافي حامل للثقافة و يعيش في كنفها و تحافظ عليه و يحافظ عليها كما أنه ناقل لها عبر الأجيال المختلفة.

إن من أهم التعاريف الخاصة بالثقافة ، و أبرزها ، هو تعريف (إدوارد تايلور)^١ و الذي عرفها بأنها : ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة ، و المعتقدات ، و الفن ، و الأخلاق ، و القانون ، و القدرات ، و العادات التي يكتسبها الفرد ، كونه عضواً في مجتمع^٢.

أما الأنثروبولوجيا الثقافية : فهي العلم الذي يدرس الإنسان من حيث كونه عضو في مجتمع له ثقافة معينة ، و ما يمارسه من سلوك ، و مدى توافقه مع سلوك الأفراد (المجتمع) المحيط به ، و الذي يحمل عاداته و قيمه ، و يدين بنظامه ، و يتحدث لغته.

فهي إذن : ذلك العلم الذي يهتم بدراسة الثقافة الإنسانية ، و يعنى

^١ : إدوارد تايلور : ادورد بيرنت تايلور (١٨٣٢ - ١٩١٧ م) عالم انثروبولوجي انكليزي ، ساعدت دراساته على تحديد مجال الانثروبولوجيا والاهتمام بها ، استاذ الانثروبولوجيا في جامعة اكسفورد (١٨٩٦ - ١٩٠٩ م) .

^٢ : الثقافة ، الصحة ، المرض ، رؤية جديدة في الأنثروبولوجيا المعاصرة ، الكندري ، ص ٢٩ .

بدراسة أساليب حياة الإنسان و سلوكاته النابعة من ثقافته ، و هي تدرس الشعوب القديمة ، كما تدرس الشعوب المعاصرة^١.

لقد نشأ مصطلح الثقافة من الحاجة إلى وجود مصطلح ملائم لوصف الجوانب المشتركة لبعض أنواع السلوك التي بلغت مبلغاً عالياً من التطور عند الإنسان.

أن الذي يدفع العقل البشري إلى البحث في سلوك الإنسان مصلحاً كان أم مفسداً ؛ هو النظر إلى ثقافته ، و نشأته الاجتماعية ، و دراسة هذه الثقافة و أنماطها ، و مفاهيمها ، و منشئها ، و آثارها ، و إمكانية نقلها إلى المجتمعات الأخرى ، فالإنسان محكوم بما يُنقل إليه من أفكار ، و مفاهيم ، و سلوك ، و هو ابن الثقافة التي ينتحلها ، و التي تعطيه خصائص يتميز بها عن غيره.

و إن من أسباب اهتمام علماء الأنثروبولوجيا بالثقافة ، ذلك لكونها أحد الطرق التي ترشدنا إلى معرفة الإنسان في هذا المجتمع ، أو ذاك ، و إلى معرفة الروابط المشتركة بين هذه المجتمعات ؛ لأن الغرض هو معرفة الإنسان. و لابد أن نعلم بأن التربية هي الوسيلة التي يتم بها فرض الثقافة ، و ما تنقله التربية للصغار لا يمكن إلا أن يكون من نواة الثقافة.

و إن في كل عملية تربية ثمة جيل من البالغين ، و جيل من الناشئة ، و ثمة فعل يمارسه الجيل الأول على الثاني ، و بناءً على ذلك يعرف (دوركهيم)^١ التربية على أنها : الفعل الذي تمارسه الأجيال البالغة على

^١ : مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة ، رالف . ل . هويجر بيلز ، ص ٢١ .

الأجيال التي لم تنضج بعد للحياة الاجتماعية، و هي تقوم بإثارة مجموعة من الحالات الجسدية ، و الذهنية ، و الأخلاقية ، و تنميتها لدى الطفل ، حسبما يطلبها منه المجتمع السياسي برمته ، و الوسط الخاص الذي ينتمي إليه.

نشأة الأنثروبولوجيا الثقافية ومراحل تطورها

إن الأنثروبولوجيا الثقافية لم تظهر كفرع مستقل عن الأنثروبولوجيا العامة، إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. و ربّما يعود الفضل في ذلك إلى العالم الإنكليزي (إدوارد تايلور) الذي يعدّ من رواد الأنثروبولوجيا، و الذي قدّم أول تعريف شامل للثقافة و ذلك عام (١٨٧١ ميلادي) في كتابه (الثقافة البدائية).

لقد مرّت الأنثروبولوجيا الثقافية بمراحل متعدّدة، منذ ذلك الحين حتى وصلت إلى ما هي عليه في العصر الحاضر.

١- المرحلة الأولى (مرحلة البداية) : و تمتدّ من ظهور هذه الأنثروبولوجيا و حتى نهاية القرن التاسع عشر. و كانت عبارة عن محاولات لرسم صورة عامة لتطوّر الثقافة منذ القدم، والبحث أيضاً عن نشأة المجتمع الإنساني. و ظهر في هذه الفترة إلى جانب العالم الإنكليزي (تايلور)، العالم الأمريكي (بواز) الذي أخذ بالاتجاه التاريخي في دراسة الثقافات الإنسانية، و ذلك من جانبيين :

^١: دور كايم : أو دور كهيم ، أميل (١٨٥٨ - ١٩١٧ م) فيلسوف و عالم اجتماع فرنسي ، يعتبر من مؤسسي علم الاجتماع الحديث ، وضع لهذا العلم منهجية مستقلة تقوم على النظرية و التجريب في آن معاً .

أولهما : إجراء دراسات تفصيلية لثقافات مجموعات صغيرة، كالقبائل والعشائر، و مراحل تطورها.

و ثانيهما : إجراء مقارنة بين تاريخ التطور الثقافي، عند مجموعة من القبائل، بغية الوصول إلى قوانين عامة أو مبادئ، تحكم نمو الثقافات الإنسانية و تطورها. وهذا ما يعطي أهمية للأنثروبولوجيا باعتبارها علماً له منهجيته الخاصة.

٢- المرحلة الثانية : و تقع ما بين (١٩٠٠-١٩١٥ ميلادي)، و تعدّ

المرحلة التكوينية، حيث تركّزت الجهود في الأبحاث و الدراسات، على مجتمعات صغيرة محدّدة لمعرفة تاريخ ثقافتها و مراحل تطورها، و بالتالي تحديد عناصر هذه الثقافة قبل أن تنقرض.

و استناداً إلى ذلك، جرت دراسات عديدة على ثقافة الهنود الحمر في أمريكا، و توصّل الباحث الأمريكي (وسلر) إلى أسلوب يمكن بواسطته من دراسة أي إقليم أو منطقة في العالم تعيش فيها مجتمعات ذات ثقافات متشابهة، أو ما أستخدم على تسميته بـ(المنطقة الثقافية).

لقد شبّه (وسلر) المنطقة الثقافية بدائرة، تتركّز معظم العناصر الثقافية في مركزها، و تقلّ هذه العناصر كلّما ابتعدت عن المركز.

المرحلة الثالثة : و تقع ما بين (١٩١٥-١٩٣٠ ميلادي) و تعدّ فترة

الازدهار، حيث تميّزت بكثرة البحوث و المناقشات في القضايا التي تدخل في صلب علم الأنثروبولوجيا الثقافية، و لاسيّما تلك الدراسات التي تركّزت في أمريكا. و يرجع ازدهار الأنثروبولوجيا في تلك الفترة، إلى نضج هذا العلم و وضوح مفاهيمه و مناهجه. و ترافق ذلك بازدهار المدرسة التاريخية في

أمريكا، و ظهور (المدرسة الانتشارية) في إنكلترا، و لاسيما بعد الأخذ بمفهوم (المنطقة الثقافية) الذي طرحه (وسلر) كإطار لتحليل المعطيات الثقافية و تفسيرها، و التوصل إلى العناصر المشتركة بين الثقافات المتشابهة.

٤- المرحلة الرابعة : و مدتها عشر سنوات فقط، و تقع ما بين (١٩٣٠ - ١٩٤٠ ميلادي). فعلى الرغم من قصر المدة، إلا أنها قد عرفت بـ(الفترة التوسعية)، حيث تميّزت باعتراف الجامعات الأمريكية و الأوروبية بالأنثروبولوجيا الثقافية كعلم خاص في إطار الأنثروبولوجية العامة، و خصّصت لها فروع و مقرّرات دراسية في أقسام علم الاجتماع في الجامعات. و ظهرت في هذه الفترة النظرية (التكاملية) التي تبنّاها (سابير) عالم الاجتماع الأمريكي، و استطاع من خلالها تحديد مجموعة متناسقة من أنماط السلوك الإنساني، و التي يمكن اعتمادها في دراسة السلوك الفردي، لدى أفراد مجتمع معيّن، حيث أنّ جوهر الثقافة هو في حقيقة الأمر، ليس إلاّ تفاعل الأفراد في المجتمع بعضهم مع بعض، و ما ينجم عن هذا التفاعل من علاقات و مشاعر و طرائق حياتية مشتركة.

وقد تأثرت الأنثروبولوجيا في هذه الفترة - إلى حدٍ بعيد - بعلم الاجتماع و بالأنثروبولوجيا الاجتماعية، و لاسيما في مفاهيمها و مناهجها، و ذلك بفضل الأبحاث التي قام بها كلٌّ من (مالينوفسكي) و (براون) في مجالات الأنثروبولوجيا الاجتماعية.

٥- المرحلة الخامسة : و هي الفترة المعاصرة التي بدأت منذ عام (١٩٤٠ ميلادي) و ما زالت حتى الوقت الحاضر. و تمتاز هذه المرحلة بتوسّع نطاق الدراسات الأنثروبولوجية، خارج أوروبا و أمريكا، و انتشار

الأنثروبولوجيا الثقافية في العديد من جامعات الدول النامية، في أفريقيا و آسيا و أمريكا اللاتينية. و ترافق ذلك مع ظهور اتّجاهات جديدة في الدراسات الأنثروبولوجية.

كان الاتّجاه القومي في مقدّمة هذه الاتّجاهات الحديثة في الأنثروبولوجيا الثقافية، والذي يهدف إلى تحديد الخصائص الرئيسة للثقافة القوميّة. و قد أخذت بهذا الاتّجاه الباحثة الأمريكية (روث بندكيت) التي قامت بدراسة الثقافة اليابانية خلال الحرب العالمية الثانية.

الاتصال الثقافي: (التشاقف) و (المثاقفة)

إن معنى (التشاقف) (المثاقفة) هو تأثير الثقافات بعضها ببعض ، نتيجة الاتصال بين الشعوب و المجتمعات ، مهما كانت طبيعة هذا الاتصال و أهدافه ، و ثمة مفهوم آخر مرادف لكلمة (المثاقفة) هو (المناقلة الثقافية) (Transculturation).

إن ما يحدث في عملية التشاقف بين شعبين هو تأثير الشعب الأقل تطوراً بثقافة الشعب الأكثر تطوراً^١.

ف(التشاقف يشمل الظواهر التي تنجم عن الاحتكاك المباشر و المستمر بين جماعتين من الأفراد مختلفتين في الثقافة، مع ما تجره هذه الظواهر من تغيرات في نماذج الثقافة الأصلية، لدى إحدى المجموعتين أو كليهما)^٢. و مما تقدم تظهر مصطلحات مهمة هي : التقليد، التبعية، الإنبهار، الغزو الفكري، السيطرة و الهيمنة، و ما شاكلها من مفردات مقارنة.

ف(التشاقف) و (المثاقفة) هو : تأثير الثقافات بعضها ببعض نتيجة الاتصال بين الشعوب و المجتمعات، مهما كانت طبيعة هذا الاتصال و أهدافه. المثاقفة أو التشاقف اصطلاح برز في حقل الأنثروبولوجيا في أربعينيات القرن العشرين خاصة مع (هرسكوفيتز) داخل المدرسة المسمّاة (ثقافية)، و إن كان الفضل في استخدامه أوّل مرّة يعزى إلى (باول) و ذلك سنة (١٨٨٠ ميلادي). و يقصد به تبادل (تأثير الثقافة) أو (الفعل الثقافي) بين طرفين على الأقل ؛ ف(المثاقفة) تقوم على فعل احتكاك مجتمع أو مجموعات

^١ : علم خصائص الشعوب ، علي عبد الله الجباوي ، ص ٣٩٣.

^٢ : أسس الأنثروبولوجيا الثقافية ، هرسكوفيتز ، ص ٢٢١.

اجتماعية ما بملامح أو سمات ثقافية وافدة من مجتمعات أخرى تفرض عليها أو تقوم بتمثلها والتفاعل معها واستيعابها وتقبلها. وبمثل هذا الفعل تنمو المعارف والخبرات وتتطور العلوم والفنون والمهارات. فالمثاقفة تتيح للفرد و الجماعات فرصة اكتساب قيم وعادات وتقاليد جديدة وفق درجة الانفتاح على الآخر والاستعداد للتفاعل معه. (و لا يدلّ الثاقف على ظاهرة محدّدة، بل يدلّ في استخدامه العام على اتجاه عادي تقوم عليه كلّ المجتمعات : التغيّر الاجتماعي).^١

في الحقيقة ما من مجموعة بإمكانها العيش بمعزل عن المؤثرات الخارجية أبداً مهما كانت درجة انعزالها.

إن من سمات الثقافة (الاستمرار) و (التراكم) و (التغير)، فإن ثقافة كل شعب تتعرض إلى الحذف والإضافة والتجديد وفقاً للمراحل الزمنية. و التغير - الحاصل - يكون بفعل عوامل داخلية تخص المجتمع ذاته، و خارجية قادمة منتشرة عن طريق عوامل الانتشار الثقافي و منها (التجارة) و (الهجرة) و (الاستعمار) بكل أشكاله، فضلاً عن (وسائل الاتصال).

إن هذا يجعل ثقافة الشعوب تحتك وتتفاعل مع الثقافات الإنسانية الأخرى لتكتسب سمات جديدة وتفقد أخرى بفعل هذا التلاقح الثقافي (الثاقف أو المثاقفة)، ومن ثم (الاستعارة) و (الاقتباس الثقافي).

^١ : معجم الأنثولوجيا والأنثروبولوجيا ، ج . ف . باري ، ترجمة : مصباح الصمد ، ط ١ ، ٢٠٠٦ ، بيروت - لبنان ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع " مجد " ، مادة (ثقاف) . ومعجم العلوم الإنسانية ، ج . ف . دورتيه ، ترجمة : جورج كتورة ، ط ٢ ، ٢٠١١ ، أبو ظبي - الإمارات العربية المتحدة ، بيروت - لبنان ، كلمة ومجد المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع ، ص ١٩٣ - ١٩٤ .

وقفتان مهمتان :

و هنا لا بد أن نقف عند محورين مهمين في المسألة هما :

أولاً : الانتشار الثقافي :

إن الانتشار يعني انتقال أدوات أو تطبيقات أو أفكار معينة من مجتمع إلى آخر، أما عن طريق التجارة أو الاتصال المنظم أو العرضي^١. فالعناصر الثقافية تنتقل من موطن إلى آخر بتأثير بعضها في بعض، كما أن الحضارات بكيئتها تتواصل وتتفاعل و تبدل، و هذه الخاصية أساسية في خواصها، مستمدة من كيانها الإنساني والاجتماعي^٢.

إن لعامل الحاجة دوراً مهماً في تقارب الثقافات، حين يدعو إلى خلق تفاعل بين (الحريات الثقافية) و (الأصالة) و (التراث الثقافي)، و بين (الثقافة المحلية) و (الثقافات الإقليمية)، و تمهد السبيل لخلق الانفتاح من دون التأثير الأحادي الجانب من الثقافة المحلية فقط، بحيث يُفقد هويتها ومعطياتها على أساس التفاعل المشترك و الاستفادة من الومضات اللامعة في الثقافات الأخرى التي يمكن أن تثري و تعزز مسيرة الثقافة المحلية^٣.

إن ثقافة أي بلد من البلدان أو أية امة من الأمم - و على الأغلب - تضم دوائر ثلاثا متداخلة مع بعضها البعض. فالدائرة الأولى هي دائرة

^١: الإنسان في المرأة، كلايد كلاكهون، ترجمة: شاطر مصطفى سليم، ص ١٤٤.

^٢: العلاقة الإشكالية بين الثقافي و الغزو الثقافي في الخطاب العربي المعاصر، محمد خلف جواد، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، عدد ١٧٦، ١٠، ١٩٩٣، م، ص ٧١.

^٣: قضايا العولمة و المعلوماتية في المجتمع العربي المعاصر، دار اسامة للنشر و التوزيع، الأردن

، ٢٠٠٣ م، ص ٥١-٥٢.

(الثقافات المحلية) التي لا تخلو من تنوع هو مصدر للغنى والخصب، و الدائرة الثانية هي دائرة (ثقافة الأمة) أو الدولة المعنية بكاملها، وتضم أنماط السلوك المادي والمعنوي التي تميز أمة من الأمم عن سواها، أما الدائرة الثالثة فهي دائرة (الثقافة العالمية) التي تتفاعل مع الثقافة القومية وتمنحها القدرة على الحياة عن طريق تجديدها، و التقدم العلمي التقني، وثورة المعلومات والاتصال بوجه خاص، وتحول العالم إلى قرية واحدة تؤدي كلها إلى اتساع الدائرة الثالثة (دائرة الثقافة العالمية)^١.

وهكذا فان انتشار العناصر الثقافية مهما كانت أسبابه وعوامله فإنه سيحمل في طياته (الانصهار) و (الحذف) و (الإضافة)، التي ستتجلى في المنظومة القيمية والفكرية للمركب الثقافي لأي شعب من الشعوب، ولأي مجتمع من المجتمعات.

ثانياً : الثقاف :

إن الثقاف بوصفه مجموع الظواهر الناتجة من تماس موصول ومباشر بين مجموعات أفراد ذوي ثقافات مختلفة تؤدي إلى تغيرات في النماذج الثقافية الأولى الخاصة بإحدى المجموعتين أو كليهما^٢.

يقول الباحث الكوبي (اورتيز) إنني أؤيد الرأي بان كلمة (المنافلة الثقافية) تعبر بشكل أفضل من مراحل سياق الانتقال المختلفة، من ثقافة إلى أخرى، لأن هذا السياق لا يشتمل فقط على اكتساب ثقافة أخرى، بل يتضمن

^١ : دور التربية و الثقافة في بناء حضارة إنسانية جديدة ، عبد الله عبد الدائم ، دار الطليعة للطباعة و النشر ، بيروت - لبنان ، ١٩٨٨م ، ص ١٥١ - ١٥٢ .

^٢ : مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية ، دوني كوش ، ترجمة : منير السعيداني ، مراجعة : الطاهر لبيب ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت - لبنان ، ٢٠٠٧م ، ص ٩٣ .

أيضاً بالضرورة، فقدان مقدار ما من ثقافة سابقة، أي الانتزاع منها، وهو ما يمكن تعريفه بالتجريد الثقافي، أضف إلى ذلك، إنه يقود بالتالي إلى فكرة ظاهرة نشأة ثقافة جديدة، وهو ما يمكن تسميته (التثقيف الجديد)^١. وهذه العملية تتباين نوعاً وكماً بحسب عوامل عدة، مختلفة ومتنوعة، مادية أم معنوية.

إن الشاقف يتأثر كثير باختلاف عناصر الثقافات ونمط الاتصال وظروفه، وكذلك درجة تكافؤ الثقافات المتماسة، ونوع التأثير الثقافي سواء أكانت عمليات الثقاف سلبية أم ايجابية. إن الشاقف لا يمكن اختزاله أبداً، وإن كان قسرياً أو مخططاً له، إلى مجرد نزاع للثقافة ولا يفضي حتماً، إلى الاستيعاب الذي لا يكون بالضرورة، إذا ما حدث نتيجة إبادة اثنية ويمكن أن ينجر عن اختيار (المستوعبين) الإرادي^٢.

^١: عيسى الشماس، مصدر سابق، ص ١٤٦.

^٢: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، دوني كوش، ترجمة: منير السعيداني، مراجعة: الطاهر لييب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، ٢٠٠٧ م، ص ١٠٣.

التشابه بين الثقافات

منذ وقت مبكر التفت علماء الأنثروبولوجيا إلى ظاهرة التشابه بين الثقافات، مع أن هذه الثقافات تنتمي إلى مجتمعات متعددة و مختلفة من أبعاد عديدة : دينية، و ثقافية، و لغوية، و عرقية، و جغرافية، و تاريخية. و قد استوقفت هذه الظاهرة اهتمام الأنثروبولوجيين الذين وجدوا فيها ما يغري بالبحث، و يساعد على تطوير الفهم لفكرة الثقافة، و فحص بنياتها الداخلية، و حركيتها الخارجية.

فمع اتساع الاهتمام بهذه الظاهرة تعددت وجهات النظر عند الأنثروبولوجيين، و انقسمت إلى اتجاهات مختلفة. فهناك من يرجع هذه الظاهرة إلى التشابه في العقل البشري الذي يعمل بالطريقة نفسها في الظروف المتشابهة، و يذهب إلى هذا الرأي (تايلور) و يطلق على هذا التشابه (الوحدة النفسية للجنس البشري)، فكل المجتمعات حسب رأيه لها القدرات العقلية نفسها، و عندما تواجه هذه المجتمعات معضلات متشابهة فإنها تصل إلى معالجات متشابهة.

و هناك من يرجع التشابه بين الثقافات إلى تأثير ثقافة واحدة على جميع الثقافات الإنسانية الأخرى.

و هناك من يرجع ذلك التشابه ليس إلى ثقافة واحدة، أو مركز حضاري واحد، و إنما إلى عدد من الثقافات التي لعبت دور المناطق الثقافية المحورية في التأثير على باقي الثقافات الأخرى. إلى جانب من يرجعها إلى التأثير المتبادل بين الثقافات و المجتمعات الإنسانية. هذا التشابه بين الثقافات أوصل علماء الأنثروبولوجيا إلى فكرتين متعارضتين، دارت حولهما نقاشات جادة، بين من يرى أن هذا التشابه يكشف عن وجود قوانين كلية تحكم

الثقافة الإنسانية و تسييرها نحو مراحل ثابتة من التطور بطريقة متتابعة و حتمية، تجعل من ثقافة كل مجتمع مهما كانت هويته و مكوناته أن تسلك مساراً واحداً، و سياقاً ثابتاً متعاقب المراحل، و بين من اعترض بشدة على هذه الفكرة كالرأي الذي اشتهر به (فرانز بواز) بأن ليس هناك صيغة واحدة و ثابتة للتطور الثقافي تنطبق على جميع المجتمعات دون استثناء في الماضي و الحاضر.

الثقافية:

الثقافية : يقصد بالثقافية التيار الفكري الذي ظهر في الولايات المتحدة الأمريكية في ثلاثينيات القرن العشرين وضمّ عدداً من تلامذة (فرانز بواز)^١ من أبرزهم : إدوارد ساير^٢، و روث بنديكت^٣، و مارغريت ميد^٤، فضلاً عن باحثين آخرين أمثال رالف لنتون^٥، وإبرام كاردينر^٦.

وترتكز المقاربة الثقافية على تقسيم العالم (إلى مساحات ثقافية أو ثقافات محلية تؤلف أنظمة مغلقة نسبياً، وتمتاز بتماسكها الخاص)^٧.

ومن هنا جاء مفهوم (السمة القومية) الذي وضعته (روث بنديكت) وطبقته على الثقافة اليابانية.

ويربط الثقافيون بين الثقافة وعلم النفس في دراسة الشخصية، إذ يعتبرون أنّ الثقافة والتربية قادرتان على أن (تجعلاً من الشخصية نمطاً متميّزاً)^٨.

^١ :فرانز بواز (١٨٥٨ - ١٩٤٢ م) .

^٢ : ادوارد ساير (١٨٨٤ - ١٩٣٩ م) .

^٣ : روث بنديكت (١٨٨٧ - ١٩٤٨ م) .

^٤ : مارغريت ميد (١٩٠١ - ١٩٧٨ م) .

^٥ : رالف لنتون (١٨٩٣ - ١٩٥٣ م) .

^٦ : إبرام كاردينر (١٨٩١ - ١٩٨١ م) .

^٧ : معجم العلوم الإنسانية ، ج . ف . دورتيه ، ترجمة : جورج كتورة ، ط ٢ ، ٢٠١١ ، أبو ظبي - الإمارات العربية المتحدة ، بيروت - لبنان ، كلمة و مجد المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، ص ٣٠٠ .

^٨ : المصدر السابق ، ص ٣٠٠ .

وقد اقترح لتون و كاردينر (نظريّة تتكوّن بمقتضاها في الطفولة شخصية أساسيّة "أو شكلية" تعرّف كمجمل سمات نمطيّة تؤلّف الطابع الإنثني أو الوطني)^١.

معتمدّين في ذلك على مفهومي (الشخصيّة القاعدية)، و (شخصيّة المجموعة) مميّزين بين مفاهيم (النموذج)، و (الوضعية)، و (الدور). و (في اصطلاح أوسع، تستعمل كلمة "ثقافويّة" لبيان مقابلة بين تيارين فكريّين في تاريخ الأنثروبولوجيا: الأنثروبولوجيا الأمريكيّة التي تدرج في تراث علوم الثقافة السائدة في ألمانيا القرن التاسع عشر، والأنثروبولوجيا الاجتماعيّة الإنجليزيّة التي تقترب أكثر من علم الاجتماع بأصولها، و تعتبر أنّ تحليل البنى الاجتماعيّة هو الشرط المسبق للتركيز على دراسة المشاكل الثقافيّة في مختلف أبعادها: الألسنيّة، و التقنيّة، و السيכולوجيّة، و التاريخيّة)^٢.

^١: معجم الأنثولوجيا و الأنثروبولوجيا، بيار بويت و ميشال ايزار، ترجمة: مصباح الصمد، ط ١، ٢٠٠٦، بيروت - لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع مجد، مادة (ثقافوية) ص ٤٣١.

^٢: معجم الأنثولوجيا و الأنثروبولوجيا، ترجمة: مصباح الصمد، ط ١، ٢٠٠٦، بيروت - لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع مجد، مادة (ثقافوية) ص ٤٣١.

الاحتكاك والانتشار الثقافي

إن احتكاك الثقافات المختلفة و الاتصال فيما بينها يؤدي إلى انتقال الكثير من عناصر الحياة الاجتماعية، و بالتالي يؤدي الى إحداث عملية تغير اجتماعي في نواحي الحياة المختلفة.

إن التطور الكبير في وسائل الاتصال في الوقت الحاضر سهّل عملية الاتصال بين الشعوب مما أثّر بشكل مباشر على سرعة عملية التغير الاجتماعي من خلال انتقال الأفكار و العادات و التقاليد.

و الإسلام جعل الاحتكاك و الاتصال الحضاري بين الشعوب و الثقافات سنة من سنن الله عز و جل في خلقه.

قال تعالى : ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)) سورة الحجرات، الآية (١٣).

فحضارة الإسلام لم تكن حضارة منغلقة على نفسها، بل كانت حضارة منفتحة على حضارات شعوب العالم لأنها رسالة إنسانية عامة فضلاً عن أن الإسلام عدّ الانفتاح عاملاً أساسياً للشراء و التطور الحضاري فجعل (الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا)^١.

فالتثاقف يشمل الظواهر التي تنجم عن الاحتكاك المباشر و المستمر، بين جماعتين من الأفراد مختلفتين في الثقافة، مع ما تؤديه هذه الظواهر من تغيرات في نماذج الثقافة الأصلية، لدى إحدى المجموعتين أو كليهما.

^١: من كلام مولى الموحدين علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، و أوردها الترمذي برقم)

رغم أنّ بعض الباحثين يؤيدون بأن كلمة (المناقلة) الثقافية، تعبّر بشكل أفضل عن مراحل سياق الانتقال المختلفة، من ثقافة إلى ثقافة أخرى. يقول علم الأنثروبولوجيا الإيطالي (لويجي لوكا كافالي سفورزا): (نكتسب ثقافتنا ممن هم حولنا، ثم نمررها بدورنا إلى آخرين. هناك اختلاف هام في نقل الصيغ الثقافية لا بد من ذكره، ولقد استعرنا مصطلحات من علم الأوبئة لوصف الطريقتين الرئيسيتين للنقل: النقل الرأسي الذي يصف مرور المعلومات من الآباء إلى الأبناء، والنقل الأفقي الذي يشمل كل السبل الأخرى بين الأفراد غير الأقارب. التطور الثقافي بطيء تحت نظام النقل الرأسي، الذي يشبه النقل الوراثي، لأن وحدة الزمن فيه تكون هي الجيل. أما النقل الأفقي فمن الممكن أن يتم سريعاً ليشبه في بعض الأحيان انتشار المرض المعدي بالاتصال المباشر بين المريض و من حوله من القابلين للعدوى)^١.

^١: الجينات و الشعوب و اللغات ، لويجي لوكا كافالي سفورزا ، ص ١٩٥ .

أقسام الأنثروبولوجيا الثقافية

١- علم اللغويات :

يهتم (علم اللغة) بلغات المجتمعات المدروسة من حيث أصولها، و تطورها، و تركيبها. و يختلف الأنثروبولوجي عن دراس اللغات لمجرد معرفتها. فالأنثروبولوجي يهدف إلى الكشف عن الأصول التاريخية لنشأة اللغة عموماً، و المجموعات المتشابهة فيها على وجه الخصوص، و يقارن اللغات بعضها ببعض ليحدد الظواهر اللغوية الشائعة بينها على وجه العموم، و على ضوء ذلك يتمكن من فهم العمليات و التطورات التي أدت إلى نشأة اللغة و تطورها و اختلافها.

و عن علم اللغويات نقول : إن علم اللغويات هو العلم الذي يبحث في تركيب اللغات الإنسانية ، المنقرضة ، و الحية ، و لا سيما المكتوبة منها في السجلات التاريخية فحسب ، كاللاتينية ، أو اليونانية القديمة ، و اللغات الحية المستخدمة في الوقت الحالي ك(العربية ، و الفرنسية ، و الأنكليزية).

يهتم دارسوا اللغات بالرموز اللغوية المستعملة إلى جانب العلاقة القائمة بين لغة شعب ما ، و الجوانب الأخرى من ثقافته ، باعتبار أن اللغة وعاء ناقل للثقافة.

إن اللغة من الصفات التي تميّز الكائن البشري عن غيره من الكائنات الحية الأخرى ، فهي الطريقة - المثلى - في التخاطب و التفاهم بين الأفراد و الشعوب، و ذلك بواسطة رموز صوتية ، و أشكالٍ كلاميةٍ متفقٍ عليها يمكن تعلمها.

تعتبر اللغة وسيلة لنقل التراث (الثقافي - الحضاري) حيث يمكن استخدام معظم اللغات في كتابة هذا التراث.

إن هدف علماء الأنثروبولوجيا اللغوية هو دراسة اختلاف اللغات ليكتشفوا الإدراكات ، و النماذج الفكرية المختلفة في عدد وافر من الحضارات. على الرغم من أن علماء اللغة لم يتمكنوا من تحديد أسبقية لغة على أخرى ، فقد توصلوا من خلال دراساتهم إلى تصنيف اللغات المختلفة بحسب طبيعتها و استخدامها في ثلاثة أقسام هي :

أ - اللغات المنعزلة : و هي اللغات التي تتخاطب بها فئات منعزلة عن الفئات الأخرى ، و لا تفهمها إلا تلك الفئات المتحدثة بها ، و هي لغة لا تُكتب ، و ليس لها تاريخ.

ب - اللغات الملتصقة : و هي اللغات التي تتخاطب بها شعوب كبيرة ، و لكنها ملتصقة بهم و بتراثهم ، و هي لغات معروفة ، و لكن ليس لها قواعد ، و إنما تعتمد على المقاطع و الكلمات مثل : اللغة الصينية.

ج - اللغات ذات القواعد (النحو و الصرف) : و هي اللغات الحديثة التي تستخدمها الأمم المتحضرة ، لها قواعد نحوية و صرفية ، تضبط جملها و قوالها اللغوية ، مثل : اللغة العربية ، و اللغات الأوروبية.

و مهما يكن هذا التقسيم ، فإن اللغات المستعملة في العالم جميعها شكلت من أصوات متناسقة تدل على هذه اللغة أو تلك ، وفق أصول و قواعد خاصة بها ، و لهذا يقسم علم اللغويات إلى أقسام فرعية من أهمها :

الأول : هو (علم اللغات الوصفي) : و يهتم بتحليل اللغات في زمن محدد ، و يدرس النظم الصوتية ، و قواعد اللغة و المفردات ، و يعتمد عالم اللغات في دراساته هنا على اللغة الكلامية ، و لذلك يستمع إلى الأفراد ، و لاسيما إذا كانت الدراسة متعلقة بلغات لم تكتب ، فيقوم عالم اللغة بكتابة

تلك اللغات عن طريق استخدام الرموز المتعارف عليها.

و تتركز معظم تلك الدراسات في المجتمعات البدائية التي تستخدم اللغة الكلامية ، و لم تعرف القراءة و الكتابة ، فلا يوجد مجتمع إنساني - مهما تخلفت ثقافته - من دون لغة كلامية يتفاهم بها أبنائه.

الثاني : هو (علم أصول اللغات) : و يهدف إلى تحديد أصول اللغات الإنسانية ، و لذلك يختص بالجانب التاريخي و المقارن ، حيث يدرس العلاقات التاريخية بين اللغات التي يمكن متابعة تاريخها ، عن طريق وثائق مكتوبة ، و تكون المشكلة أكثر تعقيداً بالنسبة للغات القديمة التي لم تترك أية وثائق مكتوبة تدل عليها ، و لكن ثمة وسائل خاصة يمكن للباحث أن يستخدمها في دراسة تاريخ تلك اللغات.

إن نمو الثقافة بكل ما يتعلق بها لم يكن ممكناً بدون اللغة، التي تعتبر أئمن ممتلكات الإنسان على الإطلاق. فاللغة لا تمكن الإنسان من الاتصال المباشر مع أقرانه فقط، بل و من تحقيق العمل التعاوني المنسق بسهولة أكبر كذلك، كما و أنَّها تتيح له امكانية تخزين خبراته و معارفة بألفاظ معينة مختصرة، أو برصيد فولوكلوري و شعبي معين و من ثم نقلها إلى الأجيال المتتابة. و اللغة لا تتيح للأفراد أن يشاركو معاصريهم خبراتهم فحسب، بل مشاركة جميع الأجيال التي عاشت و ستعيش في كل شيء.

تعد الأنثروبولوجيا اللغوية (Linguistic Anthropology) من أهم فروع الأنثروبولوجيا الثقافية، فهي تهتم بعنصر حيوي من عناصر الثقافة ألا و هي ؛ اللغة.

فاللغة هي الوسيلة الوحيدة للاتصال بين الإنسان و أخيه الإنسان، كما

و أنها أداة نقل الأفكار عن طريق التعبير عنها بـ(كلمات) أو (إشارات) أو (رموز) أو (صور)، وغيرها من طرق الإيصال و التوصيل.

و الأنثروبولوجي اللغوي يهتم بالبحث عن أصول اللغات و أشكالها الرمزية، و محاولة إعادة البناء اللغوي لبعض اللغات لغرض الوقوف على المجموعات اللغوية التي تشترك و التي ترجع إلى أصول متشابهة كالمجموعة السامية مثلاً، و التي تضم اللغة العربية و اللغة العبرية و غيرها.

لقد قسم الأنثروبولوجيون اللغويون اللغات إلى فصائل و عائلات يجمع أفراد كل فصيلة منها صلات لغوية قرابية. و أشهر نظرية قسمت اللغات على هذه الأسس هي نظرية (ماكس مولر) و التي ترجع جميع اللغات الإنسانية إلى ثلاث عائلات هي: (العائلة الهندية - الأوروبية)، و (العائلة السامية - الحامية)، و (العائلة الطورانية).

و قد أطلق (ماكس مولر) و (بونسن) اسم اللغات الطورانية على طائفة من اللغات الآسيوية و الأوروبية التي لا تدخل تحت العائلتين السابقتين كالتركية و التركمانية و المغولية و المنشورية و الفينيقية.. الخ، و من ثم فاللغات الطورانية ليست إذن فصيلة أو عائلة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة، و هي عدد من لغات لا يؤلف بينها إلا صفة سلبية و هي عدم دخولها في إحدى الفصيلتين السابقتين^١.

إن الأنثروبولوجي يركز اهتمامه في الكشف عن كيفية نقل اللغة من جيل إلى جيل، و كيف أن مثل عمليات التوريث اللغوي تنقل معها عقائد و تقاليد و أعراف المجتمع. كما و تُعدّ اللغة من أهم عناصر الحضارة.

^١: علم اللغة ، علي عبد الواحد وافي ، ص ٢٠٦.

(يستعمل البشر المعاصرون لغات غاية في التعقيد. ليس ثمة "بدائية"، فلكل من الخمسة آلاف لغة "أو أكثر" التي يتحدث بها البشر اليوم نفس المرونة ولها جميعاً نفس إمكانيات التعبير، بل قد تكون قواعدها وأجروميتهما في بعض الأحيان أثيرى وأدق من اللغات الأكثر انتشاراً، كالإنجليزية و الأسبانية، التي حدث بها بعض التبسيط عبر القرون. يستطيع كل البشر من ذوي الذكاء المتوسط أن يتقنوا أي لغة إذا ما بدأوا في عمر مبكر. أما بعد عمر خمس أو ست سنوات فيكاد يستحيل أن يتقن الطفل لغة جديدة و يتحدثها بفصاحة، بل إن القدرة على تعلم اللغات قد تختفي تماماً بعد ذلك و بسرعة، حتى ليكاد يتعذر بعد البلوغ أن يتقن الفرد التلفظ بلغة ثانية و هذا سبب وجيه للبدء في تعليم اللغات الأجنبية بالمدارس الأولية. و لكن يبدو أن معظم الحكومات لم ينتبه إلى هذه القاعدة المطلقة التي لا ريب فيها فعلاً^١.

^١: الجينات و الشعوب و اللغات ، سفورزا ، ص ٧٧.

الحيوانات واللغة

إن لمفهوم اللغة حجم و حيز و مجال أكبر مما يمكن أن نحصرها فيه من خلال حصرنا اللغة بالإنسان فقط، فأين يمكن لنا أن نضع لغة الحيوانات مثلاً، أو لغة الملائكة، و الجن، و الشياطين، و هل هي لغة أم لا ؟ و أين يمكننا تصنيفها ؟

إن القرآن الكريم قد تحدّث عن كلام الكثير من الحيوانات، و عن كلام العفاريت، و الشياطين، و في أكثر من آية قرآنية، بل نجد أنّ هناك سور قرآنية باسم بعض ما ذكرنا كـ (سورة البقرة) و (سورة الأنعام) و (سورة النمل) و (سورة النحل) و (سورة الجن) و (سورة العنكبوت) و (سورة الفيل).

فالقرآن الكريم يخبرنا عن قصة الهدهد مع نبي الله سليمان (عليه السلام) في موقف في منتهى الروعة لأسلوب المحاضرة.

قال تعالى : ((وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لِأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ)) سورة النمل، الآيات (٢٠) - (٢٢).

و كذلك نجد أسلوباً آخر لا يقل عنه بالروعة و البلاغة ألا و هو كلام

النملة إلى بني جنسها لما مر بهم نبي الله سليمان (عليه السلام) و جنوده.

و قال تعالى : ((وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ

أَعْمَلْ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ)) سورة النمل
الآيات (١٧) - (١٩).

ثم هناك كلام العفريت الذي خاطب نبي الله سليمان (عليه السلام)
في محاوره حول ملكة سبأ.

و قال تعالى : ((قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ
مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ)) سورة النمل، الآية (٣٩).

إذن فللكل لغته الخاصة، و التي قد تكون غير مفهومة لنا.

قال تعالى : ((وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ
تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)) سورة الإسراء، الآية (٤٤).

بل إنَّ القدرة على الكلام و النطق هي من عند الله تعالى.

قال تعالى : ((وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي
أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)) سورة فصلت، الآية
(٢١).

فلغة الحيوانات : هي فن من فنون الخالق تعالى، إذ جعل لكل كائن
لغته الخاصة به، و ليس بالضرورة أن تكون بالشكل المعتاد للبشر، أو مما
يفهمه البشر.

من الملاحظ أن غالبية الحيوانات لا غنى لها عن الصوت، فهو يكاد
يكون قاسماً مشتركاً بينها جميعاً، و تختلف درجة هذا الصوت في الحيوان -
قوةً و ضعفاً، و شدةً و رخاوة - تبعاً لحالته.

كما و يتم الإتصال بين الحيوانات بطريقتين، و تنقل المعلومات من
حيوان إلى آخر بالطريقة التي يتصرف بها، و تسمى هذه الرسائل بـ(رسائل

النشاط) أو (رسائل التصرف) و (الرسائل السلبية) و (الرسائل اللاسلكية).
 و في وقفة صغيرة نقول : إلى من ينادي بحقوق الإنسان تارة، و
 بحقوق الحيوان تارة أخرى، و كأنه قد جاء بجديد لم يسبقه إليه أحد، أن
 عليه أن يرجع إلى القرآن الكريم و الذي يحتوي على (١١٤) سورة قرآنية
 ليشهد أن فيها سوراً بأسماء حيواناتٍ مختلفة، و أن هناك سورة واحدة اسمها
 سورة (الإنسان)، فأى مذهب أو قانون اسمى من كتاب الله تعالى.
 قال تعالى : ((قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)) سورة
 طه، الآية (٥٠).

و قال تعالى : ((سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ)) سورة الصافات، الآية
 (١٥٩).

القرآن الكريم وقضايا اللغة: أهميتها ودورها

يؤكد القرآن الكريم على اللغة (اللسان) في التفاهم و التواصل و ذلك لعدة أسباب مهمة منها :

١- اللغة المشتركة الدور الكبير في التفاهم، و تقبل الآخر و بث روح الاطمئنان لدى المقابل :

قال تعالى : ((وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ)) سورة إبراهيم، الآية (٤).

و قال تعالى : ((فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا)) سورة مريم، الآية (٩٧).

و قال تعالى : ((وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي)) سورة طه، الآيات (٢٧ - ٢٨).

٢- الله سبحانه و تعالى شاء أن يرسل إلى القرى و غيرهم أشخاصاً منهم، و عبّر عن ذلك في أكثر من آية بقوله تعالى (أخاهم) أي ابن بلدهم و العارف بلغتهم و بثقافتهم و بطبائعهم.

قال تعالى : ((وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا)) سورة النمل (٤٥).

و قال تعالى : ((وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا)) سورة العنكبوت، الآية (٣٦).

و قال تعالى : ((وَإِلَى عادٍ أَخَاهُمْ هُودًا)) سورة الأعراف، الآية (٦٥).

٣- إن من أهم أسباب سيطرة نبي الله سليمان (عليه السلام) على جميع المخلوقات هو ؛ معرفته بلغاتهم.

قال تعالى : ((فَفَقَّهُمْنَاهَا سُلَيْمَانًا)) سورة الأنبياء، الآية (٧٩).

و قال تعالى : ((وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ)) سورة النمل، الآية (١٧).

٤- لا بد للغة من كتابة و حفظ و تدوين، ذلك من أجل بقاءها و ديمومتها.

قال تعالى : ((أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ)) سورة الأحقاف (٤).

و قال تعالى : ((ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)) سورة القلم (١).

و قال تعالى : ((الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)) سورة العلق (٤).

يقول الكاتب الالماني (لودفيج فيورباخ)^١ عن أهمية اللغة للإنسان :
((إن الكائنات تجعل البشر أحراراً، فالشخص الذي لا يستطيع التعبير عن نفسه يصبح كالعبد، الحديث هو تعبير عن الحرية، و الكلمة هي الحرية نفسها))^٢.
إن اللغة هي أعظم قدرة وهبها الله تعالى لنا لنتمكن من التعايش و التفاهم من خلالها، فهي بحق سرٌّ من أسرار خِلقة الإنسان التي أودعها الله سبحانه و تعالى فيه.

^١ : لودفيج فيورباخ (١٨٠٤ - ١٨٧٢ م) عالم الماني .

^٢ : Pei , Mario , " The Story of Language " , Lippincott C,New York , 1949 , P.71.

أسباب نشأة اللهجات

إن صراع البقاء و الديمومة لا يشمل الكائنات بما هي هي، بل يتعداه إلى كل ما يتعلق بها، لذا نجد ان ما يحدث بين الكائنات يحدث بين جزئية من الجزئيات التابعة لها.

فمثلاً : يحدث بين اللغات ما يحدث بين أفراد الكائنات الحية و جماعاتها من احتكاك و صراع و تنازع على البقاء، و سعي وراء الغلب و السيطرة، و تأتي نتيجة هذه الصراعات و الاحتكاك أن تتشعب و تتفرع اللغات^١.

قال تعالى : ((كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا يَنْهَاهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)) سورة البقرة، الآية (٢١٣).

و قال تعالى : ((وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)) سورة البقرة، الآية (٢٥٣).

و يمكن إجمال سبب انتشار اللغة بثلاثة أسباب رئيسية هي :

- ١- الغلبة بعد النجاح في صراع الغالب و المغلوب.
- ٢- الانتشار بعد هجرة من الهجرات القسرية الكبرى.
- ٣- توفر الأسباب المواتية لنمو جماعة ما و تمددها و تطورها و بالتالي هيمنتها.

^١ : علم اللغة ، علي عبد الواحد وافي ، ص ١٥٤ .

فانتشار اللغة انتشاراً واسعاً يؤدي إلى تشعبها و إنقسامها إلى لهجات مختلفة، و لا يمكن لأحد أن يأتي و يقول : أن هناك دخل لقضية الجينات في اختلاف اللغة و تنوع اللهجات، فالارتباط بين الجينات و اللغة ليس ارتباطاً مباشراً، فليس هناك جينات مسؤولة عن اللغة، لأن اللغة عامل من العوامل المكتسبة، فلو أننا أخذنا طفلاً انكليزياً و أنشأناه في بلد عربي دون أن يسمع كلمة انكليزية فإنه سوف يتكلم العربية بطلاقة و العكس صحيح، فالعلاقة بين الجينات و اللغة علاقة بعيدة عن (علاقة التلازم الذاتي)، نعم، إن للعوامل البيولوجية، و العوامل الجغرافية، دور مهم في تنوع اللهجات، و حصول فروق في اللغات.

(ليس ثمة سبب للاعتقاد بأن للجينات أثراً على قدرة الفرد على التحدث بلغة دون الأخرى، فإذا وجدت مثل هذه الفروق فلا بد أن تكون ضئيلة حقاً. للإنسان المعاصر القدرة على تعلم أية لغة، أما أول ما يتعلمه من اللغات فهو أمر يرجع لتاريخ ميلاده و موطنه. تشترك كل اللغات الحديثة في مستوى متساوٍ من تعقيد البنية فالجماعات العرقية التي تحيا في مستوى اقتصادي بدائي لا تتحدث لغة أكثر بدائية من لغة الجماعات الأثري، وإذا ما كان ثمة تفاعل بين الجينات و اللغات، فإن اللغات هي التي تؤثر في الجينات...)^١.

إن عامل تغير الثقافة يعتبر من العوامل المهمة التي تؤدي إلى تغير اللغة، فتعدد الفئات الثقافية و الاجتماعية داخل المجتمع يؤدي إلى التغير

^١ : الجينات و الشعوب و اللغات ، لويجي لوكا كافالي سفورزا ، ترجمة : أحمد مستجير ، ص

الحتمي في اللغة السائدة (اللغة الأم)، فتنقسم تلك اللغة إلى لهجات، و تعبر كل لهجة عن ثقافة فئة معينة، و ذلك عن طريق ما تضيفه إليها تلك الفئة أو الجماعة من مفردات و مصطلحات خاصة فتصبح لهجتهم بعد ذلك لها سمتها الخاصة بها، وفق نسق ثقافي خاص بهم.

كما و أن هناك سبباً آخر يعتبر من العوامل التي تساعد على نشوء اللهجة، و الذي يطلق عليه العلماء اللغويون اسم (المغايرة الفردية) و التي تعني: أن كل إنسان له لهجته الخاصة، و ان هناك لهجات في اللغة بقدر ما هنالك من أفراد يتكلمون هذه اللغة، و علماء اللغة يقولون أن المجتمع الذي يتكلم أفراد له لغة واحدة لا وجود له إطلاقاً^١.

و المغايرة الفردية ليست تعمدية، و لكنها طبيعية و عفوية، فالطفل لا يمكن أن يولد صورة طبق الأصل لأبيه أو لأمه لا في الشكل و لا في الصوت و النطق و اللغة، و هذه المغايرة جيلاً بعد جيل تترك أثرها في اللغة.

ان لغة المحادثة تتشعب في البلد الواحد أو المنطقة الواحدة إلى لهجات مختلفة تبعاً لاختلاف طبقات الناس و فئاتهم، فتكون هناك مثلاً لهجة للطبقة الارستقراطية، و أخرى للجنود، و ثالثة للتجار، و رابعة للرياضيين، و خامسة للمعلمين، و هكذا. و تنشأ هذه اللهجات نتيجة لما يوجد بين طبقات الناس و فئاتهم من فروق في الثقافة و التربية، و نواحي التفكير و الوجدان، و مستوى المعيشة، و حياة الأسرة، و البيئة الاجتماعية، و التقاليد، و غيرها من أسباب مؤثرة.

^١: محاضرات في اللهجات و أسلوب دراستها، أنيس فريجة، ص ٤٦ - ٤٧.

ان التعدد الشكلي و اللوني و اللساني و الثقافي و المعيشي ما هو إلا
عنصر تنوع و إثراء و قوة للحضارة البشرية، و هو آية من آيات الله سبحانه و
تعالى كما صرح بذلك القرآن الكريم.
قال تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ
وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ) سورة الروم، الآية (٢٢).

٢- علم الآثار القديم :

علم الآثار القديم (الأركيولوجيا) (Archaeology) : هو الدراسة الأثنولوجية و الأثنوغرافية لحضارات شعوب بائدة و ذلك من خلال الآثار التي يجدها العلماء في الحفريات، أي التي خلفتها شعوب تلك الحضارات.

يهتم هذا الفرع من الأنثروبولوجيا الثقافية بالثقافات القديمة أو الثقافات البائدة التي ليس لدينا عنها تاريخ مكتوب.

يعرف علماء الإنسان الثقافي الأركيولوجيا : بأنها دراسة الماضي، أو دراسة الإنسان في عهوده القديمة و هي تركز على البقايا و المخلفات الثقافية التي تركها الإنسان.

إن علم الآثار يدرس ماضي الإنسان، و يبحث في الحضارات القديمة و المراحل البعيدة للمدنيات الغابرة، و يرمي إلى تحديد التغير الحضاري و تتابعه على مر العصور، و يهدف كذلك إلى إعادة بناء الحياة الاجتماعية لمجتمعات ما قبل التاريخ. فالأنثروبولوجي و إن كان يستخدم الوثائق المكتوبة للحضارات الماضية، إلا أنه يعتمد بشكل رئيسي على بقايا الحضارات التي خلفها الإنسان، حيث ينصب اهتمامه حول الآثار ليرسم صورة أشبه ما تكون إلى الأصل المنقرض و إن لم تطابقه، و ذلك باستخدام أساليب دقيقة في القياس ليصل إلى أكبر قدر ممكن من الدقة و التحديد في القياس الزمني. يعتمد الأنثروبولوجي على علم الآثار لتفسير و تقويم الأعمال التاريخية للإنسان، بما يمكن من إعادة تشكيل التاريخ الاجتماعي و البيولوجي بأقرب الأشكال إلى الزمن الراهن، و عندما تعتمد الأنثروبولوجيا في بحوثها على معطيات علم الآثار، فإنها بما تتوصل إليه من نتائج تضيف

بدورها إلى تلك المعطيات أبعاداً جديدة، ترتبط بنظريات الأصول الأولى للحياة.

إن هناك فرقاً واضحاً بين ما يقوم به عالم الآثار التقليدي الذي يبحث في الآثار التي تركها - مثلاً - اليونانيون أو المصريون أو البابليون أو الآشوريون وغيرهم، وبين الأركيولوجي لأن الأول يقوم بمحاولة تحقيق و تأكيد التاريخ المدون، أما الأركيولوجي فإنه يعمل في ظروف مغايرة و يستهدف مادة أكثر غموضاً و إبهاماً، و يبحث عن البقايا المدفونة للشعوب القديمة و يقوم بإجراء الحفريات المناسبة، و له أساليبه الخاصة التي يستخدمها للوقوف على الحقائق الخاصة بماضي الإنسان.

أما من جانب قضية الثقافات التي ليس لدينا عنها تاريخ مكتوب فقد أشار القرآن الكريم إلى تلك الحقيقة أيضاً.

قال تعالى : ((مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ)) سورة غافر، الآية (٧٨).

أما عن قضية التركيز على ما بقي من آثار لتحصيل الفائدة و لأخذ العبرة، نجد أن القرآن الكريم أشار إلى تلك الحقيقة أيضاً.

قال تعالى : (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ) سورة غافر ، الآية (٢١).

٣- علم الثقافات المقارن :

علم الثقافات المقارن (الأنثولوجيا) (Ethnologie) : هو العلم الذي يعنى بخصائص و انجازات الشعوب و احوالهم الحضارية و الثقافية و معتقداتهم، و يدرس تاريخ الحضارات و العلاقات الحضارية بين الشعوب ، و تصنيف الحضارات و توزيعها و إنتشارها في العالم.

ظهر مصطلح (أنثولوجيا) لأول مرة بالفرنسية في كتاب (شافان) : (دراسة عن التربية الفكرية مع مشروع لعلم جديد). إذ يدرس هذا الفرع ثقافات الشعوب الموجودة وقت الدراسة، كما يدرس الشعوب التي لديها تسجيلات مكتوبة لإخباريين عاشوا في تلك الثقافات.

و الأنثولوجي يدرس ثقافة المجتمع أو المجتمعات التي يبحثها فيدرس النظم الاجتماعية و السياسية السائدة و الدين و التقاليد و الفنون الشعبية و فروع المعرفة و الفنون الصناعية و كذلك المثل العليا و الأفكار.

قال تعالى : ((تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا)) الأعراف (١٠١).

و قال تعالى : ((وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِشَتَهَا فِتْلِكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ)) القصص (٥٨).

و قال تعالى : ((أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)) غافر (٨٢).

إن هدف الأنثولوجيا هو : عقد المقارنة بين الثقافات حتى نستطيع التوصل إلى ما نسميه بالعموميات أو إلى قوانين عامة تحكم السلوك الإنساني.

(إن اهتمام الأنثولوجيا بدراسة الثقافة على أسس مقارنة، وفي ضوء نظريات وقواعد ثابتة، بقصد استنباط تعميمات عن أصول الثقافات و تطورها، و أوجه الاختلاف فيما بينها، و تحليل انتشارها تحليلًا تاريخيًا)^١. كل هذا التحليل لقضايا الاختلاف و التنوع هدفه الوصول إلى نقطة التقاء واحدة، تؤمن بالوحدة، و التعايش، و عدم الإلغاء.

إن الأنثولوجيا عملياً تستفيد من البيانات التي تزودها بها الأنثوغرافيا، ليقوم الباحث الأنثولوجي بعد ذلك بتصنيف الحضارات في مجموعات أو أشكال على أساس مقاييس معينة، و تحليلها، و استخراج المبادئ منها، ليعتمد بعد تحديد موضوع دراسته إلى إقامة الفروض و النظريات التي تتعلق بطبيعة التصرفات الإنسانية، و النماذج الحضارية، و وظائفها، و وضع الطرق و الوسائل لمعرفة صحتها.

^١: الإنسان في المرأة ، كلوكهون كلايد ، ص ٣١ .

وحدة الأصل الإنساني

قال تعالى : ((هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)) سورة الإنسان، الآيات (١) - (٣).

يشكل الإنسان محور التفكير عند العلماء والمفكرين بمختلف منظوماتهم الفكرية والعقائدية، ولكي نبين أصوله التاريخية والاجتماعية لابد من العودة إلى كيفية خلق الإنسان في المصادر الإسلامية، وذلك من خلال تتبع الآيات القرآنية، و أحاديث المعصومين (عليهم السلام).

فقد ورد في آيات الذكر الحكيم وفي الأحاديث المباركة للمعصومين (عليهم السلام) أطوار خلق الإنسان الأول، وبأنه خُلِقَ من تراب، أو من طين، أو من طين لازب، أو من سلالة من طين، أو أنه من حمٍ مسنون، ومن صلصالٍ كالفخار.

وفي هذه المراحل يكمن الإيذان بتحول جديد، بولادة مخلوق مميز بسمات و ملامح الطور الآدمي، و مكلف بمهمة خاصة خُلِقَ من أجلها. فمادة الخلق الأول هي (التراب) و التي يكمن فيها قوة هذا المخلوق و ضعفه، فضلاً عن أنها أساس مبدأ الوحدة بين أبناء البشر.

فقد أشار الله سبحانه و تعالى إلى خلق آدم (عليه السلام) من تراب : قال تعالى : (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) سورة آل عمران، الآية (٥٩).

كما و قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) ((النَّاسُ بَنُو آدَمَ

وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ^١.

وقال تعالى : (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ) سورة السجدة (٧).

والطين هو التراب الممزوج بالماء، ويعد الماء الأصل لجميع المخلوقات.

قال تعالى : (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) سورة الأنبياء (٣٠).

فآدم خلق من طين خُمِرَ بالماء. فالماء مبدأ الخلق الأول والذي وجد قبل كل موجود، وهو العنصر الأساس في ديمومة الحياة.

و بيّن الله سبحانه و تعالى أنه خلق آدم من سلالة من طين.

قال تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ) سورة المؤمنون (١٢).

و هنا وصف للطين الذي خلق منه آدم (عليه السلام) وبأنه استل من سلالة من طين : أي من طين خالص.

ونجد أن الله سبحانه و تعالى يصف الطين وصفاً آخر في قوله جل و علا : (إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ) سورة الصافات (١١).

يقول ابن عباس (رضي الله عنه) : (اللازب الطين الحر الجيد اللزج)^٢.

وتعدّ مرحلة خلق الإنسان من طين لازب ثالث مراحل خلق الإنسان، ثم يتحول هذا الطين إلى حمأ مسنون فصلصال كالفخار.

^١ : رواه الترمذي ، برقم (٣١٩٣) .

^٢ : ألفاظ خلق الإنسان في القرآن الكريم ، يونس حمش الجوعاني ، ص ١٦ .

قال تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ) سورة الحجر (٢٦).

فالطين الذي خلق منه آدم بعد أن خمر بالماء، أصبح من حيث اللون والرائحة كالحماء المسنون، فهو مائل إلى السواد منتن. ثم ترك حتى جف فأصبح من حيث الصلابة والصوت صلصالاً كالفخار.

تلك المراحل التي مرّت بها المادة التي خُلِقَ منها آدم (عليه السلام) خَلَقَ الله الأول، وأصل البشرية الأول، وأبو البشرية جمعاء.

إن قصة خلق آدم (عليه السلام) في الفكر الإسلامي و في المنظومة الإسلامية، قد تمت بمعجزة إلهية، وأن هناك صلة ما بين مادة الخلق و طباع المخلوق، فقد خُلِقَ الإنسان من تراب ليكون متواضعاً وليكون أشد التصاقاً بالأرض التي خلق منها. فضلاً عن أن طبيعة تكوينه الملائمة للتفاعل مع البيئة التي يعيش فيها منسجمة مع طبيعة تكليفه ليكون خليفة الله في الأرض. فطبيعته تكون من طبيعة تكوينه، فكان تكوينه مناسباً لمكونات البيئة، وللمهمة التي خلق من أجلها.

و بعد أن خلق الله تعالى آدم (عليه السلام)، وهو المخلوق الأول من البشر، اقتضت إرادته أن يخلق المرأة وهي صنو الرجل، فكانت حواء.

قال تعالى : (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً) سورة النساء (١).

كل ذلك إشارة إلى أن هذه الحقائق الفطرية البسيطة فيها دلائل كبيرة وعميقة جداً، فهي توحى بأن هذه البشرية صدرت عن إرادة واحدة، وانبثقت

من أصل واحد، وتنتسب إلى نسب واحد، وتتصل برحم واحد، وتلتقي في وشيجة واحدة. وما الفوارق الموجودة والموضوعة - جميعها - إلا أمر طارئ. فالبشر كلهم من أصل واحد، وأب واحد، وأم واحدة، ثم تكاثروا وانتشروا وتفرقوا، بخلاف النظريات الأخرى القائلة بتعدد أصل البشر، وأن لكل فئة، ولكل عرق، ولكل لون أب خاص به.

و سواء كان للبشرية آدم واحد، أم أنه كان هناك آوادم آخرين متعددين، فالأصل يبقى (آدم)، ويبقى للبشرية - الموجودة - أب واحد وأم واحدة.

و ذلك هو مصداق قوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِئََّا تُعْرِفُوا أَنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ بِخَيْرٍ)) سورة الحجرات (١٣).

فقوله تعالى ((مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ)) أي: من ذكر واحد، ومن أنثى واحدة، وإلا فما الداعي لذكر ذلك والتأكيد عليه، إذ من المعروف أن أصل التوالد يكون من الذكر والأنثى، إذن فالمراد أن الخلق كان من ذكر واحد وأنثى واحدة تزاوجوا وتوالدوا فكانت منهم الشعوب والقبايل، ثم البشرية جمعاء.

لقد تناول القرآن الكريم موضوع (الخلق) بأسلوب علمي رصين و دقيق، يتوافق توافقاً تاماً مع نهجه العام الملتزم بالموضوعية العلمية. فقد وجه الإنسان إلى البحث والنظر في الأرض ذاتها بما فيها من آثار ومخلوقات يمكن من خلالها أن يكشف عن كيفية بدء الخلق ومن ثم عن تفرعه وتكاثره وتنوعه.

فذكر القرآن الكريم أن الأصل الأول للإنسان هو الماء و التراب أي (الطين)، و الصلصال من الحما المسنون أي (الطين المختمر). و هذا يعني أن العناصر التي يتكون منها جسم الإنسان هي العناصر الموجودة في طين الأرض، و مائها، و ترابها.

أما العقائد غير القرآنية - و بشكل عام - فقد نظرت إلى بداية الخلق نظرة أسطورية خيالية تتعد كثيراً عن أسلوب التفكير العلمي السليم. إن قصة الخلق في العقائد غير القرآنية طويلة و متهافته مليئة بالأساطير و الخرافات البعيدة عن منطق العقل السوي.

(و مما يؤسف له أن تمت في العصر الحديث صياغة إيديولوجيات و معتقدات دوغمائية تستند على أصول وهمية من دعاوي التفوق العنصري أو الديني أو السلالي، و تدّعي أن شعباً ما هو " شعب الله المختار " أو أن جنساً من الأجناس " فوق الجميع " و كل هذه الادعاءات ظهرت في قلب حضارة الغرب، و ذاق العالم ويلات كثيرة من المنازعات و الصراعات و الحروب و لا يزال يعاني منها في مواضع شتى) ^{١-٢}.

^١: المبادئ العامة للعلاقات الدولية ، إبراهيم البيومي غانم ، ص ٢٠١ .

^٢: و من المضحك المبكي أن بعض المستشرقين و علماء الغرب يصفون عصر الرسول الأكرم (صلى الله عليه و آله و سلم) بالعنف و الوحشية مقارنة بعصرهم الذي يصفونه بالأمن و الوداعة و الإستقرار . و لا أدري أين نضع سنوات الجنون العالمي في الحربين العالميتين و وحشيتهما التي فاقت جميع التصورات . أم أين نضع الملايين الذين سفكت دماؤهم على يد ستالين ، و هتلر ، و تشرشل ، و هاري ترومان رئيس أمريكا الذي ضرب اليابان بالقنابل النووية ، و غيرهم من تجار الدم البشري ؟!

إن الإيمان بنظرية (وحدة الأصل البشري) القرآنية هو الحل الأنجع للبشرية لكي تخرج من جميع مآزقها، ولتخلص من العنصرية والحروب و الصراعات التي لا تنتهي.

لقد كشفت الشواهد العلمية بأن الطقس الأوربي لم يكن قبل ما يقارب العشرين ألف سنة طقساً يساعد الإنسان على العيش في كنفه، إنه الإنجماد، و لم تحدث الهجرة من الشرق بوجه عام و الشرق الأوسط بشكل خاص إلى الاصقاع الشمالية (الأوربية) إلا بعد المرحلة الجليدية الأخيرة، كما و إن لقصة نبي الله نوح (عليه السلام) و الطوفان الأثر الكبير في التأكيد - غالباً - على انبثاق الجنس البشري من الشرق.

يعتقد الباحث الإيطالي (لويجي لوكا كافالي سفورزا)^١ و عدد من العلماء بنظرية أن أصل البشر من منطقة الشرق التي يبدو أنهم قد زحفوا إليها من أفريقيا.

^١: في كتابه (الجينات ، الشعوب ، و اللغات) الذي صدر عام ٢٠٠٠ ميلادي ، و الذي ترجم في عام ٢٠٠٤ ميلادي بمصر ، و قد نقلنا عباراته بأختزال و تصرف .

رابعاً : الأنثروبولوجيا الاجتماعية

تهتم الأنثروبولوجيا الاجتماعية (Social Anthropology)

بدراسة السلوك الاجتماعي الذي يتخذ في العادة شكل نظم اجتماعية كالعائلة ، و نسق القرابة ، و التنظيم السياسي ، و الإجراءات القانونية ، و العبادات الدينية ، و غيرها. كما تدرس العلاقة بين هذه النظم سواء في المجتمعات المعاصرة أو المجتمعات التاريخية ، التي يوجد لدينا عنها معلومات مناسبة من هذا النوع ، يمكن معها القيام بمثل هذه الدراسات^١.

تهدف دراسة الأنثروبولوجيا الاجتماعية إلى تحديد العلاقات المتبادلة بين هذه النظم ، سواء في المجتمعات القديمة التي تُدرس من خلال آثارها المادية و الفكرية ، أو في المجتمعات الحديثة و المعاصرة و التي تدرس من خلال الملاحظة المباشرة لمنجزاتها و تفاعلاتها الخاصة و العامة.

إننا و من خلال جولة تاريخية سريعة يمكن أن نكتشف بأن علم الاجتماع أقدم كثيراً من الأنثروبولوجيا الاجتماعية. لقد بدأ علم الاجتماع - و بحسب ما هو مؤرخ - على يد (أوغست كونت)^٢ في فرنسا. و (هربرت سبنسر)^٣ في إنجلترا. أما الرجلين اللذين يعتبران مؤسسا التراث البريطاني في الأنثروبولوجيا الاجتماعية هما (مالينوفسكي)^٤ و (رادكليف براون)^١ ، و اللذان

^١ : الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، بريشارد ، ص ١٣ .

^٢ : أوغست كونت أو كومت (١٧٩٨ - ١٨٥٧ ميلادي) .

^٣ : هربرت أو هربارت سبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣ ميلادي) .

^٤ : مالينوفسكي : برونيسلاف كاسبر مالينوفسكي (١٨٨٤ - ١٩٤٢ م) عالم بولندي ، مختص بعلم الانسان ، ولد بمدينة كراكوفيا في بولندا ، قرر أن يصبح مختصاً بالأنثروبولوجيا بعد أن قرأ كتاب جيمس فريزر (الغصن الذهبي) .

نهلا من أفكار علماء الاجتماع الفرنسيين في أواخر القرن التاسع عشر. إن الأنثروبولوجيين الاجتماعيين يدرسون تحت مفهوم (البناء الاجتماعي) الوحدات الرئيسية المكونة لهذا البناء، و المقصود بها : مجموعة العلاقات و الروابط و القواعد المتصلة بقطاع أو جانب معين من جوانب حياة هذا المجتمع.

يعتبر علم الاجتماع (Sociology) من أقرب العلوم لعلم الإنسان نظراً لأن كلاً من العلمين يهتم بالدور الذي يقوم به الإنسان من خلال وجوده في محتوى اجتماعي معين، و كل من الأنثروبولوجي و الاجتماعي يحاول فهم العادات و التقاليد الخاصة بالشعوب التي تنتمي إلى ثقافات معينة، لكن الانثروبولوجي يتميز باهتمامه الخاص بالبحث عن القوانين العامة للسلوك الانساني و ذلك عن طريق دراسة كل جوانب السلوك الانساني و ليس كما يفعل المتخصص في علم الاجتماع من خلال عينة أو نماذج محددة من الجماعة. كما و ان الانثروبولوجي ينظر الى الانسانية ككل و لا يحدد نفسه في دراسة ثقافية واحدة، و يرى أنه من الضروري لكي يصل إلى فهم اعمق للسلوك الانساني عليه ان يدرس الإنسان في كل مكان.

٤- لودفيج فيورباخ ك لودفيج أو لودفيج أندرياس فيورباخ (١٨٠٤ - ١٨٧٢ م) عالم ألماني ، ولد في مدينة لاندسهوت بولاية بافاريا الألمانية ، في البداية كان تلميذاً لهيغل ، ثم أصبح من أبرز معارضيه .

١: رادكليف براون : (١٨٨١ - ١٩٥٥ م) عالم انكليزي ، تخرج من جامعة كمبرج ، درس على (هادن) و (رفرز) وتأثر به (دوركهايم) ، أضفى على مفهوم البنية الاجتماعية أهمية كبيرة في منهجه و ربطها بمفهوم الوظيفة .

إن الدراسات الانثروبولوجية امتدت إلى دراسة كل الثقافات الانسانية الأخرى. فضلاً عن انها تركز على ميادين أخرى كثيرة كميدان ثقافة الانسان في مرحلة ما قبل التاريخ باعتبار أن دراسة هذه المرحلة هي اساس دراسة الثقافات الانسانية المختلفة.

إن علم الإنسان الإجتماعي يعدُّ من الفروع المهمة من فروع علم الإنسان، و هذا الفرع يتعامل مع الإنسان بإعتبار أنه عضو في جماعة إنسانية، و أنه اجتماعي بطبعه لا يستطيع أن يعيش منعزلاً عن الآخرين إلا في حالات المرض النفسي الخطير، و المرض العقلي، أو في حالات السجن الانفرادي على سبيل المثال.

تختلف الجماعات التي ينضم إليها الإنسان فمن خلال وجوده داخل هذه الجماعات، نراه يُكوّن علاقات اجتماعية يمكن تقسيمها على شكل نظم اجتماعية و أنساق اجتماعية أكبر. و التي يمكننا أن نتعرف عليها عندما ندرس الجماعات الإنسانية المختلفة دراسة مركزة، و هذه الدراسة ستساعدنا على فهم مكونات البناء الاجتماعي لهذه الجماعات الإنسانية المختلفة.

هنا يمكن أن نذكر أهم أهداف (الأنثروبولوجيا الاجتماعية) كعلم في ثلاثة أهداف رئيسية هي :

- ١- تحديد نماذج عالية للابنية الاجتماعية.
- ٢- تحديد مظاهر التداخل و الترابط بين النظم الاجتماعية.
- ٣- تحديد عمليات التغيير الاجتماعي.

أهم فروع الأنثروبولوجيا الاجتماعية: علم الأقوام والجماعات (الأنثوغرافيا)

إن علم الأقوام والجماعات، أو ما يسمى بـ (الأنثوغرافيا) (Ethnography) يراد به : الدراسة الوصفية و التسجيلية للمجتمعات و الشعوب و حضاراتها و اسلوب حياة شعب من الشعوب، أو مجتمع من المجتمعات ، و يسمى بـ (علم الأقوام) و (الجماعات). و يدرس تأثير الثقافات بعضها ببعض بفعل الاحتكاك ، و الاتصال.

فالأنثوغرافيا : يراد بها جمع المعلومات الوصفية حول مختلف جوانب الحياة الثقافية و الاجتماعية للجماعات الانسانية المنحدرة تاريخياً و المميزة لغوياً و عرقياً. فهدفها فقط تسجيلي دون تخيل لهذه الثقافات أو عقد المقارنة بينها و بين الشعوب الأخرى.

أما المنظور الأنثوغرافي : فالمراد به هو توظيف التوجه الأنثروبولوجي الميداني لفهم واقع الجماعات و الشعوب.

ف(الأنثوغرافيا يمكن تشبيهها بالصورة الفوتوغرافية الناتجة عن عدسة الكاميرا التي تتعامل مع القبح و الجمال في إطار الحقيقة بدون تفريق أو تمييز، بعكس مخيلة الفنان الرومانسي الذي يرسم الجمال و يتحاشى القبح)^١.

لقد ظهرت كلمة (انثوغرافيا) للمرة الأولى عام (١٧٧٢ ميلادي) لدى المؤرخ الألماني (شلاتزر) لكي تُعرف عن منهج (ليني)^٢ لدراسة تاريخ الشعوب الخاص.

^١ : الشخصية العربية و مقارباتها الثقافية ، قيس النوري ، ص ١٩ .

^٢ : نسبة إلى عالم الطبيعة السويدي كارل فون ليني ، الذي قام بتصنيف لأنواع النبات و الحيوان من خلال تحديد مزدوج يتميز فيه الكائن الحي بنوعه و جنسه .

يتحدد المعنى اللفظي لاصطلاح (الأثنوغرافيا) بالكتابة عن الأجناس، فكلمة (أثنو) تعني جنس، و كلمة (غرافيا) تعني كتابة. و تقتصر الدراسة في الأثنوغرافيا على الناحية الوصفية للحضارات، فمهمة الباحث الأثنوغرافي فيها هو جمع البيانات دون تقديم تفسير أو تحليل لها، أي تقتصر على وصف حضارة ما دون تعليق عليها.

فروع الأثنوغرافيا

إن للأثنوغرافيا فروعاً متعددة تتصل بما تدرسه و من أهم هذه الفروع هي :

دراسة انثروبولوجيا القرابة

و يتم دراسة انثروبولوجيا القرابة دراسة اثنوغرافية من خلال عدة أمور و التي منها :

أولاً - فهم طبيعة القرابة : و يتحدد أحد معانيها في ضوء العوامل البيولوجية، مع عدم انفكاكها عن كونها ظاهرة سوسيولوجية ترتبط بالظواهر البيولوجية.

و المجتمعات تختلف و تتباين في فهم طبيعة القرابة، و ما العلاقات البيولوجية الا نقطة بدء لظهور المفاهيم السوسيولوجية للقرابة التي تتصف بتعددتها و تنوعها و حتى تباينها.

ثانياً - معرفة نطاق القرابة : و هو امتدادات القرابة بما يتجاوز الأب و الأم إلى امتدادات سوسيولوجية تتمحور في نطاق (القبيلة) على سبيل المثال.

و تعد القرابة نظاماً اجتماعياً فائق الأهمية عند كثير من الشعوب، و تعتبر (مصطلحات القرابة)^١ هي أساليب التخاطب العادية بين الناس.

ثالثاً : أسس التصنيف القرابي : و قد يتجاوز (القبيلة) و الذي يُمهد له بـ(الزواج) عن طريق التقارب من (قبيلة) أخرى^٢.

^١ : (ك، عم ، خال ، قريب ، و هكذا) .

^٢ : على سبيل المثال .

و تكاد كل المجتمعات تميز بين القرابة (الدموية) و قرابة (المصاهرة).

رابعاً : أنواع الجماعات القرابية : إن في جميع المجتمعات الإنسانية توجد جماعات يرتبط أعضاؤها برابط القرابة و من أهم تلك الجماعات :

أ - الأسرة النووية : أو (الأسرة النواة)، أو ما يعرف بالجماعة الزوجية، و هي التي تتكون من الزوجين و الأبناء.

و تعرف بالأسرة الأولية، أو البسيطة المكونة من الأبوين و أبنائهما سواء أكانوا يعيشون معاً أم لا، و هي الوحدة الأساسية و الأولية للبنية الاجتماعية، و تتكون في هذه النواة الأولية رابطة (الأبوة) و رابطة (الأخوة)، و كذلك (البنوة).

ب - الأسرة النووية الممتدة : و تعرف أحياناً بالجماعة القرابية، و هي إمتداد للعلاقات بين الأباء و الأبناء عبر ثلاثة أجيال أو أكثر، فهي تضم الأجداد للأباء، و أجداد الأبناء و الأعمام و العمات و أبناء العم، كما و قد تكون قائمة على تعدد الزوجات.

ج - الأسرة المركبة : و تتكون من أسرتين نوويتين أو أكثر الرابط بينها هو خط الأب أو خط الأم.

و هي قائمة على تعدد الزوجات، أو تعدد الأزواج في بعض المجتمعات. فالمنزل الذي يضم رجلاً واحداً و زوجاته و أطفالهم يكون أسرة مركبة، و قد تتكون جماعة الأسرة من أرامل و مطلقات تزوجن للمرة الثانية و معهن أطفالهن من زيجاتهن السابقة.

د - الأسرة المشتركة : و توجد هذه الأسرة عندما يشغل إثنان أو أكثر من الأقارب في خط واحد و من الجنس نفسه و بمصاحبة الأزواج و الأولاد منزلاً واحداً و يخضعون للسلطة ذاتها.

هـ - العشيرة : و هي تتجاوز حدود عضوية الأسرة على الرغم من أن العامل الحاسم في الانتماء العائلي هو القرابة وحدها.

إن الوظائف المهمة التي تقوم بها الأسرة أنها تقوم بعملية الضبط الاجتماعي من خلال العلاقات الجنسية بين الذكور و الإناث و إنجاب الأطفال و تربيتهم وفقاً لفلسفة المجتمع و ثقافته، كما و أنها تقوم بتقسيم العمل و توزيع الأدوار على أعضائها و تحدد لهم التزاماتهم و حقوقهم الاجتماعية بما يحقق الاستمرار و التماسك، و لكن المشكلة أن وظائف الأسرة متغيرة و غير واضحة، لأنها تنظيم غير رسمي، و لا تخضع لتشريعات قانونية، و إنما داخل كل أسرة هناك حدود و إجراءات خاصة في إطار التنشئة الاجتماعية و يعد اختلاف وظائف الأسرة و وضع الرجل و المرأة بها من أهم مقومات التمايز بين المجتمعات الريفية و القبلية و الحضرية.

الزواج: دراسة سوسيوانثروبولوجية

الزواج هو تلك العملية الإقترانية، و الشراكة الحياتية التي تنشأ بين الذكر و الأنثى، بين امرأة و رجل يحصل بينهما توافق و تعاقد على أن يعيشا سوياً ليكونا أسرة، كما و يحرص كل منهما على تلبية حاجات الآخر، مضافاً إلى تعاونهما في سبيل العيش حياة هائلة و رغيدة.

في الحقيقة : أنه لمن العسير تحديد الفترة التي حدث فيها الزواج بما هو منظومة حياتية لها أسسها الخاصة بها.

و إذا استثنينا ما جاء في القرآن الكريم - و باقي الكتب السماوية - من سنة التزويج الأولى بين (آدم و حواء)^١، فإننا نجد بأن روايات أغلب الأمم و الشعوب تختلف في مسألة نشأة الزواج إذ أن الاعتقاد السائد بأن الزواج ليس قديماً قدم الإنسانية، بل إن هناك من يشير إلى كون (الشيوعية الجنسية)^٢ هي التي كانت سائدة بين البشر في بادئ الأمر، ثم جاء التنظيم لهذه العلاقة وفق أساس ما يراد به من كلمة (زواج).

فقد جاء في الملحمة الهندية المعروفة بإسم (مها بهارتا) أن النساء في بدء الزمان كن طليقات من كل قيد أو حد يسعين وراء ملاذهن دون أن يكون لأحدٍ عليهن من سلطان، و لم يكن في هذا الفعل أي معنى من معاني الإثم و الفجور إذ كانت هذه هي القاعدة السائدة في الأزمنة القديمة. و يقال : أن الملك (سوتيا كيتو) هو الذي أبطل هذه العادة، و فرض أن يكون الإخلاص هو القاعدة المتبادلة بين الزوج و زوجته^٣.

^١: ليس في القرآن الكريم ذكر لاسم حواء، لكنه أخذ من مصادر أخرى .

^٢: أي الشياع الجنسي، و الإباحية الجنسية .

^٣: عادات الزواج و شعائره، أحمد الشنتتاوي، ص ٨.

و قد جاء في الحوليات الصينية أن الإنسان البدائي كان لا يختلف عن الحيوان في حياته الجنسية و غيرها، فقد كان يهيم على وجهه في الغابات، و الاحراش، و كانت النساء في الوقت ذاته ملكاً للجميع، لذلك كان الولد لا يعرف أباه، بل كان ينتسب إلى أمه دون غيرها. و تذهب الأسطورة إلى أن الأمبراطور (فو - هي) قد قضى على هذه الشيوعية الجنسية، و سن الزواج^١.

و هناك أساطير أخرى مماثلة لهذه عند القدماء من المصريين و اليونان و من ذلك : ما كان يعتقد به البعض من القدماء المصريين من أن الملك (مينا) أول ملك وحد بين الوجهين البحري، و القبلي هو الذي سنَّ الزواج في مصر القديمة. كما كان يعتقد الإغريق أن الملك (ككرويس) اليوناني هو الذي سن الزواج في بلاد اليونان أي أنه أول من جمع الرجال و النساء في رابطة زوجية بعد أن كانت الفوضى الجنسية هي السائدة في تلك البلاد... و الأساطير و إن كانت تبصرنا بنفسية الجماعات إلا أنها قلما تزودنا بمادة يمكن الاعتماد عليها عن تطور النظم الاجتماعية، و هذا يصدق بنوع خاص إذا كانت مثل هذه الأساطير قد اخترعت متمشية مع طبيعة الدين البدائي^٢.

و لو لاحظنا الزواج عبر القرون السالفة، و حتى يومنا هذا و في جميع المجتمعات، و حتى ما يمكن أن نسميها بالمجتمعات البدائية منها، لرأينا - و من حيث الشكل العام - أنه يحافظ على العملية الإقترانية بين الذكر و الأنثى، فالرجل زوج و قرين، و المرأة زوجة و قرينة، و كلاهما يُنشئان بيت الزوجية،

^١ : عادات الزواج و شعائره ، أحمد الشتتاوي ، ص ٩ .

^٢ : المصدر السابق ، ص ١٠ .

و يكوّنان أسرة، و يحافظان على امتداد النسل البشري.

لكن، و من منظور آخر فإن تفصيلات الزواج، و خصوصياته، و ما يتعلق به تختلف من مجتمع إلى آخر تبعاً لإختلاف العادات الاجتماعية و القبلية، و الطقوس، و الأديان، و المجتمعات، و ينشأ هذا الأختلاف غالباً من الإختلاف في نظرة الرجل إلى المرأة، من تقديرٍ عن البعض، و تحقيرٍ عند آخرين، و تقييدٍ عند جماعة، و إباحيةٍ عند جماعة أخرى.

إن المصادر التاريخية تتحدث عن عادات مختلفة حول الزواج كانت سائدة بين الجماعات و في ظروف متعاقبة. و لقد جاء الدين الإسلامي وسط هذه الفوضى لينظم للرجل و المرأة هذه المرحلة - المهمة - التي يمر بها كل زوجين تشاء الصدفة أن تجمع بينهما ليتعاونوا على بناء البيت الزوجي. و لم يقتصر النظام الإسلامي على تنظيم الزواج من حيث الوصف فقط، بل و حتى التعدد في الإقتران. و على هذه الأسس يبني الإسلام هيكل المجتمع العام، لذلك كانت التعاليم الشرعية متجهة إلى الزواج بشكل خاص، لأنه اللبنة الأولى في بناء المجتمع.

القرآن الكريم: ومؤسسة الزواج

هنا سنتعرض لحقيقة الزواج من خلال إستعراض آيات القرآن الكريم التي تعرضت له. فإن الزواج قائم على عدة أمورٍ مهمةٍ منها :
أولاً : فهم معنى الزواج :

من خلال فهم أسسه، و حقيقته، و كل ما يتعلق به فالزواج هو : (عبارة عن مجموعة من الانماط الثقافية لاقرار الأبوة و تهيئة الأساس المستقر للعناية بالأطفال و تربيتهم. فالزواج هو بالفعل الوسيلة الثقافية الأساسية لضمان استمرار الأسرة و الجماعات الأخرى القائمة على القرابة)^١.

و لو جئنا إلى فهم معنى الزواج نقول : هو الإسم من التزويج.
و يراد منه عند أهل اللغة : الإقتران، و الإرتباط. و كل شيئين إقترن احدهما بالآخر فهما زوجان من غير فرق بين أن يكون الشئان من شكل واحد، أو متناقضين فهما زوجان، و كل واحدٍ منهما زوج. فإذا قيل : زوج الشيء فقد قرنه بالآخر^٢.

و الزواج عند الفقهاء : هو عقد تحل به العشرة و كافة الإستمتاعات بين الرجل و المرأة طبقاً لشروط أملتها الشريعة المقدسة لابد من توفرها في هذه العملية الإقترانية.

أما الزواج في الإصطلاح فهو لا يخرج في المصطلح عن كونه عقداً تُحلُّ به العشرة والاستمتاعات كافة بين الرجل والمرأة، طبقاً لشروط أملتها الشريعة المقدسة لابد من توفرها في هذه العملية الإقترانية، وهو أضيق دائرة

^١ : مقدمة في الانثروبولوجيا الاجتماعية ، مجموعة مؤلفين ، ص ٣٨٥ .

^٢ : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (زوج) .

من التعريف اللغوي حيث يطلق على أي اقتران وارتباط بين متشاكليين أو متناقضين^١، والزواج عقد يتم بإيجاب وقبول بين رجل وامرأة راشدين يحفظان عليهما عفافهما وصلاحيتهما على أن يقع الإيجاب من المرأة الخالية من موانع النكاح، والقبول من الرجل، مع تسمية المهر عند العقد^٢. و سماه الله تعالى في كتابه المجيد باسمين: النكاح والتزويج، وفي هذا دلالة على أنه لا يجوز إلا باسم الزواج والنكاح^٣.

أما في القرآن الكريم فقد تكررت مادة (زواج) في أكثر من آية قرآنية، والتي أريد منها معانٍ ك: الاقتران المطلق، أو المشابهة، و المشاكلة، أو الصنف، و النوع، و غير ذلك.

قال تعالى: ((وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً)) سورة النحل الآية (٧٢).

و قال تعالى: ((وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)) سورة الروم الآية (٢١).

و قال تعالى: ((خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً)) سورة النساء الآية (١).

يقول الراغب الأصفهاني: (يقال لكل واحدٍ من القرينين من الذكر و الأنثى... زوج...)^٤.

^١: الزواج في القرآن و السنة ، عز الدين بحر العلوم ، ص ٤٧ .

^٢: الأسرة في الشرع الإسلامي ، عمر فروخ ، ص ٧٨ .

^٣: الأم ، محمد بن إدريس الشافعي ، ج ٣ ، ص ٢٧١ .

^٤: المفردات ، الراغب الأصفهاني ، ص ٣٨٤ .

ثانيا : فهم قواعد الزواج (المحرمات) و (المحلات) :

على الرغم من كون الزواج - في نفسه - يخلق بعض روابط القرابة، إلا أن هذه الروابط تكون مختلفة عن العلاقات القرابية الأخرى و التي تربط الأفراد بالأسر التي ولدوا و تربوا فيها، و التي تعرف بـ (القرابة الدموية). أما الزواج فيربط الأفراد عن طريق (المصاهرة) سواء كانت في داخل الأسرة الكبيرة نفسها (الأقارب)، أو من خارجها (الأغراب).

تكفل ثقافة كل مجتمع بعض الوسائل الخاصة بتنظيم الزواج بين الأقارب الدمويين بحيث لا تؤدي علاقات الزواج بين أفراد الجماعات الأسرية إلى تعكير صفو الانسجام و التعاون داخل الأسرة الواحدة قدر الإمكان. و من هذه الوسائل ما يسمى بـ (قواعد التحريم) كتحریم الزواج بالمحارم، من خلال تحريم قيام علاقات زوجية بين بعض فئات الأقارب الدمويين، و الاقتصار على قيام العلاقات الزوجية (الزواج) بين أفراد معينين من الأقارب فقط.

ففي الثقافة الإسلامية نجد أنّ هناك محرمات في الزواج يجب الاجتناب عنها، إذ لم يكن الإقتران بكل صوره جائزاً في الشريعة الإسلامية، فقد أقرت الشريعة الموارد التي يجوز فيها الإتصال، بينما منعت منه في موارد يتعرض لها الفقهاء و فيها يحرم الزواج بين الرجل و المرأة، و قد ذكروا موارد التحريم و قسموه بحسب تقسيمات معينة، و وضحوا كل ما يتعلق به وفق القواعد القرآنية التشريعية، و التي هي :

أولاً - تحريم الزواج بالمشركات :

قال تعالى : (وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرَكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ) سورة البقرة الآية

ثانياً - تحريم الزواج من المقيمات على الزنا :
قال تعالى : (وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ) سورة النور الآية (٣).

ثالثاً - تحريم الزواج بزوجة الأب :
قال تعالى : (وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ
كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا) سورة النساء (٢٢).

رابعاً - تحريم الزواج بقربة النسب من الأصناف التي ذكرها القرآن
الكريم وهي :

قال تعالى : ((حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ
وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ
مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ
اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ
أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ
فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ
بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا *)) سورة النساء الآيات (٢٣) —
(٢٤).

فلقد أورد القرآن الكريم المحرمات بالتحريم النسبي وهي تسعة

أصناف : (١- الأم و أن علت، - ٢- البنت، - ٣- بنت البنت و أن نزلت، - ٤- بنت الأبن و أن نزلت، - ٥- الأخت، - ٦- بنت الأخت و أن نزلت، - ٧- بنت الأخ و أن نزلت، - ٨- العمة فصاعداً، - ٩- الخالة فصاعداً).

خامساً - وهناك تحريم سببي و هو : كالتحريم بسبب الرضاعة، فالإسلام يحرم بسبب الرضاعة ما يحرم النسب :
قال تعالى : ((وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ))
سورة النساء، الآية (٢٣).

و هناك محرمات أخرى سببية هي : (١- النسب (الدم)، ٢- المصاهرة (الاسباب)، ٣- اتمام العدد، ٤- اللعان (الملاعنة)، ٥- الكفر، ٦- المعقود عليها في العدة، ٧- المزني بها ذات بعل، ٨- المفوضة مع الدخول).

ثالثاً : فوائد فهم قواعد (التحريم) :

قال تعالى : ((يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا *)) سورة النساء، الآيات (٢٦) - (٢٨).

ليس لكل شيء تشريعي سبب أو علة معينة، فمن الوارد أن يأتي الأمر لمجرد تقييم و معرفة مدى طاعة البشر لله تعالى، إذ لابد من تنفيذ الأوامر الإلهية من دون البحث عن أسبابها و عللها و غاياتها، فمجرد كونها أوامر إلهية يكفي ذلك لتنفيذها بلا أدنى تردد و من دون أي مناقشة تذكر.

قال تعالى : ((قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)) سورة الأنعام، الآية (١٤٩).

(و أما سائر أصناف النساء المحرم نكاحها و هي أربعة عشر صنفاً المعدودة في آيات التحريم، فإن الملاك في تحريم نكاحهن سد باب الزنى، فإن الإنسان - و هو في المجتمع المنزلي - أكثر ما يعاشر و يختلط و يسترسل و يديم في المصاحبة، إنما هو مع هذه الأصناف الأربعة عشر، و دوام المصاحبة و مساس الاسترسال يوجب كمال توجه النفس و ركوز الفكر فيهن بما يهدي إلى تنبه الميول و العواطف الحيوانية و هيجان دواعي الشهوة، و بعثها الإنسان إلى ما يستلذه طبعه، و تتوق له نفسه، و من يحم حول الحمى أوشك أن يقع فيه. فكان من الواجب أن لا يقتصر على مجرد تحريم الزنى في هذه الموارد، فإن دوام المصاحبة و تكرر هجوم الوسوس النفسانية و ورود الهم بعد الهم لا يدع للإنسان مجال التحفظ على نهى واحد من الزنى. بل كان يجب أن تحرم هؤلاء تحريماً مؤبداً، و تقع عليه التربية الدينية حتى يستقر في القلوب اليأس

التام من بلوغهنّ و النيل منهن، و يميّت ذلك تعلق الشهوة بهن و يقطع منبتها و يقلعها من أصلها... كما أن الإسلام سد باب الزنى في غير المحارم بإيجاب الحجاب، و المنع عن اختلاط الرجال بالنساء و النساء بالرجال، و لولا ذلك لم ينجح النهي عن الزنى في الحجز بين الإنسان و بين هذا الفعل الشنيع...^١.

^١: الجواهر النورانية، ابحاث تفسير الميزان، جمع رضوان سعيد فقيه، ص ٤٠٥-٤٠٦.

رابعاً : أنواع الزواج :

للزواج عدة أنواع، و هو بشكل عام أما محلل أو محرم، و لقد أورد علماء (الأنثروبولوجيا) عدة أنواع للزواج و التي منها :

١- الزواج الواحدي (Momogamy) و هو زواج رجل واحد بأمرأة واحدة.

٢- الزواج التعددي (Polygyny) و هو زواج رجل بأمرأتين أو أكثر و المعروف بتعدد الزوجات. و هناك في بعض المجتمعات ما يسمى بـ(تعدد الأزواج) (Polyandry) و هو زواج امرأة واحدة برجلين أو أكثر، و هذا النوع من الزواج يكون مستهجناً عند كثير من المجتمعات، و محرماً لدى الكثير من الديانات، و منها الدين الإسلامي الذي يحرم ذلك، بل يمنعه و يعتبره زنى محرم يوجب العقوبة و إقامة الحد الشرعي على مرتكبيه عمداً.

ظهر نظام تعدد الزوجات إلى جانب نظام الزوجة الواحدة، و يختلف تطبيق هذا النظام باختلاف تقاليد الجماعة و ظروفها الاجتماعية و الاقتصادية. فعند بعض الجماعات لا يحق لغير الرؤساء الزواج بأكثر من امرأة واحدة، و عند جماعات أخرى يحق للشجعان فقط أن يجمعوا بين عدة زوجات ذلك بأن يسبونهن من جماعات أخرى، و كثرة النساء عند هؤلاء تدل على الشجاعة و القدرة. و للأغنياء و الموسرين الحق بأن يتزوجوا ما شاءوا من النساء لقدرتهم على إعالتهم. أما الآخرون فلا يحق لهم أن يزيدوا على زوجة واحدة فقط.

لقد جاء الحكم في الشريعة الإسلامية بتعدد الزوجات - بالنسبة للرجل فقط - و حدده بأربع نسوة جمعاً، و قد ذكر ذلك القرآن الكريم :

قال تعالى: ((فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ))
سورة النساء، الآية (٣).

لكن الإسلام اشترط العدالة من قبل الزوج بين زوجاته.
قال تعالى: ((فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ
أَذْنَى أَلَّا تَعُولُوا)) النساء (٣).

و قال تعالى: ((وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا
تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُواهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا
رَحِيمًا)) النساء (١٢٩).

لقد أكد الإسلام و في مسألة (الزواج المتعدد) على فهم حقيقة هذا
الزواج، و ذلك من خلال :

أ - حلية تعدد الزوجات بالنسبة للرجل :

قال تعالى: ((فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ))
النساء (٣).

نعم، لقد (اتفق المسلمون على جواز نكاح أربع من النساء معاً و ذلك
للاحرار من الرجال، و اختلفوا في موضعين في العبيد، و في ما فوق الأربع،
أما العبيد فقال مالك في المشهور عنه : يجوز أن ينكح أربعاً، و به قال أهل
الظاهر، و قال أبو حنيفة و الشافعي : لا يجوز له الجمع الا بين اثنين فقط - إلى
قوله - و أما ما فوق الأربع فان الجمهور علة أنه لا تجوز الخامسة لقوله تعالى :
فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ. و لما روي عنه "
عليه السلام " انه قال لغيلان لما أسلم و تحته عشرة نسوة : أمسك أربعاً و فارق

سائرهن...)¹.

إن الإسلام لم يكن أول من شرع تعدد الزوجات، بل كان التعدد موجوداً في الأمم السالفة كلها تقريباً، فهو موجود عند الآثينين، والصينيين، والهنود، والبابليين، والآشوريين، والمصريين، وغيرهم.

بل لم يكن له عند كثير من هذه الأمم حد محدود، فمثلاً نجد أن شريعة (ليكي) الصينية قد سمحت بتعدد الزوجات إلى مائة و ثلاثين امرأة، و كان عند أحد أباطرة الصين القدماء نحو من ثلاثين ألف امرأة².

لقد وقع الجدل كثيراً في موضوع (تعدد الزوجات) وبالخصوص لدى المستشرقين، و منتقدي الدين الإسلامي فهم يقولون بأن (تعدد الزوجات) كانت عادة جاهلية قديمة، ومهينة لوضع ومكانة المرأة، فكيف يقر بها الإسلام ولا يدعو لمنعها، بل ان القرآن الكريم يؤكد عليها بقوله: ((فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ)).

في الحقيقة (إن في هذا التشريع إجابة لواقع الإنسان في فطرته، وصيانة للمجتمع دون تفشي الفساد فيه... فقد جاء الإسلام ليحدد لا ليطلق ويترك الأمر لهوى الرجل، فقد قيد التعدد بالعدل، وإلا امتنعت الرخصة. و لكن لماذا أباح هذه الرخصة ؟ إن الإسلام نظام للإنسان، نظام واقعي، إيجابي، يتوافق مع فطرة الإنسان وتكوينه، و يتوافق مع واقعه وضروراته، و يتوافق مع ملابس حياته المتغيرة في شتى البقاع و شتى الأزمان والأحوال. إنه نظام واقعي إيجابي يلتقط الإنسان من واقعه الذي هو فيه، ومن موقفه الذي هو

¹: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ابن رشد المالكي، ج ٢، ص ٤٤.

²: المرأة بين الفقه والقانون، مصطفى السباعي، ص ٧١.

عليه، ليرتفع به في المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة، في غير إنكار لفطرته أو تنكر، وفي غير إغفال لواقعه، أو إهمال، وفي غير عنف في دفعه أو اعتساف... فإذا استصبحنا معنا هذه الخصائص الأساسية في النظام الإسلامي ونحن ننظر إلى مسألة تعدد الزوجات فماذا نرى؟ نرى أن هناك حالات واقعية في مجتمعات كثيرة - تاريخية و حاضرة - تبدو فيها زيادة عدد النساء الصالحات للزواج، على عدد الرجال الصالحين للزواج. فكيف نعالج هذا الواقع الذي يقع و يتكرر وقوعه بنسب مختلفة؟ هذا الواقع الذي لا يجدي فيه الإنكار، أنعالجه بهز الكتفين؟ أو نتركه يعالج نفسه بنفسه حسب الظروف والمصادفات؟! إن هز الكتفين لا يحل مشكلة كما أن ترك المجتمع ليعالج هذا الواقع حسبما أتفق لا يقول به إنسان جاد يحترم نفسه ويحترم الجنس البشري. فلا بد إذن من نظام و لا بد إذن من إجراء...^١

إن الوقائع التاريخية تنقل لنا بأن السنن الدينية في العالم أجمع قامت على مبدأ تعدد الزوجات، كما ولقد كان للكثير من مؤسسي الأديان العديد من الزوجات إلا نبي الله عيسى (عليه السلام) فقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) في وصفه: ((لم تكن له زوجة تفتنه، ولا ولد يحزنه، ولا مال يلفته، ولا طمع يذله، دابته رجلاه، وخادمه يداه))^٢.

و الدين الإسلامي جاء ليحد من الفوضى في مسألة تعدد الزوجات، و ذلك من خلال تحديد و تقييد الرجل بما يستطيع الزواج به من النساء، كما و ألزمه بالعدل بين الزوجات بما يحفظ كرامتهن و عزتهن و إنسانيتهن.

^١: شبهات وردود حول القرآن الكريم، محمد هادي معرفة، ص ١٦٤ - ١٦٥.

^٢: نهج البلاغة، الخطبة (١٦٠).

ب - حرمة تعدد الأزواج (جمعاً) بالنسبة للمرأة :

لقد وضع الإمام الصادق (عليه السلام) لسائله عندما سأله عن السبب في حبس المرأة على زوج واحد بينما جاز للرجل التعدد، إذ يجيبه الإمام (عليه السلام) قائلاً: ((لأن الرجل إذا تزوج أربع نسوة كان الولد منسوباً إليه. و المرأة لو كان لها زوجان، أو أكثر من ذلك لم يعرف الولد لمن هو إذ هم مشتركون في نكاحها، وفي ذلك فساد الانساب و المواريث، و المعارف))^١.

خامساً : معرفة أسس وقواعد الزواج :

للزواج أسس وقواعد لا بد من معرفتها لما بها من فائدة عامة و خاصة و التي منها :

١- الخطبة :

إن الزواج - غالباً - لا ينعقد بالمصادفة و لا بمجرد الرضا من الطرفين فقط، بل لا بد أن تسبقه و بحسب الضرورات العرفية مقدمات يكون القصد منها إتاحة الفرصة لكل من الطرفين لاستكمال هذه العملية الإقترانية. ذلك لأن الزواج قد يبلغ من الأهمية عند كثير من الناس بأن تؤخذ الموافقة عليه من قبل أطراف و أقارب كلا الزوجين، فما لم يوافق عليه لا يكتب له التوفيق و النجاح، و لهذا تأتي (الخطبة) لحلّ المشاكل المتوقعة و للإشهار العام قبل وقوع الزواج.

^١ : وسائل الشيعة ، الحر العاملي، ح ١ ، باب ٧ ، من ابواب ما يحرم باستيفاء العدد .

فالخطبة هي : أن يتقدم الرجل للمرأة - أو لأهلها - يطلب الزواج منها ليفسح المجال لها و لمن يتعلق بها في القبول أو الرفض ، و يستحسن - لو تمت الموافقة الأولية - أن يراها لكن من غير أن يجلس معها في خلوة محرمة. قال تعالى : ((وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْكُمْ سَتَدْرُكُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا)) سورة البقرة (٢٣٥).

(و يبدو من ملاحظة الظاهرة القرآنية صورة عن حياة الرجل و المرأة قبل الزواج، و ان الخطبة تعطي طابع الاتفاق المجرد عن عنوان العقدية اللازمة و ليست في نظره مرحلة من مراحل الزواج إلا أنه يفقده الاتصال الجسدي و انما الخطوبة تعبير عن الاتفاق الذي قد يحصل بعد الانسجام و التعارف... و يبدو من ظاهر الآية أنه يراد من الخطوبة الإعلان و عدم التكتُم حتى يطلع عليها الجميع لرفع احتمال الريبة و الحمل على السوء)^١.

واشترط الإسلام في الخطبة عدة شروط منها :

أ - أن تكون المرأة ممن يحل زواجها للرجل وقت الخطبة، فلا تصح خطبة متزوجة.

ب - كما لا تصح خطبة امرأة مطلقة لم تنته عدتها.

ج - وكذلك لا تصح خطبة امرأة توفى عنها زوجها دون إكمال

عدتها.

د - و يشترط في الخطبة أيضاً ألا تكون المرأة مخطوبة ولم يعلن رفض خطبة الخاطب الذي سبق إليها، لأن ذلك من شأنه أن يؤدي إلى النزاع

^١ : الزواج و الطلاق في رسالات السماء ، الشيخ محمد محمد طاهر آل شبير الخاقاني ، ص ٥٧ .

بين المسلمين^١.

قال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): ((الْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ فَلَا يَجِلُّ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَتَنَاعَ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ وَلَا يَخْطُبَ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ حَتَّى يَذَرَ)^٢.
والخطبة ليست ملزمة لأي من الطرفين، فللرجل أن يعدل عن خطبته إذا رأى ما يشين، و للمرأة أن تعدل عن قبوله كذلك، وذلك لأن حرية الزواج يجب أن تكون مكفولة لهما مما يجعل من الزواج في المستقبل يؤدي إلى حياة سعيدة و مثمرة.

و قد نظر الإسلام إلى هذه المسألة المهمة التي لا بد أن تقوم على حسن الاختيار، فنجد في آيات القرآن الكريم نهياً عن اختيار غير المؤمنة، و منع التزويج بالزانية، و هكذا.
و كذلك نجد في أحاديث المعصومين (عليهم السلام) مثل ذلك، تأكيداً على أهمية حسن الاختيار، لتدخل العامل الوراثي، و دوره في إنتاج النسل.

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ((إِخْتَارُوا لِنُطْفِكُمْ، فَإِنْ الْخَالَ أَحَدَ الضَّجْعَيْنِ))^٣.

و قال (صلى الله عليه وآله وسلم): ((إِيَّاكُمْ وَ خُضْرَاءَ الدَّمَنِ، قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَ مَا خُضْرَاءُ الدَّمَنِ. قَالَ: الْمَرْأَةُ الْحَسَنَاءُ فِي مَنَبَتِ السُّوءِ))^٤.

130

^١: تنظيم الإسلام للمجتمع، محمد أبو زهرة، ص ٧١.

^٢: صحيح مسلم، كتاب النكاح، رقم الحديث (٢٥٣٦).

^٣: وسائل الشيعة، الحر العاملي، باب ١٣، من مقدمات النكاح، حديث ٢.

^٤: المصدر السابق، حديث ٤.

و قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : ((إياكم و تزوج الحمقاء، فإن صحبتها بلاء، و ولدها ضياع))^١.

و قال الإمام الصادق (عليه السلام) : ((إنما المرأة قلادة فانظر ما تتقلد))^٢.

و عن الكرخي قال : قلت لأبي عبد الله الصادق (عليه السلام) : ان صاحبتني هلكت و كانت لي موافقة، و قد هممت أن أتزوج، فقال لي : ((انظر أين تضع نفسك، و من تشركه في مالك، و تطلعه على دينك و شرك))^٣.

و كذلك فإن للبيئة المحلية، و نوع السكن، و طبيعة الجغرافية، و نوع المناخ، دخلاً في بناء الطفل و تكوينه من حيث العادات و اكتساب التقاليد الأبوية المجتمعية، ففي ظل مثل هكذا جو يتكوّن الوليد، و بالتالي يعكس ما أكتسبه و تربى عليه.

نجد مثلاً أن العادات العربية القديمة كانت تقضي على أهل الحواضر بأن يدفعون أولادهم للمرضعات من أهل البوادي ليشب الطفل فصيحاً، كريماً، شجاعاً، و متعلماً لفنون الفروسية، و ما إلى ذلك من الصفات الحميدة في ذلك الجو الطلق.

٢-العقد (عقد الزواج) :

أي مرحلة التعاقد والزواج، وتمثل بداية الحياة الزوجية المشتركة.

^١ : المصدر السابق ، باب ٣٣ ، حديث ١ .

^٢ : الوافي ، ج ١٢ ، ص ١٦ .

^٣ : المصدر السابق .

وفي هذه المرحلة تتبلور أدوار جديدة يترتب عليها حقوق وواجبات متبادلة. وتمثل هذه المرحلة بداية تكوين الجماعة الاجتماعية الأولية (الأسرة)، حيث تبدأ العلاقة المباشرة بين الزوجين على كافة المستويات، جنسياً و نفسياً و اقتصادياً و عبادياً.

و الإسلام نظم هذه العلاقة بشكل متوازن، وجعلها ذات طابع تعاوني و إثاري، فحق أي منهما يعتبر واجباً لازم الأداء على الآخر. و الأصل في العلاقات الأسرية أن تقوم على التفاهم و المودة و الرحمة.

قال تعالى : ((وَلَا تَغْزُمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)) سورة البقرة (٢٣٥).

لقد قام الاجماع من جميع الفرق الاسلامية على وجوب العقد في (الزواج)، و لا بد من اجراءه بصيغة خاصة تقع من طرف الموجب و القابل.

و من ضمن صيغة (العقد) تحديد المهر، و المهر ليس بركن في العقد، و انما هو عقد في ضمن العقد، و لذا يصح العقد لو خلي عن الصداق.

فالرجل هو الذي يبحث عنها لتكون شريكة لحياته، و قد جرت

العادة على ذلك منذ أن عرف الرجل أن المرأة هي الجزء الذي يتم له حياته،

فكانت بذلك متبوعة و ليست بتابعة، و اذاً فهي المتاع الروحي يبحث عنه

الزوج ليقدم في سبيل الحصول عليه أغلى ثمن لو شاءت لنفسها ثمناً. و من

هنا جاءت فكرة المهر لأن المرأة ثمينة النفيس يقدم لها الرجل ما يتفقان عليه

من المهر ليكون ذلك رمزاً يعبر عن اعتزاز الرجل بها و تقديراً لموافقتها في

إلقاء قيادها اليه)^١.

و حيث كان الزواج عقداً يتحقق بين طرفين فلا بد لإنعقاده من مبررٍ و كاشفٍ له، لذلك و تبعاً للأدلة الخاصة من الأحاديث الكريمة فقد قالوا بأن الكاشف له هو : تحقق الإيجاب من أحد الطرفين، و القبول من الطرف الآخر ليحصل من مجموع ما تقدم ما يسمى بـ(العقد) أو التعاقد بين الطرفين. و قد صرح الامام الباقر (عليه السلام) عن قول الله عز و جل : ((وَأَخَذَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا)). فقال : ((الميثاق هو الكلمة التي عقد بها النكاح))^٢.

٣- مرحلة الحمل و الإنجاب و التوالد :

أما مرحلة الحمل و الإنجاب : فإن الإسلام وضع لها منهج متكامل، تبدأ من مرحلة انعقاد النطفة إلى مرحلة الحمل إلى الولادة فالرضاعة، ثم مرحلة الطفولة فالمرحلة و البلوغ. و لعل كل الأهمية التي أولاها الإسلام للأسرة في المراحل السابقة الهدف منها تهيئتها للقيام بالواجب الكبير الملقى على عاتقها، ألا وهو تربية أجيال صالحة يكون لها دور فاعل في بناء المجتمع و عمارة الأرض.

قال تعالى : ((هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ)) الأعراف (١٨٩).

و القابلية على الحمل هي الصفة المطلوبة في المرأة، لأن الغاية من

^١ : الزواج في القرآن و السنة ، السيد عز الدين بحر العلوم ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

^٢ : وسائل الشيعة ، الحر العاملي ، باب ١ ، من ابواب عقد النكاح ، حديث ٤ .

الزواج هو تواصل النسل الإنساني، و في ذلك يقول رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): ((تزوجوا الودود الولود)).

لقد أولت الشريعة الإسلامية المقدسة الاهتمام البالغ بتنظيم النسل و تكوين الاسرة التي تشدها الروابط الزوجية المتينة لتستقر الحياة و يحصل من جراء ذلك مجتمع صالح يقوم على أسس متينة تربط بين أفرادها الرحمة و الإنسانية، و تسوده الألفة و المودة.

و لا يمكن للطفل - كونه فرد جديد في المجتمع - أن يدخل هذه الحياة إلا عن الطريق المشروع الذي يُعبّده الزواج الشرعي، حيث يتقبله المجتمع عضواً جديداً فيه. و من هذه الجهة صار ابن الزنا مرفوضاً في المجتمع.

أما عن مرحلة الرضاعة فإن النصوص الشرعية عن المعصومين (عليهم السلام) تؤكد على أنه ((ليس للصبي خيرٌ من لبن أمه))^١.

و يقول الامام الباقر (عليه السلام): ((لا تسترضعوا الحمقاء و لا العمشاء، فإن اللبن يعدي))^٢.

^١: الوسائل ، باب ٧٨ ، ح ٥ .

^٢: المصدر السابق ، ح ٤ .

سادسا : الطلاق ما له وما عليه :

و الطلاق : هو إزالة العلاقة بين شخصين، و أحد مصاديقه هو ايجاد
الفرقة بين الزوجين. و كذلك يراد به : الترك، و الارسال.

(إنَّ وجود العلاقة الزوجية لا بد أن يقوم على أساس المحبة و الصفاء
و المودة و راحة الضمير و عدم الشقاء، فإذا تواجدت هذه الصفات كانت
المرأة سكناً إلى زوجها، كما أنه يكون سكناً لها و يحصل الاطمئنان و الراحة
فإذا انعكس الاتجاه و حصلت النفرة بين الزوجين فلا بد أن يتجه الزوجان
إلى مخلص من هذا الشقاء و إلا كانت الحياة في قلق و اضطراب عائلي
مستمر، و من باب اللطف و العناية الرحمانية منه سبحانه قد فتح باب الطلاق
حتى يكون كل فرد في مأمن من هذا العذاب كما قال سبحانه : الطَّلَاقُ
مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ، و قوله تعالى : وَإِنْ عَزَمُوا
الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، و قوله تعالى : فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ
بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ، و كل هذه الآيات تنادي بينونة الزوجية حيث
يريد الانسان الراحة و السعادة حتى لا يبقى كل من الزوجين في آهاتٍ و
حسرات)^١.

على الرغم من كون الزواج رابطة دائمة، فإنه من النادر أن نجد
مجتمعاً يوافق على أنها هذه الرابطة و تدميرها من حيث المبدأ، كما لا يوجد
مجتمع يشجع على الطلاق و إنهاء العلاقة الزوجية ببساطة.

إن كل المجتمعات - تقريباً - تدرك في الواقع أن هناك بعض الظروف
التي قد تختلف من مجتمع إلى آخر، و التي تجعل من المفضل إنهاء الزواج

^١ : الزواج والطلاق في رسالات السماء ، محمد محمد طاهر آل شبير الخاقاني ، ص ٣٣٨ .

بدل استمرار اخفاقه.

و تختلف الأسباب المعترف بها للطلاق اختلافاً كبيراً من مجتمع إلى آخر، وقد تختلف من فترة إلى أخرى، و من دين إلى آخر، و من تشريع إلى آخر، بحسب نوع، و طبيعة، و دين، و مذهب المجتمع.

و هنا يبين القرآن الكريم في آياته المباركة مسألة (الطلاق) و ما يتعلق بها، و ما يترتب عليها :

قال تعالى : ((يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا * فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا *)) الطلاق (١) - (٢).

و قال تعالى : ((أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَاتَّمَرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَمَنْعُكُمْ فَلَهُ أُخْرَى * لِئِنْفِقُوا ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا *)) سورة الطلاق (٦) - (٧).

و قال تعالى : ((وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبَعُولَتُهُنَّ

أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبُغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأُمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبُغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَغْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمَ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِيمَ الرِّضَاعَةُ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعُهَا لَا تُضَارُّ وَالِدَةُ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِضُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا

عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنُتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْكُمْ سَتَذَكَّرُوْنَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوْهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَغْرُمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوْهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ * لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوْهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوْهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ * وَإِنْ طَلَقْتُمُوْهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوْهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *) ((سورة البقرة (٢٢٨) - (٢٣٧)).

و قال تعالى : ((وَلِلْمُطَلَّاقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ)) سورة البقرة (٢٤١).

يقول الشيخ محمد عبده : (كان للعرب في الجاهلية طلاق و مراجعة في العدة، و لم يكن للطلاق حد و لا عدد. فإن كان لمغاضبة عارضة عاد الزوج و استقامت عشرته، و إن كان لمضارة المرأة راجع قبل انقضاء العدة و استأنف طلاقاً، ثم يعود إلى ذلك المرة بعد المرة أو يفيء و يسكن غضبه، فكانت المرأة العوبة بيد الرجل يضارها بالطلاق ما شاء أن يضارها، فكان ذلك مما أصلحه الإسلام من أمور الاجتماع)^١.

^١ : تفسير المنار، ج ٢، ص ٣٨١.

سابعا : وقفات مهمة :

وقفات على طريق البناء الأخلاقي الصحيح للمجتمع :

لا بد من الوقوف على الأسس الصحيحة لبناء المجتمع، و ذلك عن طريق التعرف على المضار التي تؤدي إلى زعزعة أسس البناء الإنساني الصحيح، و التي تخالف الطبيعة البشرية، بل التي تسير خلافاً للطبيعة و التي منها :

أولاً : الزنا :

إن الزنا الذي حرمه الله تعالى و الذي يستوجب فاعله الإثم و الحد و لا يلحق به الولد هو : (مواقعة المرأة بالمباشرة بوجه ظاهر الحرمة).
فقولنا (مواقعة) يخرج اللمس و العناق و الضم و القبلة فليس شيء منها زنا، و إن حمل الإثم و الذنب و الحرمة.

و قولنا (المرأة) يخرج اللواط، فليس بزنا، و إن حمل بعض أحكامه لأن من لاط غلاماً فأوقبه حرمت عليه أم الغلام كأم الزوجة و بنته كالريبة و أخته كأخت الزوجة، كما تحرم على من زنا بامرأة أمها و بناتها، و يخرج وطء البهيمة فليس زنا و إن كان فيه الإثم و الحرمة.

و قولنا (بالمباشرة) يخرج الجماع باستعمال الغلاف فإن في أهل (الخلاف) من يحله مع الأجنبية، أما عندنا معشر الإمامية فهو زنا واضح^١.

و قولنا (بوجه ظاهر الحرمة) يخرج النكاح الحلال بجميع أنواعه فإنه ليس زنا، حتى النكاح في الأديان الأخرى، فلو أسلم الزوجان الكافران أقر الإسلام زواجهما و إن لم يكن مشتملاً على عقد أو صداق إلا أن يكون

^١ : قيل : لا يقام به الحد لعدم التقاء الختانين .

فجوراً، وهو أن يتزوج إحدى محارمه في النسب.
يعتبر الزنا أكبر سبب هادم للعفة و المروءة و الطهارة، و ماحق للثروة
و للهيبة و لطيب العيش و رغد الحياة و الأمان.
قال تعالى : ((وَلَا تَقْرُبُوا الزَّوَاجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا)) سورة
الإسراء، الآية (٣٢).

لقد حرم الله سبحانه و تعالى الزنا و توعد عليه و زجر الناس عن
اقترافه لما فيه من الأضرار الوخيمة روحياً و جسدياً، و كذلك قد نهت
الأحاديث المباركة للمعصومين (عليهم السلام) عن ذلك و شددت على منعه.
إن شيوع الزنا يؤدي إلى اختلاط الأنساب و انهيار الأسرة و انتشار
الأمراض و الأوبئة، و طغيان الرذائل، و اندثار الفضائل.

لقد ورد عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه و آله و سلم) قوله : (يا
معاشر المسلمين اتقوا الزنا فإن فيه ست خصال، ثلاث في الدنيا، و ثلاث في
الآخرة، فأما التي في الدنيا، فذهاب بهاء الوجه، و قصر العمر، و دوام الفقر،
و أما التي في الآخرة، فسخط الله تبارك و تعالى، و سوء الحساب، و العذاب
بالنار)^١.

كما و قال (صلى الله عليه و آله و سلم) : (لا تزال أمتي بخير ما لم
يفش فيهم ولد الزنا، فإذا فشا فيهم ولد الزنا فأوشك أن يعمهم الله بعقاب)^٢.

و في حديث عن الامام علي بن أبي طالب (عليه السلام) يقول :
سمعت رسول الله (ص) يقول : ((في الزنا ست خصال : ثلاث في الدنيا و

^١: تفسير القرطبي، ج ٢، ص ١٦٧.

^٢: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، ج ١، ص ١٦٣.

ثلاث في الآخرة. فأما اللاتي في الدنيا ؛ فيذهب بنور الوجه، و يقطع الرزق، و يسرع الفناء. و أما اللواتي في الآخرة ؛ فغضب الرب، و سوء الحساب، و الدخول في النار، أو الخلود في النار^١.

أما المضار الصحية فبات في حكم المؤكد والقطعي أن الزنا يتسبب في كثير من الأمراض والأوبئة الفتاكة^٢. إن من جملة الأضرار التي يسببها شيوع الزنا ما يمكن أن نحصره في النقاط الآتية :

١- انتشار الأوبئة و الأسقام (النفسية و الجسدية) :

و هذا ما نسمعه يومياً من وسائل الإعلام عن الأمراض التي يتسبب بها الزنى من (إيدز) و (زهري) و (سيلان) و غير ذلك من أمراض كثيرة و عجيبة و صعبة العلاج، بل قد تكون معالجتها مستحيلة.

إن من أبرز الأمراض القاتلة التي ارتبطت بالسلوك الجنسي الشاذ هو مرض نقص المناعة المكتسبة (الإيدز) الذي تم اكتشافه سنة (١٩٨١ ميلادي) فقد شكل اكتشافه خطراً يضاف إلى الأمراض القاتلة الأخرى في العصر الحديث. و من المعروف أن هذا المرض يتسبب من خلال نوع من الفيروسات المعدية التي يُطلق عليها اسم (HIV) و هي اختصار لما يعني (فيروس العوز المناعي البشري). إذ أن هذا المرض يفقد الجسم القدرة على المقاومة للأمراض و ذلك لانهيأ أجهزته الدفاعية الطبيعية، و الذي من الممكن على إثره يتعرض الإنسان إلى الإصابة بالعديد من الجرائم

^١: تفسير مجمع البيان، الطبرسي، ج٦، ص ٤١٤.

^٢: الحب والجنس من منظور إسلامي، محمد علي قطب، ص ١٢٣-١٢٤، والنظام التربوي في الاسلام، باقر شريف القرشي، ص ١٠٦.

والفطريات القاتلة.

إن انتقال المرض من فرد إلى آخر يتم : إما عن طريق استخدام الإبر غير المعقمة، أو بواسطة نقل الدم، أو حمل الأم لابنها، أو عن طريق الشذوذ الجنسي و العلاقات الجنسية غير المشروعة.

٢- نزع البركة من الأموال :

فمن آفات انتشار الزنا هو نزع البركة للأموال، و شيوع البطالة، و قلة الدخل لما يستهلكه الناس في سبيل تحقيق رغباتهم و بلوغ شهواتهم من الزنا، فإن الزانية ليست كالزوجة تقنع بالقليل من زوجها، فالزانية لا تستجيب لرغبة قرينها إلا أن يحكمها في أمواله و ممتلكاته.

٣- ذهاب العفة و الحياء :

فمن آفات الزنا الوخيمة هو ذهاب العفة، فإن الزاني إذا اعتاد غشيان نساء الناس و بناتهم لم يشق عليه أن تُغشى نساؤه و بناته لانتزاع الحياء و العفة من نفسه.

نعم، لقد سرت في العالم الغربي فوضى الإباحية الجنسية، فلم تعد المرأة الغربية - مثلاً - تعرف معنى للعفة و الكرامة و الحياء و الأمانة، و لم تفقه بحكم تربيتها الحديثة أي مغزى أصيل لهذه الحياة سوى إشباع الرغبات و النزوات الجنسية الجامحة، و قد انتشر البغاء و التحلل و الإباحية انتشاراً فظيماً بما يندى له جبين الإنسانية، و بما تمقته الفطرة السليمة، حتى وصل الأمر إلى درجة أنه لم يعد ذلك الفعل أمراً قبيحاً ينكره المجتمع - الغربي - أو ينفر منه، بل قد تسالم على تشجيعه و إقراره و وضع القوانين من أجله ليكون مشرعاً قانوناً. ففسدت بذلك شؤون الأسرة و عمّها الاضطراب و الانحراف.

إن دعوة إباحة الجنس و إلغاء جميع القوانين و الأعراف التي شرعتها الأديان السماوية و النظم الاجتماعية في تحريمها للإباحة الجنسية لأنها تلحق الإنسان بقافلة البهائم والحيوانات التي لا تملك أي إحساس أو شعور بالشرف و الكرامة.

إن مثل هذه الدعوى لا تحتاج إلى دليل في أنها لا تصدر إلا ممن أفلس إفلاساً تاماً من جميع الأرصدة الإنسانية و الأخلاقية، و كان من ذوي العاهات^١.

٤- ضياع الأنساب (إلحاق الأولاد بغير آبائهم) :

فمن آفات الزنا الاجتماعية أن الزانية إذا حملت من الزنا فإما أن تهلك أولادها، أو تنبذهم عرض الطرقات ليكونوا لقطاع و تكون السبب في ضياعهم أو هلاكهم، و في كل أمر من هذه الأمور آثام كبيرة لا يحتمل جزاؤها يوم القيامة لأنه داخل في قتل النفس المحرمة. و إما أن تكون ذات بعل فتلحقهم ببعولها، فتفرض عليه ما لا يلزم به و تعطيهم من ماله ما ليس لهم فيه حق، و تسلطهم على نسائه بأنهن محارم لهم، و هن لسن بمحارم فينظرن و يباشرن ما قد حرم الله عليهن باعتقاد أنه حلال لهم، و في كل ذلك آثام بالغة الخطورة.

٥- خلق أجيال شريرة (فساد النسل) :

فمن آفات الزنا و أضراره فساد النسل و انتاج جيل شرير يكون بلاء على المجتمع و وباء على الأمة^٢. فابن الزنا عندما يعلم حقيقة نفسه سيولد ذلك في نفسه حقداً و غلاً على الناس كلهم باعتقاده أنهم ظلموه و غصبوه حقه و

^١ نظام الاسرة في الاسلام ، باقر شريف القرشي ، ص ١٢، النظام التربوي في الاسلام، ص ١٠٩.

^٢ : كجيل (داعش) على سبيل المثال .

أنهم يكرهونه و يبنذونه، فلا يكون له هم إلا في الانتقام منهم بالقتل و السلب و النهب ليستوفي حقه منهم^١. و إنما تسيء أخلاق أولاد الزنا و تنكر طباعهم لاشتراك الشيطان في تكوينهم.

قال تعالى : ((وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ مَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا)) الإسراء (٦٤).

٦- تسببه بتحريم الزواج الحلال :

فلقد اتفق الفقهاء على أن من زنا بامرأة حرمت عليه أمها و بنتها من غيره، فكأنها تحولت زوجة له. كما و قد اتفق العلماء على أن من زنى بذات بعل حرمت عليه مؤبداً حتى لو طلقها زوجها أو مات عنها.

(ما من أحد يطلق اسم " زنى " على التسايف الذي تمارسه الحيوانات دون تمييز، لأنها لا تتمتع بالوعي الذي تتمتع به الكائنات الإنسانية. و لهذا السبب، يمكن استخدام الكلمة " زانٍ " فقط لوصف الكائن الإنساني، لأنه المفترض أنه يتمتع بحرية الإرادة... فالدافع الأقوى للزنى عند الذكر هو عادة عدم الإشباع الجنسي، في حين أن الدافع المسيطر عند الأنثى هو الافتقار إلى الحنان. و لكن المنشأ الحقيقي للزنى، دون أدنى شك، يكمن في حقيقة كون الرجال و النساء غير مهئين للزواج، و بالتالي يصبحون أزواجاً سيئين من وجهة نظر تقنية... الزنى واحد فقط من الأوجه الكثيرة للنقص الإنساني، و أن

^١ : والتاريخ يذكر لنا حوادث قام بها أشخاص ، وقادة ، ورؤساء ، وحكام فظيعة ذلك لانهم أولاد زنا إذ أن الشر قد استحکم فيهم .

نحاربه باستخدام اللعنات الدينية و الأخلاقية هو مجرد حل مؤقت للشقاء
الفائق عند الإنسان العاقل...^١.

^١: أسس التعامل و الأخلاق للقرن الحادي و العشرين ، جون باينس ، ترجمة : أحمد رمو ، ص

ثانيا : العلاقات الشاذة (الشذوذ الذكوري) :

وردت في اللغة العربية الفاظ وعبارات كثيرة استخدمت في التعبير عن الشذوذ الجنسي، منها: اللواط، المساحقة، اتیان البهائم، جماع الأموات. وغير ذلك من الألفاظ التي تعبّر عن فعل واحد من أفعال الشذوذ، أما استخدام عبارة (الشذوذ)^١ الجنسي للدلالة على هذه الأفعال مجتمعة، فقد جاء مع الانفتاح الفكري في الغرب، و ما نتج عنه من علوم عنيت بتحليل بعض الظواهر الاجتماعية المنتشرة في المجتمعات و بيان أسبابها ونتائجها. و من هذه العلوم علم النفس الذي ساوى بين لفظة الشذوذ و الانحراف، و اعتبر بأن الشاذ أو المنحرف (هو الذي يمارس انحرافات أو صور نشاط تناسلي ليس في اتفاق مع الثقافة أو الأعراف العامة لمجتمعه أو دولته)^٢.

يعتبر الشذوذ الجنسي - عموماً - من أكبر العاهات و الأوبئة على الإطلاق و التي تؤدي إلى قطع النسل البشري، و إبادة، و مسخه.

ذلك أن الفاعل إذا زرع البذرة في غير محلها الصحيح فقد قضى عليها، فإذا وقع ذلك بشكل جماعي أي : اتفق كل أهل المنطقة على ممارسة الشذوذ الذكوري (اللطواط)، و اكتفى بعضهم ببعض، فإن النساء لن تفتأ أن تمارس الشذوذ الأنثوي و هو (السحاق) و بذلك ينقطع النسل البشري من تلك المنطقة - على سبيل المثال - و لا يؤمن أن تسري هذه النزعة إلى ما حولها من المناطق، فيعم البلاء.

قال تعالى : ((وَلَوْ طَأَّ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ

^١: الشذوذ في اللغة يدل على الانفراد والندرة ، انظر : لسان العرب ، ج ٣، ص ٤٩٤.

^٢: ذخيرة علوم النفس، كمال دسوقي، ص ١٠٦٥

تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ)) سورة الأنبياء، الآية (٧٤).
 وقال تعالى : ((أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ
 رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ)) سورة الشعراء (١٦٥) - (١٦٦).
 وقال تعالى : ((وَلَوْ طَآ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ *
 أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)) سورة النمل
 (٥٤) - (٥٥).

(هناك أشخاص ينحرفون بمجرى نشاطهم الجنسي فيستسلمون إلى
 علاقات ضد الطبيعة. و من بين هذه الانحرافات الجماع الشرجي الذي تزايد
 إلى حد بات معه يعتبر مجرد " تنويع جنسي " و سوي كأى جماع آخر. و
 يبدو أن نوعاً ما من " حمى دماغية " انتشرت لتقود أناساً إلى ممارسة الفعل
 الجنسي بأجزاء غير مناسبة من الجسد، و بهذا يعارضون الله و الطبيعة، اللذين
 زوداهم بقنوات صحيحة عضوياً للملازمة الجنسية... فإن الجمع بين العضو
 المذكور و الغائط هو مزيج قذر... إن الجماع الشرجي هو انحراف عن الطبيعة،
 و أنه رفض مخجل للمهبل و الرحم الأنثويين، تمارسه عقول مضطربة...)¹.

يعتبر وطئ الإدبار من أخطر الموبقات و الأضرار التي يجنيها الإنسان
 على نفسه، سواء كان - ذلك الموطؤ - إنساناً أم حيواناً، ذكراً كان أم أنثى، بما
 في ذلك وطئ الزوجة في دبرها، و سواء كان ذلك الفعل مع الزوجة محلاً أو
 محرماً أو مكروهاً عند الشرع، فإن حكمه حكم الارتماء في حفرة الكيف،
 فليس كل ما سكت الشرع عنه يعتبر حلالاً، فالدبر الذي منع الله تعالى إتيانه
 في الغلمان هو نفسه الذي في المرأة، و يحمل كل الصفات التي يحملها دبر

¹: أسس التعامل و الأخلاق للقرن الحادي و العشرين ، جون باينس ، ص ٢٦٥ - ٢٦٩ .

الغلام بما فيه من أقدار و أضرار.



ثالثاً : العلاقات الشاذة (الشدوذ الأنثوي) :

إن الزواج يقي الرجال من التورط في الزنا و الشذوذ الجنسي، كذلك هو يقي النساء من الفاحشة و من الشذوذ ايضاً.

إن المساحقة^١ في النساء هي قسيمة اللواط عند الرجال. فمن المعروف عند المؤرخين بأن الشذوذ الجنسي من اللواط و السحاق قد ابتدع عند الجنسين في وقت واحد، و مكان واحد، و عند أهل قرية واحدة، ألا و هم (قوم لوط).

و قيل ان السحاق ظهر عند (أصحاب الرس)^٢، و قيل عند (قوم ثمود)^٣.

إن المساحقة معصية كبيرة من أشد الكبائر و من أعظم المحرمات، و هي من أنواع الانحراف و الشذوذ الجنسي المخالف للفطرة الإنسانية السليمة. لم يذكر السحاق و حكمه الشرعي بشكل صريح في القرآن الكريم، أما في السنة فهناك أحاديث كثيرة تنهي وتحذر من عواقبه الدنيوية والأخروية.

فقد روي عن النبي الأكرم (صلى الله عليه و آله و سلم) انه قال : ((سحاق النساء بينهن زنى))^٤.

و قال (صلى الله عليه و آله و سلم) : ((لا ينظر الرجل إلى عورة

^١ : معنى السحاق: فعل النساء بعضهن بعض . والمراد به في أصل اللغة مطلق ذلك . ويعني في مصطلحنا اليوم (الشذوذ الجنسي عند النساء) .

^٢ : الجامع لاحكام القرآن ، القرطبي ، ج ١٣ ، ص ٣٣ .

^٣ : المصدر السابق .

^٤ : مستدرک الوسائل ، النوري ، ج ١٤ ، ص ٣٥٣ ، ح ١٦٩٣٧ .

الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة. ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد. ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد^١.

و المصيبة أنه و تحت مسمى (الديمقراطية) و (الحرية الشخصية) أصبح للشواذ من كلا الجنسين قوانين تحميهم في العالم الغربي.

بل، المصيبة الكبرى أنهم أصبحوا شريحة لا يستهان بها في عالمنا (العربي - الإسلامي) و بدأوا يطالبون بما يسمونه (حقوقهم)؟!

فالقانون البريطاني لم يعد يعتبر و منذ سنة (١٩٦٧ ميلادي) الشذوذ الجنسي فعلاً جرمياً ما دام قائماً بين اثنين راشدين، بالغين، و متفقين على ممارسة هذا الفعل. و كذلك فعلت كل من اسكتلندا، و شمال إيرلندا، و كندا، و نيوزلندا، و أكثر من نصف الولايات المتحدة الأمريكية^٢.

هذا و قد تم إقرار زواج الشواذ جنسياً في ست بلدان في العالم و هي : النرويج، هولندا، بلجيكا، إسبانيا، كندا، و ولاية ماساتشوستس الأمريكية.

تتعدد العوامل الداخلية التي تساهم في انتشار الفساد الأخلاقي بشكل عام و الشذوذ الجنسي بشكل خاص، و أول هذه العوامل تبدأ من الأسرة التي ينشأ فيها الطفل، و التي تساهم بشكل كبير في تكوين شخصيته و توجيه سلوكه. و ما نشاهده في بعض الأسر من تنشئة خاطئة تبدأ منذ الصغر تلعب دوراً كبيراً في عدم تقبل الطفل لهويته الذكورية أو الانثوية في المستقبل. و من نماذج هذه التصرفات - على سبيل المثال - قيام بعض الأهل بإطالة شعر أبنائهم الذكور، و السماح لهم باللعب بألعاب البنات و إلباسهم لباس الفتيات،

^١: صحيح مسلم، ج ١، ص ٢٦٦.

^٢: الشذوذ الجنسي عند المرأة، هدى الخرسه، ص ٥٢.

و كذلك تسمية البنات باسماء الذكور، و السماح لهن باللعب معهم في العابهم الخاصة التي تتسم في بعض الأحيان بالعنف. و إضافة إلى ذلك فإن تعرض الأطفال في صغرهم إلى التحرش الجنسي من قبل أحد أفراد العائلة أو من المقربين او المكلفين بحمايتهم له دور كبير في التحول إلى الشذوذ الجنسي.

هذا و يساهم المجتمع بدور كبير في تفشي هذه الظاهرة و قبولها، و يبدأ دور هذا المجتمع في المدارس و الجامعات التي تعتبر المصدر الثاني للثقافة الجنسية من بعد الأهل. و قد بدأت بعض هذه المدارس و نتيجة تأثرها بالموجة التغريبية، بتغيير سياستها التربوية، و بدأت الأصوات تعلو من أجل تدريس الشذوذ الجنسي في المدارس تحت راية الثقافة الجنسية، و حق الطفل بالاطلاع على جميع الممارسات الجنسية، على أن يختار هو ما يتناسب مع ميوله و توجهاته.

وقد بدأت هذه السياسات تظهر نتائجها على الأرض، حيث بدأت جمعية تسمى نفسها (حلم) بعقد حلقات نقاش في الجامعات اللبنانية للتعريف بحقوق المثليين¹.

هذا و لا يقتصر خطر المدرسة على المناهج التربوية فقط، بل إن وجود الاختلاط غير المنضبط في المدارس والجامعات قد ينعكس سلباً على شخصية كل من الذكر والأنثى، و كذلك التشديد في منع الاختلاط من دون

¹: فغير لبنان نجد أن حرية الأمريكان التي نشروها في افغانستان والعراق قد روجت لظهور الشذوذ والمثلية بوقت قياسي، كما وإن الدول تضح من إنتشار المثلية كالسعودية، والأردن، ومصر، بل كل الدول العربية بلا استثناء وبنسب خاصة بكل بلد.

وجود رقابة مدرسية وبيتية تحدّ من العوامل التي تساهم في انتشار هذا الفعل الشائن و المخالف لفطرة الإنسانية السليمة.

رابعاً : الجماع أثناء الطمث :

يعتبر الجماع أثناء الحيض من الأمور غير المستساغة شرعاً، و ذوقياً، فالجماع أثناء فترة الطمث سيعمل على دخول الجراثيم إلى الرحم الذي يكون أثناء الطمث مرتعاً خصباً للميكروبات.

قال تعالى : ((وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا النَّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)) سورة البقرة (٢٢٢).

(تستجيب دورة الطمث عند الأنثى إلى عملية التخلص من مغنطيسية جسدية قديمة مستنفذة، تحمل نبوضاً طاقية سلبية لفضلات خلوية ؛ وهي دورة الراحة الجنسية التي يجب احترامها بقدر ما تستجيب لمرحلة الاطراح و التجديد. فالنساء يتجددن كل شهر عن طريق طرد الفضلات الطاقية من خلال دم الطمث، الذي يختلف عن الدم العادي، لأنه مشبع بالمغنطيسية السلبية... فإذا كان الدم العادي ضمن التأثير الحيوي لإيروس (Eros) و أمكن اعتباره نقياً، فإن الطمث غير نقي، لأنه يحمل اهتزاز الموت، و الاستنفاد، و الفضلات. فالدم العادي يستجيب للجانب النير من القوة، في حين يستجيب دم الطمث للجانب المظلم منها... و في الواقع، يسبب الجماع أثناء الطمث حالات ضارة بشكل ملحوظ بالزوجين، لأن هذا الجماع، علاوة على أنه قذر من الناحية الأخلاقية، فإنه يؤدي إلى عملية خلق أساسها الرذيلة... فلو قيِّض للأطفال أن يتكونوا يدوياً من قبل الآباء من مواد شتى، كما يصوغ النحات جسداً،

لطرحنا على نفسي السؤال التالي : من يريد أن يكون بمثل هذه الدرجة من قلة الذوق فيخلق شيئاً من مادة نفاية ؟...^١.

^١: أسس التعامل والأخلاق للقرن الحادي والعشرين ، جون باينس ، ص ٢٦٩ - ٢٧١ .

الأنثروبولوجيا الاجتماعية والاستيطان: نشأة المدن والتجمعات السكانية

إن نشأة المدن و التجمعات السكانية من الظواهر المهمة في حياة الإنسان كونها تعكس الطبع الاجتماعي لهذا المخلوق، سواء أكان طبعه الاجتماعي هذا مرتبط بالحب أو بالكره.

و تبين الدراسات التاريخية و الآثارية أن أول التجمعات السكانية المستقرة قد ظهرت على سواحل البحار و كذلك على ضفاف الأنهار، و كانت هذه التجمعات في البداية حول مصادر المعيشة، و حول المراكز الدينية، فكانت في البداية كقرى متفرقة، ثم انبثقت المدن عن تلك القرى البسيطة، و قد ظهرت و تكونت المدن نتيجة تطور القوى العاملة المنتجة التي عملت في الحرف المختلفة¹.

كما و لقد اختلط العمل المهني في أماكن التجمعات بالاستثمار الزراعي، لذلك كانت المدينة مركزاً زراعياً و حرفياً و تجارياً بالإضافة إلى كونها مركزاً دينياً و إدارياً.

إن نشأة و تطور المدن من القرى قد ارتبط بطبيعة و نوع المساكن (البيوت) التي كان الإنسان يسكن فيها، فلا يمكن أن نعتبر أن أول المدن قد تكونت من الكهوف، أو في المناطق الجافة، أو في المناطق البركانية.

ذلك ان شرط نشوء المدن هو تمتعها بنوع من الاستقرار، إضافة إلى سبب للبقاء، و مصدر للعيش، و قدرة على التطور و التكاث، مع إمكانية الصمود أمام التقلبات و الأخطار الطبيعية و البشرية.

و لقد أبدعت موهبة الاختراع البشرية تنوعاً هائلاً لأشكال البيوت

¹: (ك) استخراج المعادن وتصنيعها، وأعمال البناء، وصناعة الأنسجة والملابس، وغيرها).

ولدتها ظروف مراقبة التقلبات المناخية و الإمكانيات الجغرافية. فمثلاً نجد أن المساكن الواقعة قرب البحيرات و المستنقعات قد شيدت فوق أعمدة أو عوازل معينة. فالبيوت هي محل للسكنة و الاستقرار النفسي :

قال تعالى : ((وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا)) سورة النحل (٨٠).

و كذلك هي محل للشعور بالأمن و الاستقرار من الطوارق و الاخطار:

قال تعالى : ((وَكَانُوا يَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ)) سورة الحجر

(٨٢).

إن الإنسان عندما بدأ بكتابة تاريخه، و حين بدأ عصر الثقافات الراقية، فإن مجموعات كبيرة من القبائل اتحدت معاً لتشكيل مجتمعات تتجاوز مفهوم القرية. ساعد على ذلك أدوات العمل التي اخترعها الإنسان و طورها على استخدام الحجارة المطروقة كمادة لبناء المساكن و المنشآت العامة فنشأت المدينة.

لم تكن الأبنية و النصب الضخمة مجرد شواهد على السلطة و الغنى، بل أيضاً على متانة البناء الذي استطاع الصمود عبر القرون، و ما بقي منها لحد الآن إلا شاهد و عبرة على ذلك.

قال تعالى : ((وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُم مِّنْ مَّسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمْ

الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)) سورة العنكبوت

(٣٨).

و قال تعالى : ((وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفْلا

تَعْقِلُونَ)) سورة الصافات (١٣٧) - (١٣٨).

إن المدن تتصف بكونها أماكن مركزية تقوم بتقديم خدماتها

ووظائفها لسكانها فضلاً عن سكان الإقليم، ومن هنا فهي تعبّر عن أهميتها الاجتماعية والاقتصادية ضمن إطارها الإقليمي، ويمكن التعبير مورفولوجياً من تلك المعالم الجغرافية التي تحدد الهوية الوظيفية للمدينة بمظهرها وهو الكل المرئي منها خطة المدينة ونمط أشكال الأبنية ونمط قطع الأراضي التي تعمل بصيغته متفاعلة وذات رباط وثيق وعلاقة عضوية جدلية تؤكد الحقيقة الجغرافية لذلك المظهر العام. كل ذلك وفقاً لطبيعة العوامل والمتغيرات التي أسهمت في تشكيلة طبقاً لطبيعة المرحلة اقتصادياً واجتماعياً وحضارياً وتقنياً وطبيعة التحولات و المتغيرات ضمن سلسلة التراكم الحضري (تاريخياً).

إن البحث في مورفولوجيا المدينة - أي مدينة - إنما هو خوض وظيفي ومكاني لإعطاها هويتها وتحديد ملامحها كحقيقة جغرافية، ومن ذلك طبيعة التفاعل بين (الوظيفة) و (الشكل) اللذان هما عاملان غير متشابهين، إذ غالباً ما تكون العلاقة بينهما معقدة وصعبة الفهم عبر مراحل تطور المدينة. لقد وضعت تفسيرات عديدة لنشأة المدينة، كانت الأولى منها تدور حول قضية حفظ الكيان الإنساني من الأخطار الطبيعية والبشرية، تبعها بعد ذلك تفسير تجاري لنشأة المدينة هو في حقيقته تفسير قائم على وجود التجمع الأول الذي أشرنا له، إذ لم يخرج عنه، بل هو متفرع عنه.

فمثلاً (إن التفسير العسكري لأصل المدينة يمتُ بصلة كبيرة إلى التفسير السياسي، ذلك التفسير الذي يبيّن أن الناس، من تجار و حرفيين، كانوا يجتمعون في هذه الحصون والقلاع لأجل حماية أنفسهم و تجارتهم من خطر الغزوات والهجمات. و مرور الزمن تتزايد أهمية ذلك الموضوع بزيادة

حجم التبادل التجاري فيتحوّل إلى مدينة. و المدينة السياسية عند أنصار التفسير السياسي تُعدّ من أقدم أنواع المدن و أكثرها وضوحاً^١.

أما تعريف المدينة فقد وقع الاختلاف فيه أيضاً عند المتخصصين أنفسهم (فما الذي يعنيه هؤلاء بالمدينة ؟ فمن بين التحديدات التي توصّل إليها المتخصصون الذين يميلون إلى نظرية السكان و العوامل الاقتصادية التعريفات الثلاثة الآتية :

١- المدينة هي المكان الطبيعي للفرد المتمدن المتحضر و ذلك لأنها تمثل رقعة حضارية خاصة.

٢- المدينة هي أي مكان مستقر ينشغل فيه أكثرية شاغليه بأنماط إنتاجية غير النمط الزراعي.

٣- المدينة هي أي مكان محدد من الأرض يجتمع فيه الناس من مختلف الأجناس. و أن تكون نسبة تجمعهم كثيفة^٢.

و لقد حدد الباحث الاجتماعي (فيليب هوسر) جملة شروط و خصائص لتحديد وضعية مكان ما من الناحية التمدنية و شروطه هي : توافر الكثافة في حجم السكان، و التقدم التكنولوجي، و مدى الإمكانية في السيطرة على الظروف الطبيعية، و تطور المؤسسات الإنتاجية و الاقتصادية و السياسية^٣.

على أن الأمر و بشكل عام لم يكن بعيداً عن فكر العلماء المسلمين من جغرافيين و بلدانيين أو مؤرخين، فلقد كانت لهم نظرتهم العلمية الخاصة،

^١: Kenneth , Bolding : " The Death of the City : A Frightened Look at Past Civilization" in The Historian and the City , p.133.

^٢: دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية ، عبد الجبار الناجي ، ص ١٧ .

^٣: Philip Hauser : Urbanization : An Over –View in the Study of Urbanization ,p.102 .

كما و أنهم قد أسهموا في تحديد المعايير الخاصة لما يسمى بـ(المِصْر) أو (المدينة).

فمثلاً نجد أن العالم الجغرافي (المقدسي) قد وضح في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) شروط المدينة أو المِصر إذ يقول: إن المِصرَ في رأي الفقهاء يقصد به كل بلد جامع تقام فيه الحدود و يحله أمير و يقوم بنفقته و يجمع رستاقه. ثم يقول معقباً: أن المِصر كل بلد يحله السلطان الأعظم و يجمع فيه الدواوين و تقلد منه الأعمال^١.

و هذا ما نجده كذلك عند ياقوت الحموي في معجمه الجغرافي^٢، و عند ابن خلدون في مقدمته^٣.

^١: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، المقدسي، ص ٤٧.

^٢: معجم البلدان، ياقوت الحموي، ج ٤، ص ١١٤، ص ٤٢١، ج ٥، ص ٣٩٦، ص ٣٨٩.

^٣: المقدمة، ابن خلدون، ص ٣٤٧، ٣٦٠.

أسباب نشأة المدن في المنظور القرآني

لقد ذكرت أسباب عدة لنشأة المدن، و تكونّها، و تطورها، انطلقت و تنوعت هذه الأسباب بتنوع العلوم الباحثة في هذه النشأة. أما في إطار الأنثروبولوجيا الاجتماعية فقد ذكرت عدة أسباب لنشأة و تطور المدن أوردتها كتب الأنثروبولوجيا بشكل عام من غير أن تتطرق للتفاصيل.

و بما أن بحثنا يتعلق بالأنثروبولوجيا القرآنية، لذا سنحاول الوقوف عند مجمل الإشارات القرآنية التي وردت في الآيات المباركة حول جملة من أسباب نشأة المدن، و هذا لا يعني أن (نتعبد) بذلك، فالقرآن أورد ذكر الكثير من الأشياء من باب (المثال)، فهذه أعطاء العبرة هو هدف مهم يضاف إلى الهدف التشريعي الاساسي للقرآن الكريم.

قال تعالى : ((إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً)) النازعات (٢٦).

إن القرآن الكريم يورد لنا إشارات جميلة حول أسباب نشأة المدن، و يذكر لنا تنوع أسباب النشأة للتجمعات السكانية المكونة للمدن و أهدافها، و من تلك الأسباب يمكن ذكر ما يأتي :

١- أسباب دينية :

تعتبر الأسباب و العوامل الدينية من أهم العوامل التي جمعت الناس في مكان واحد من أجل هدف واحد ألا و هو (العبادة). فلقد كان للعامل الديني السبب الأساس و الرئيس في نشأة الكثير من المدن، و هو في التاريخ القديم أكثر منه في التاريخ الحديث.

لقد كان للمدن - من حيث التأسيس - صبغة دينية عند البابليين و الآشوريين و السومريين، و المصريين، بل عند كل الشعوب القديمة من (مايا)

و (ازتك) و في بلاد الهند و آسيا القديمة، و أفريقيا، و جميع الأصقاع الأخرى.

(ففي مصر كانت المدن تسمى بأسماء الآلهة، مثال ذلك بوصير و هي بيت الإله - أوزيرس - و بويسته بيت الإله يسط و ميرمانتو بيت الإله منتو و تون آمون - مدينة آمون - و في اليونان بدأت أثينا كمعبد للآلهة أثينا)^١. و عند السومريين أسست المدن للعبادة كمدينة نير ز اريدو، فالمدينة عندهم نطاق مقدس)^٢.

فنشأة المدينة متعلق بنوع الارتباط الحاصل بينها و بين الحدث الديني (الخارق) الذي تأسست من أجله المدينة بما له من انتخاب مكاني و فيزيوغرافي.

(فالمدينة الدينية تنشأ في الأغلب حول نواة صغيرة هي في الأصل صنم أو حجر مقدس أو ضريح أو قبر، و هذه النواة تكون أول مظهر لنشأة المدينة، فعندها تولد التجارة و الصناعة، و عندها ينشأ أول سوق للمدينة ثم تنمو أوجه النشاط الأخرى مع الزمن، و تجتذب المدينة السكان تدريجياً، و ينحصر كل النشاط المدني داخل هذا الإطار الديني الرئيسي، و بهذا الشكل استطاعت المدن الدينية أن تكون مراكز للتجارة و الصناعة و الثقافة بمرور الزمن)^٣.

أما لو جئنا إلى القرآن الكريم فإن هذا المعنى في نشأة المدن

^١: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، طه باقر، ص ١٦٧.

^٢: انتصار الحضارة، جيمس هنري برستد، ترجمة: أحمد فخري، ص ١٦٥.

^٣: العوامل التاريخية لنشأة و تطور المدن العربية و الإسلامية، مصطفى عباس الموسوي، ص

موجود، و سنستدل بآية مباركة لها مدخلة كبيرة في أهم ركن من أركان الدين الإسلامي، ألا وهو؛ (الحج) و الآية تتحدث عن إتخاذ النبي إبراهيم (عليه السلام) مسكناً له في مكان مقفر، عند (البيت الحرام) ثم عقب (عليه السلام) بالدعاء عسى أن يكون هذا المكان عامراً بالناس، و أن يكون مهوى للأفئدة.

قال تعالى: ((رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)) سورة إبراهيم (٣٧).

فعلى الرغم من عدم توفر مؤهلات العيش الرغيد في هذا المكان الصحراوي المقفر إلا أن السبب الديني كان له الدور الكبير في نشوء مثل هذه الحاضرة الكبيرة حول (بيت الله تعالى).

كذلك الحال بالنسبة للمدينة المنور (يثرب) فلقد (تحوّل اسم يثرب في الاسلام إلى المدينة و هو اسم علم و اسم نوع معاً. و قد كان المسجد أول بناء يقام في المدينة الإسلامية الجديدة، حيث أصبح مقراً للزعامة العربية الإسلامية و باعث النهضة فيها، و قد أضفت البساطة التي لزمّت العرب في الصحراء و البادية طابعها على المسجد في أول نشأته، كما أنه يعتبر بحق أول دعامة من دعامات الفن الإسلامي و أول أثر من آثار النهضة الإسلامية)¹.

لقد كانت جميع الأديان بشكل عام، و الدين الإسلامي بشكل خاص مشجعة على الحياة الحضرية، و حياة الاستيطان، و حياة الاستقرار، ناقدة لحياة (الأعراب) و لحياة (البداوة) التي أساسها عدم الاستقرار المكاني و الذي

¹ : Religion Deffontaines Pierre , Geography , p 147 .

يؤسس في النفوس خصلة (عدم الاستقرار) في كل شيء. فالإنسان ينمو و يتطور به (التجذر) حاله بذلك حال الأشجار، فإنها حين تقطع ستموت. لانه من الصعب أن نعمق شعور الوطنية، و قدسية المكان عند من ديدنه الترحال الدائم.

(فالاسلام دين المدنية و قد بنيت كثير من أسسه لتسير مع حاجات المجتمع الحضري المتنوعة، و النبي محمد " ص " اعطى الحياة المدنية أهمية دينية عندما أعلن للمسلمين ان يتوجهوا إلى المدينة المنورة و مكة المكرمة لاعتناق الإسلام، و هو بهذا يقصد ضمناً تشجيع الهجرة إلى المدن و احترام حياة الاستقرار)¹.

كما و نجد ذلك ظاهراً، جلياً، واضحاً في الأحاديث المباركة التي شجعت على إتخاذ الدار الواسعة، و المستقر المكاني اللائق.

٢- أسباب اقتصادية :

يذكر بأن ظاهرة نشأة المدينة هي نتيجة الانتقال من اقتصاد القرية إلى اقتصاد المدينة، و من اقتصاد البداوة إلى اقتصاد الحضر. نتيجة التوسع في الإنتاج، و في عدد السكان، تبعاً لنوع الرخاء الذي يعيشه السكان.

إن كل الشعوب قد مرت باقتصاد القرية قبل وصولها إلى اقتصاد المدينة، فكلما تحولت قرية إلى مدينة فإن العامل الاقتصادي يعتبر من أهم العوامل في تكونها و نشأتها.

¹ : العوامل التاريخية لنشأة و تطور المدن العربية والإسلامية ، مصطفى عباس الموسوي ، ص

إن التوسع الكبير للإنسان نحو الحرّف و المهّن التي هو بحاجة لها مثل (الزراعة، و الرعي، و التجارة) قد أوجد ضرورة ملحة لقيام (المدينة) فتكونت بذلك سلسلة شبكات المدن المتقاربة، و المتجاورة.

لقد كانت أسباب الحاجة هي المؤسس لظهور المدن، فإن إنتفاء الحاجة لشيء سبب في و اندثاره، فالتاريخ و علم الآثار يحدثاننا عن أسباب نشوء مدن، و عن أسباب إندثار مدن أخرى.

فمثلاً يشير اليعقوبي^١ إلى نص مهم في تاريخه عن أمور مهمة حصلت في أيام حكم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) تخص المدن ألا و هي : ((إن الإمام علي قد أمر بحفر الأنهر و شق الترع و تطهيرها، فكتب إلى عامله قرظة بن كعب الانصاري : أما بعد فإن رجالاً من أهل الذمة من عمالك ذكروا نهراً في أرضهم قد عفا و اندفن، و فيه عمارة على المسلمين، فانظر أنت و هم ثم أعمرُوا ما يصلح النهر، فلعمري لئن يعمرُوا، أحب إلينا من أن يخرجُوا، و إن يعجزُوا أو يقصروا في واجب من صلاح البلاد، و السلام))^٢.

لقد سكن البشر إلى جوار البحر - على سبيل المثال - من أجل الصيد، و القرآن الكريم يشير إلى ذلك :

قال تعالى : ((وَسَلِّهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ)) الأعراف (١٦٣).

^١ : أبو العباس أحمد بن إسحاق بن جعفر (ت ٢٨٤ هـ) ولد في بغداد ، و قضى بعض حياته في أرمينيا و خراسان ، ثم هاجر إلى الهند و المغرب و فلسطين ، و توفي في مصر .

^٢ : تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ١٧٩ .

إن استعمال تعبير (القرية الحاضرة) يبرز بجلاء كونها مدينة و أنها حاضرة البحر أي بمعنى (المدينة المرفأ) التي تردّها السفن لكونها ميناءاً. و قال تعالى ((وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)) سورة النحل، (١١٢).

فالقرية التي يأتيها الرزق من كل مكان يفهم منه بانها ميناء، أو مركز تجاري، أو نقطة إلتقاء و تجمع كونها مفترق طرق مهم للتجارة و الحل و الترحال.

لقد كان لرحلات التبادل التجاري الدور الكبير في الانتعاش الاقتصادي و ظهور مناطق، و قرى، و بلدان عديدة بسبب ذلك و التي لم تكن موجودة أصلاً.

قال تعالى : ((لَا يَلَا فِ قُرَيْشٍ * إِلَّا فِيهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ *)) سورة قريش (٤ آيات).

٣- اسباب سياسية :

لقد اقترن تأسيس مدن كثيرة عبر مراحل التاريخ بقيام الدول و نشأتها، فكل دولة تقوم لا بد أن تتخذ لها مركزاً للحكم، أو مقراً للسلطان أو الأمبراطور، أو داراً للخلافة، أو عاصمة للدولة.

لقد اندمج العامل السياسي في نشأة المدن بالعامل الإداري، فلقد تشكلت المدينة سياسياً بشكل الوحدة المكانية الإدارية التي قامت من أجلها

و تناسبت معها و تطورت بتطورها. و ان ذلك لعدة إعتبارات منها على سبيل المثال لا الحصر :

أ - العلو و الرفعة :

فمن طبيعة الإنسان (التفاخر، و التباهي) إذ قد دخل هذان العاملان - على سبيل المثال - في كل تفاصيل حياته، فهو يريد أن يتفاخر و يتباهى بكل شيء صغيراً كان أم كبيراً، تافهاً كان ذلك الشيء أم قيماً، حتى تحوّل التفاخر عند البعض إلى أشبه بالمرض العضال. فكان من مصاديق هذا التباهي بناء للقلاع و القصور و الحصون بما يبهر العقول، و يسحر العيون. إن التاريخ حافل بالصروح الباقية إلى وقتنا الحاضر لتعطينا دليلاً على ذلك، و لتكون لنا عبرة.

قال تعالى : ((إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَنْ يَخْشَى)) سورة النازعات، (٢٦). فهذه الأهرامات تعد دليلاً شاخصاً على طموح الإنسان نحو التفاخر و التباهي، و نحو العلو و الرفعة.

و كذلك (سبأ) تلك الحضارة العريقة التي بنيت من أجل العلو و الرفعة، و التي ذكرها القرآن الكريم في آياته لإعطاء العبرة في ذلك. قال تعالى : ((لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ)) سورة سبأ (١٥).

حتى وصل العلو و الرفعة إلى حد التجبر و التكبر الخارج عن نطاق المألوف، فنجد - مثلاً - أن فرعون يأمر وزيره هامان أن يبني له برجاً عالياً ليرى رب موسى (عليه السلام) كما ادعى.

قال تعالى : ((وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ

لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ)) غافر، (٣٦)، (٣٧).

ب - الحروب :

و من ذلك الفتوحات، و الغزوات. فقد تشكلت تجمعات في مناطق معينة، كانت في البداية حول قرى صغيرة، أو حول مصادر المياه، أو قرب واحاتٍ معينة، حتى و بمرور الوقت تشكلت و تكوّنت منها مدن عامرة و مشهورة، ظلت أسماؤها مغلّدة في التاريخ (فأصبحت هذه المدن مركزاً للفتوح و الادارة، فقد كانت كل الجماعات القبائلية التي صحبت الجيوش العربية الإسلامية، تحت، مساحات معينة مركزها منطقة ملمومة واضحة الشخصية، سهلة مكشوفة قابلة للسكن و الزراعة، و لو أنها كانت هامشية أو على رابية، و مثل هذا التشكيل الحضري من وحدات السكنى كان عاملاً مساعداً للباديات السياسية)^١.

و من أمثلة ذلك - على سبيل المثال - مدينة يثرب (المدينة المنورة)، و (الكوفة)، و مدينة (الفسطاط).

ج - الهجرات القسرية و الهروب من الظلمة :

يشير القرآن الكريم في جملة من آياته المباركة إلى طبيعة و كيفية تشكل الجماعات و التجمعات، و ذلك إثر أسباب متنوعة و متعددة كالهجرات القسرية - مثلاً - و التي كانت بسبب الظلمة، و للنجاة منهم، أو ما

^١ :العوامل التاريخية لنشأة و تطور المدن العربية الإسلامية ، مصطفى عباس الموسوي ، ص ١٢٧

كان سببها عداوة عرقية، أو قبلية، أو دينية، أو أسباب أخرى^١.
 إن في التاريخ أمثلة كثيرة على الهجرات القسرية، ولقد أورد القرآن
 الكريم إشارات عنها، و مثال على ذلك هجرة المسلمين إلى الحبشة، فلولا
 هذه الهجرة لم تشتهر الحبشة - جغرافيا و لا تاريخياً - إطلاقاً.
 و كذلك الهجرة إلى يثرب (المدينة المنورة) و التي كانت الإنطلاقة
 الكبرى نحو بناء الدولة الإسلامية على يد النبي محمد (صلى الله عليه و آله و
 سلم).

قال تعالى: ((كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ
 الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ)) سورة الأنفال (٥).
 كما و إن القرآن الكريم قد أكد على أن المهاجرة قد تكون للنجاة
 بالحياة، و الدين، بل و حتى في طلب الرزق.

قال تعالى: ((وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافًا كَثِيرًا
 وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ
 أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)) سورة النساء (١٠٠).
 و كذلك فإن للهجرة أهمية كبيرة في طلب العلم، و في التبليغ، و
 الإرشاد.

و قال تعالى: ((وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ
 مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ
 يَحْذَرُونَ)) سورة التوبة (١٢٢).

^١: كالحروب الإستعمارية .

أسباب خراب المدن واندثارها: في المنظور القرآني

إن لخراب المدن أسباباً أدت إلى ذلك، و من جملة تلك الأسباب ما يمكن أن نجمله في الموارد الآتية :

١- الحروب و الصراعات :

قال تعالى: ((وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتْفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِتَعْلَنَ عُلوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسُوُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا)) سورة الأسراء ، الآيات (٤) - (٧).

و قال تعالى: ((إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)) سورة النمل (٣٤).

٢- الغضب الإلهي :

إذ أن القرى عندما تكفر، و تخرج عن أمر الله تعالى فلا بد لها من رادع، فكان الرادع الأكبر هو الغضب الإلهي المتمثل بخسف القرى، و تدميرها، حفاظاً على النقاء الإنساني، و لإعطاء الدروس و العبر لكل بني الإنسان، و لصدق الوعد الإلهي تأييداً لأنبياء و رسله (عليهم السلام).

قال تعالى: ((وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ*)) سورة الأعراف (٤ - ٥).

و قال تعالى: ((أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ *)) سورة الفجر (٦ - ١٣).

٢- العوامل الجغرافية و المناخية :

إن الطبيعة تحاول فرض نفسها على المدينة، أما الإنسان فيحاول جاهداً أن يكيّف نفسه و مدينته لهذه العوامل، لذا فعليه أن يتجنب جملةً من الأمور و التي منها :

أولاً - الابتعاد عن البناء في الأماكن التي تكون عرضة للكوارث الطبيعية كالبراكين و البحار و المحيطات عند هيجانها، و الجبال و انهياراتها، و ما شاكل ذلك.

ثانياً - أن يبني بنياناً يتحمل و يتلائم مع العوامل المناخية و الجغرافية التي يعيش فيها، فلا يبني بيتاً - على سبيل المثال - من خشب في ظل بيئة أعاصير و رياح عاتية و حرائق غابات. و لا يبني بيتاً من طين في ظل بيئة ماطرة و رطوبة دائماً.

و القرآن الكريم في مجال تناوله للعوامل الجغرافية و المناخية قد أشار إلى أمثلة قرآنية غير مباشرة حول الطبيعة و مقارنتها بأعمال الإنسان في آياتٍ متفرقة^١.

^١: ك (الآية ١٠٩ من سورة التوبة ، و الآية ٢٦٤ من سورة البقرة ، و الآية ١٨ من سورة إبراهيم) .

نظريات نشأة المجتمعات: النظريات الوضعية لنشأة المجتمعات

لقد وضع علماء الاجتماع و علماء الأنثروبولوجيا عدة نظريات لنشأة المجتمع من أبرزها: (النظرية البطريقية)^١، و (النظرية الفسيفسائية)^٢، و (نظريات أسلوب الإنتاج الآسيوي)^٣، و (النظرية السلطانية)^٤، و (نظرية البازار أو السوق)^٥، و (النظرية الانقسامية).

النظرية الانقسامية :

و هنا نقف عند أبرز هذه النظريات ألا وهي : (النظرية الانقسامية) التي وضعها (إيفانز بريتشارد) في دراسته لمجتمع (النوير) في جنوب السودان ، و النوير قبيلة نيلية وثنية تعيش في جنوب السودان. و النظرية الانقسامية تكون في مجتمعات معينة ، يكون فيها هذا المجتمع مثلاً حياً للمجتمع المنقسم دائماً على نفسه بعد وصوله إلى مرحلة قرابية معينة ، فتظهر منها مجاميع مستقلة خارجة عنه ، تتجسد حياتها السياسية و الاجتماعية في التأكيد على القرابة و رفض الأعراب أو الأبعد. و لقد أنتقدت هذه النظرية على مستويات عدة ، سواء من حيث الشواهد التاريخية التي توضح عكس ما تدعيه هذه النظرية ، أو على المستوى التحليلي الأنثروبولوجي.

^١: وهي النظرية التي تؤكد السلطة الذكورية .

^٢: وتؤكد على التعدد والتمذهب والتشتت .

^٣: وهو المجتمع الذي تسوده عادات وتقاليد قديمة لا تتغير .

^٤: وهي بالنظر للدولة العثمانية ، وهي قريبة على النظرية البطريقية .

^٥: وهو أن لكل حضارة مؤسسة أو مفهوم مفتاح ، وبالنسبة إلى الحضارة العربية فإن المؤسسة المفتاح هو البازار .

النظرية القرآنية لنشأة المجتمعات

إن نشأة المجتمع (المجتمعات) مختلفة بحسب اختلاف نوع المجتمع من حيث تأثير عاملين رئيسيين فيه ألا وهما: (الدين)، و (طبيعة العادات الاجتماعية).

فهذان السببان مؤثران بشكل كبير في رسم آثار طبيعة المجتمع، و في رسم ملامحه العامة.

وهنا لا بد أن نوضح دور هذين العاملين و أثرهما في نشأة المجتمعات كلٌ بحسبه إذ نقول :

١- الدين : فالدين سواء كان سماوي أو وضعي أو اختراعي، و السماوي تارة ثابت و مستمر، و تارة مندثر، أو منسي، أو محرف. كما و ان هناك أدياناً تدعو للوحدة (المجتمعية) بكل أشكالها، و هناك أديان تدعو للفردية في كل شيء. من هنا يتشكل المجتمع تبعاً لدين ذلك المجتمع الذي يعيش فيه و نوع قوانينه.

(هناك ديانات غابت عنا أبعادها التعااقبية، و مجتمعات ينتشر الدين في مجمل نسيجها الاجتماعي مع أنها ليست " بدائية " بالضرورة. لا يسمح التاريخ الديني للبشرية بالطبع، بترتيب أشكال الديانة و نماذج " تجمع العناصر " الدينية على خط قد تنتج عنه رؤية تطورية. فمن الاعتباري، كما أشار أوجيه أن يتم التسليم بأن " المجهول وجد قبل المعلوم، و القوة قبل السلطة، و السحر قبل الدين ". تحول هذه النظرة تاريخ الأديان إلى مجموعة من العلوم الدينية التي لا يكون لبعضها من دور سوى تطبيق المنهجية التاريخية و اللغوية الفقهية على وثائق يتم الإقرار المسبق بأنها " دينية "، بينما ينبثق البعض الآخر،

و من بينها منهجيات التحقيق، عن انثروبولوجيا مشبعة بمؤثرات علم النفس و نظرية المعرفة و الألسنية...^١.

٢- طبيعة العادات الاجتماعية أو (الجماعية) : وهي تتشكل بحسب التربية الاسرية الأولى تبعاً لتأثير المجتمع و طبيعته. فهي مجموعة من الأفعال و الأعمال و ألوان السلوك، التي تنشأ في قلب الجماعة، بصفة تلقائية لتحقيق أغراض تتعلق بمظاهر سلوكها و أوضاعها، و تمثل ضرورة اجتماعية تستمد قوتها من نفس هذه الضرورة، لذلك من الصعب على الأفراد الخروج على مقتضياتها.

ف(العادات الجماعية) مفهوم يستخدم للإشارة إلى مجموع الانماط التي تبقى عليها الجماعة و تتناقلها عن طريق التقليد و التفاعل مع الآخرين. إن هناك فروقاً فردية لا بد من الالتفات لها و أخذها بالاعتبار، كما و أن هناك طابع قبلي مؤثر في النشأة و التكوين، ثم يأتي دور البيئة و المؤثرات الاجتماعية العامة في تكوين شخصية الفرد.

أما القرآن الكريم فهو يؤكد على (الأصل الواحد) في نشأة و تكون المجتمع، و أنهم يرجعون إلى أبيهم الأول ألا و هو (آدم) حيث قد أشارت الأحاديث الشريفة إلى ذلك الأصل.

قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) في الحديث المشهور : ((كلكم لآدم و آدم من تراب)).

نعم، إذا نشأت عادة تبعاً لظروف مشتركة في مجتمع معين و مارسها

^١ : معجم الأنثولوجيا و الأنثروبولوجيا ، بيار بونت ، وميشال إيزار ، ترجمة : مصباح الصمد ، ص

عدد كبير، فمن الممكن أن تصبح (عادة جماعية).
إن هناك بعض العادات المفيدة للحياة الاجتماعية و يؤدي عملها إلى
تعزيز وحدة المجتمع و تقوية الروابط بين أفرادها، مثل آداب السلوك العام، و
آداب الحديث، و آداب المائدة، و صلوات ذوي القربى.
و بعضها سلبي و يشيع الفرقة بين أبناء المجتمع، مثل العادات
الخرافية، و شيوع الموبقات و المحرمات، و عدم العفة، و تعاطي المخدرات
و الخمر.

وقفه مع أسباب الانهيار الاجتماعي

هنا نقف وقفة قصيرة لتحديد بعض الأسباب المؤدية للانهيار الاجتماعي في المجتمعات البشرية^١، لنتعرف على مواطن الخلل التي أوردها القرآن الكريم في جملة من آياته المباركة، والتي ذكرت جملة من الاسباب التي تعتبر عوامل رئيسة في الانهيار الاجتماعي و التي منها :

١- أعمال البشر المخالفة للإرادة الإلهية و التي هي أعمال غير عقلانية: قال تعالى: ((ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)) سورة الروم (٤١).

٢- التجبر و التكبر و الطغيان :

قال تعالى : ((الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ (١٢))) سورة الفجر (١١) - (١٢).

٣- الترف إلى حد انتهاك المحرمات و الاعتداء على المسلمات :

قال تعالى : ((وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا)) سورة الأسراء (١٦).

٤- الظلم و الفساد :

قال تعالى : ((وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ)) سورة هود (١١٧).

٥- البطر و إنكار النعم و عدم الشكر :

قال تعالى : ((وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فِتْلِكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ)) سورة القصص (٥٨).

^١: من باب المثال لا الحصر .

٦- الكفر بالله تعالى، و بالنعم الألهية :

قال تعالى: ((وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)) سورة النحل (١١٢).

٧- الإعتداء على الدين و على أهل الدين (الدين الحقيقي) :

قال تعالى : ((وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ)) سورة إبراهيم (١٣).

٨- عدم الطاعة و التنازع على حطام الدنيا :

قال تعالى : ((وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)) سورة الأنفال (٤٦).

٩- كثرة الذنوب :

قال تعالى : ((أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ)) سورة الأنعام (٦).

١٠- الإلتجاء لغير الله تعالى :

قال تعالى : ((مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)) سورة العنكبوت (٤١).

١١- عدم التقوى، و عدم الإيمان :

قال تعالى : ((وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنْ

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)) سورة الأعراف (٩٦).

يقول السيد محمد باقر الصدر^١ (رحمه الله) : ((و العالم أمامه سبيلان إلى دفع الخطر و إقامة دعائم المجتمع المستقر :

أحدهما : أن يبدل الإنسان بغير الإنسان، أو تُخلق فيه طبيعة جديدة تجعله يضحي بمصالحه الخاصة، و مكاسب حياته المادية المحدودة في سبيل المجتمع و مصالحه، مع إيمانه بأنه لا قيم إلا قيم تلك المصالح المادية، و لا مكاسب إلا مكاسب هذه الحياة المحدودة. و هذا إنما يتم إذا انتزع من صميم طبيعة حب الذات و أبدل بحب الجماعة، فيولد الإنسان و هو لا يحب ذاته إلا باعتبار كونه جزءاً من المجتمع، و لا يلتذ لسعادته و مصالحه إلا بما أنها تمثل جانباً من السعادة العامة و مصلحة المجموع. فإن غريزة حب الجماعة تكون ضامنة حينئذ للسعي وراء مصالحها و تحقيق متطلباتها بطريقة ميكانيكية و أسلوب آلي.

و السبيل الآخر الذي يمكن للعالم سلوكه لدرء الخطر عن حاضر الإنسانية و مستقبلها هو : أن يطور المفهوم المادي للإنسان عن الحياة، و بتطويره تتطور طبيعياً أهدافها و مقاييسها ؛ و تتحقق المعجزة حينئذ من أيسر طريق))^٢.

^١ : السيد محمد باقر الصدر (١٩٣٥ - ١٩٨٠ م) مرجع ديني ومفكر وفيلسوف إسلامي ، أعدم على يد نظام صدام المقيبور .

^٢ :المدرسة الإسلامية ، محمد باقر الصدر ، ص ٧٠ .

خامسا : الأنثروبولوجيا الاقتصادية

إن علم الاقتصاد يُعرف في بعض التعريفات بأنه : دراسة العمليات الاقتصادية. أما العمليات الاقتصادية فتعرّف بأنها : توزيع الموارد النادرة على الأهداف المختلفة. و تهتم الأنثروبولوجيا الاقتصادية بدراسة اقتصاديات (المدينة، القرية، القبيلة الصغيرة).

و قد تزامن ظهور الأنثروبولوجيا الاقتصادية - كعلم فرعي - مع ظهور أساليب العمل الميداني الحديث، التي أجبرت الانثروبولوجيين على مقارنة النظريات الاقتصادية و الأنثروبولوجية بواقع الانتاج و التوزيع، و التبادل في الاقتصاديات القبلية أو القروية الصغيرة التي درسوها. و من ثم ظهر هذا الفرع من علوم الأنثروبولوجيا محصلة لاهتمام علماء الأنثروبولوجيا بالنظم الاقتصادية في المجتمعات التقليدية، و محاولة إيجاد صيغة ملائمة لتفسير الظواهر الاقتصادية في هذه المجتمعات. و يرجع تحديد مسمى هذا الفرع إلى المؤرخ الاقتصادي (جراس) (Grass) في مقاله الذي عُد نواة لذلك و نشر بعنوان (الأنثروبولوجيا و الاقتصاد) و فيه حدد نطاق اهتمام هذا الفرع بأنه الجمع بين الدراسات الانثروبولوجية و الاقتصادية عند الشعوب التقليدية. و لقد أوضح (جراس) في مدخله التطوري علاقة التطور الاقتصادي بأنماط التوطن والاستقرار البشري على مر التاريخ كما ربط طرق ووسائل العيش بالتطورات التكنولوجية من ناحية، وبتطور أشكال الاستيطان البشري من ناحية أخرى، و في تأريخه للحضارة الغربية في حدود إطار تصنيفي متصل ميز (جراس) خمس مراحل تطورية أساسية هي : مرحلة اقتصاد الجمع والالتقاط، فمرحلة اقتصاد الرعي، يليها مرحلة اقتصاد القرية المستقرة، ثم مرحلة اقتصاد المدينة الصغرى، و أخيراً مرحلة الاقتصاد المتروبوليتي. و لقد كان تطور

الزراعة كأسلوب أو طريقة للمعيشة أهم العوامل التي أدت إلى دخول البشرية في مرحلة أكثر تقدماً على طريق التحضر ويتوالى هذا التطور لتنمو المدن الصغرى نتيجة تزايد الإنتاج الزراعي وتزايد أعداد الحرفيين وتطوير وسائل النقل وازدهار النشاط التجاري، وكان ظهور (المتروبوليس) بعد ذلك نتيجة لازمة لارتباط التغيرات التكنولوجية والتنظيمية المصاحبة لانتشار التصنيع وسيطرة الاقتصاد المتروبوليتي، وغدت المدينة المتروبوليتية هي الوحدة الإدارية والاجتماعية والاقتصادية ليس فقط في الاقتصاد القومي أو الإقليمي بل وأيضاً في الاقتصاد العالمي.

و بعد ولادة هذا الفرع يوضح (ريموند فيرث) أنه منذ حوالي العقد الرابع من القرن العشرين بدأ الاهتمام يتزايد بهذا الفرع من الأنثروبولوجيا.

القرآن الكريم وقضايا الإنسان الاقتصادية

إن للقرآن الكريم نظرة اقتصادية خاصة، نابعة من حقيقة الحكمة الإلهية والتي وضحتها آيات القرآن الكريم.

قال تعالى : ((اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ*)) سورة إبراهيم، الآيات (٣٢ - ٣٤).

يقول السيد محمد باقر الصدر (رحمه الله) : ((فهذه الفقرات الكريمة تقرر بوضوح : أن الله تعالى قد حشد للإنسان في هذا الكون الفسيح كل مصالحه و منافعه، و وفر له الموارد الكافية لإمداده بحياته و حاجاته المادية، و لكن الإنسان هو الذي ضيع على نفسه هذه الفرصة التي منحها الله له بظلمه و كفرانه : ((إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)) فظلم الإنسان في حياته العملية و كفرانه بالنعمة الإلهية هما السببان الأساسيان للمشكلة الاقتصادية في حياة الإنسان. و يتجسد ظلم الإنسان على الصعيد الاقتصادي : في سوء التوزيع. و يتجسد كفرانه للنعمة : في إهماله لاستثمار الطبيعة و موقفه السلبي منها)).^١

و هذه حقيقة قرآنية ؛ فالفساد و الإفساد هو من الإنسان.

قال تعالى : ((ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ))

سورة الروم (٤١).

لقد بين القرآن الكريم كيفية إستهلاك الثروات وفق نظام اقتصادي

^١ :اقتصادنا، محمد باقر الصدر، ص ٣٨٠ - ٣٨١.

إنساني متكامل يخدم الجميع و يراعي التنوع، و نذكر منه على سبيل المثال بعض الأسس المهمة في كيفية الاستهلاك الصحيح.

١- عدم الإسراف، و عدم التبذير :

قال تعالى : ((وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا)) سورة الأعراف (٣١).

٢- هناك محرمات يجب الإجتناّب عنها، كما و أن هناك أشياء محللة كثيرة، الهدف من وراء كل ذلك قياس مقدار الطاعة.

قال تعالى : ((وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ)) سورة الأعراف (١٥٧).

٣- وسط كل ذلك لابد على الإنسان أن لا يطغى، و إلا فإن ذلك مدعاة لزوال النعمة، و نزول العذاب.

قال تعالى : ((كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي)) سورة طه (٨١).

٤- بالشكر من قبل الإنسان تدوم النعم و تزداد بركاتها.

قال تعالى : ((وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)) سورة إبراهيم (٧).

و الشكر هو : عرفان النعم من المنعم، و حمده عليها.

عن أبي عبد الله عن آبائه (عليهم السلام) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) : ((ما فتح الله لعبدي باب شكرٍ فخرن عنه باب الزيادة))^١.

^١ : الكافي ، الكليني ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

الإنسان ومتطلباته المعيشية والاقتصادية

إن من أول وأهم متطلبات الجماعة البشرية، وأعظمها لديهم هي: في كيفية الحصول على الغذاء، و من اليقين ان نرى هذا جلياً و واضحاً فهو الشغل الشاغل لكل فرد من الطفولة حتى الممات.

قال تعالى : ((فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعَيْنًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدائقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَّكُمْ وَلَآئِعًا لَّكُمْ)) سورة عبس، الآيات (٢٤) - (٣٢).

و لقد بدأ الإنسان يستأنس الحيوانات المتوحشة و يدجنها في عصر ما من عصور التاريخ. و باستئناس المفيد منها و غير الضار من الأنواع الهامة للإنسان كالماشية، أصبح في إمكان الجماعات البشرية أن تقيم حياتها على منتجاتها، أو على ما توفره من خدمة و فائدة لهم.

قال تعالى : ((وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوُفٌ رَّحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)) النحل (٥) - (٨).

ثم كان الاهتمام بالأرض و الزراعة و الحراثة و الحصاد و جني الثمار، فهي تشكل المورد الأعم للإنسان و الحيوان اقتصادياً و معاشياً.

قال تعالى : ((هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)) الملك (١٥).

ثم دعا القرآن الكريم إلى الترشيح في استخدام و استغلال الثروات الطبيعية، و عدم الإسراف في استعمالها، حتى لا تستنزف الموارد الطبيعية، مما

سيشكل كوارث تحيط بالإنسان.

قال تعالى : ((كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ

مُفْسِدِينَ)) البقرة (٦٠).

أسباب الانتعاش والازدهار الاقتصادي في المنظور القرآني

القرآن الكريم يوضح جملة من الأسباب التي لها مدخلة كبرى في الازدهار الاقتصادي والتي منها :

١- الأحلاف و المعاهدات، و الرحلات التجارية، و التي تختلف و تتغير بحسب الموسم، و المحصول، و غيره من الأسباب الآخري.
قال تعالى : ((لَا يَلَا فِ قُرَيْشٍ * إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ *))
سورة قريش.

٢- الطبيعة الملائمة، و وفرة الخيرات، و أسباب العيش الرغيد من مناخ مناسب، و تضاريس ملائمة، و خضرة، و ماء، و أيدي عاملة.
قال تعالى: ((لَقَدْ كَانَ لِسَيِّ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ)) سبأ (١٥).
٣- الخزن الصحيح للأطعمة و غيرها بسبب تغير المواسم، أو بسبب الجذب و القحط، و غيره.
قال تعالى: ((قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ)) يوسف (٤٧).

٤- الارث سبب من أسباب الانتعاش الاقتصادي.

قال تعالى: ((لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا)) سورة النساء (٧).

٥- الإنفاق و إعطاء الحقوق الشرعية و توزيعها لمستحقيها سبب من أسباب الانتعاش الاقتصادي.

قال تعالى : ((يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)) الأنفال (١).

و الأنفال : جمع (نفل) و تعني : الزيادة بالمفهوم العام للكلمة. لكنها جاءت هنا في الآية الكريمة بمعنى الأموال و الثروات الفائضة عن حاجة الناس.

و هذه الآية الكريمة نزلت على الرسول الأكرم (صلى الله عليه و آله و سلم) بعد معركة بدر. و يستفاد من ظاهر الآية أنه بعد انتصار المسلمين على الكفار في معركة بدر و الاستيلاء على غنائم الكفار ظهرت خلافات في وجهات نظر المسلمين إزاء تلك الغنائم حيث كانوا يتساءلون عن الجهة التي يحق لها التصرف بتلك الغنائم. هنا حدد الله سبحانه و تعالى في هذه الآية نوع ملكية الأنفال حيث يؤكد ان الأنفال لله و الرسول و على المسلمين أن يطيعوا أمر الله تعالى و رسوله (صلى الله عليه و آله و سلم).

قال تعالى : ((وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ)) سورة الأنفال (٤١).

و قال تعالى : ((وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)) السجدة (١٦).

و قال تعالى : ((قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ)) التوبة (٥٣).

و قال تعالى : ((إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)) التوبة (٦٠).

و قال تعالى : ((وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُؤْنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ))
الرعد (٢٢).

و قال تعالى : ((وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ
*)) المعارج (٢٤ - ٢٥).

عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ((أنفق بالخلف، و اعلم أنه من لم
ينفق في طاعة الله ابتلي بأن ينفق في معصية الله، و اعلم أن من لم يمش في
حاجة ولي الله ابتلي بأن يمشي في حاجة عدو الله))^١.

٦- الأعتدال :

قال تعالى : ((وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ
قَوَامًا)) الفرقان (٦٧).

٧- الزواج :

قال تعالى : ((وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ
إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)) النور (٣٢).

ان الزواج في نظر الرسول الأكرم (صلى الله عليه و آله و سلم) هو من
مفاتيح الرزق، فقد قال : ((إِتْخَذُوا الْأَهْلَ فَإِنَّهُ أَرْزَقَ لَكُمْ))^٢.

و قال الإمام الصادق (عليه السلام) : ((الرزق مع النساء، و العيال)).

٨- الإستغفار :

قال تعالى : ((فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلَ السَّمَاءَ

^١ : من لا يحضره الفقيه ، الصدوق ، ج ٤ ، ص ٤١٢ .

^٢ : وسائل الشيعة ، الحر العاملي ، باب ١ ، من مقدمات النكاح ، حديث ١ .

عَلَيْكُمْ مَذْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْينَ وَيَجْعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا)) نوح (١٠) - (١٢).

و قال تعالى : ((وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ)) هود (٥٢).

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ((من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيقٍ مخرجاً))^١.

و قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : ((من أنعم الله عليه نعمة فليحمد الله تعالى و من استبطأ الرزق فليستغفر الله، و من احزنه أمر فليقل : لا حول و لا قوة إلا بالله))^٢.

و قال الامام علي بن أبي طالب (عليه السلام) : ((وقد جعل الله سبحانه الاستغفار سبيلاً على الرزق و رحمة الخلق...))^٣.

٨ العمل و إتخاذ المهنة و الحرفة الملائمة للمعيشة و الكسب

الصالح:

قال تعالى : ((لْيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ)) يس (٣٥).

^١ : تفسير نور الثقلين ، ج ٥ ، ص ٣٥٧ .

^٢ : نهج البلاغة ، الخطبة ١٤٣ .

^٣ : نهج البلاغة ، الخطبة ١٤٣ .

المهن والحرف والانتعاش الاقتصادي

يعد العمل سبباً مهماً ورئيسياً من أسباب الانتعاش الاقتصادي، و من ذلك إختيار المهنة الملائمة و الحرفة المناسبة، و لقد كان الأنبياء (عليهم السلام) يعملون و يحثون الناس على العمل.

فالعمل هو ذلك المجهود الإرادي الواعي الذي يهدف الإنسان من وراءه خدمة نفسه، و إنتاج السلع لإشباع حاجاته بالدرجة الأولى.

و العمل يعدّ العنصر الفعال من طرق الكسب التي أباحها الإسلام، فهو يعدّ دعامة أساسية في الإنتاج، كل ذلك في سبيل إشباع حاجاته المعيشية و الحياتية، و كذلك من أجل محاربة العوز و الفقر و الحاجة، لكي يحيى حياة طيبة هائلة.

قال تعالى : ((مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)) النحل (٩٧).

إن الله سبحانه و تعالى الذي مكن الإنسان في الأرض قد فرض عليه أن يسعى و يكد و يعمل لكي يحصل على ما يشبع حاجاته. قال تعالى : ((هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)) الملك (١٥).

و العمل شيء مهم و مطلوب خصوصاً أن فائدته لا تعود على العامل وحده، بل على المجتمع بأسره.

و من أهم أساسيات العمل هو اختيار المهنة، أو العمل بمهنة مفيدة تضمن المعيشة و تدر الأرباح، و تخدم المجتمع، فنجد مثلاً أن الأنبياء (عليهم السلام)، و هم أفضل خلق الله تعالى، قد مارسوا العمل في حياتهم، فمثلاً - و بحسب ما تذكر بعض الروايات - نجد أن آدم (عليه السلام) قد احترف

الزراعة، و نوح (عليه السلام) التجارة، و داود (عليه السلام) الحدادة، و إدريس (عليه السلام) الحياكة، و سليمان (عليه السلام) عمل الخوص، و زكريا (عليه السلام) النجارة، و عيسى (عليه السلام) الصباغة، و نبي الله محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) احتراف الرعي و التجارة^١.

و نحب هنا أن نذكر أمثلة على بعض المهن التي أوردها القرآن الكريم في آياته المباركة للوقوف على أهمية اختيار المهنة في مجال العمل، و من هذه المهن على سبيل المثال :

١- الخياطة :

قال تعالى : ((وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ)) الأعراف (٢٢).

تذكر المصادر التاريخية ان نبي الله إدريس (عليه السلام) كان أول من علم البشر خياطة الملابس^٢. فقد (كان عليه السلام يخطط القمصان و مع كل قطبة كان يسبح الله سبحانه، و عند تسليم القميص إلى صاحبه كان يطلب الأجر)^٣.

٢- الحدادة، و صناعة السلاح :

قال تعالى : ((آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ)) الكهف (٩٦).

و قال تعالى : ((وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ)) الأنبياء (٨٠).

و قال تعالى : ((وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ

وَأَلَّنَا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرَ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا

^١ : يراجع لذلك : كتب قصص الأنبياء والمرسلين ، وكتب التفسير ، وجملة من كتب الحديث .

^٢ : قصص القرآن ، مقتبس من تفسير الأمل ، ناصر مكارم الشيرازي ، ص ٣١ .

^٣ : تاريخ الأنبياء من آدم إلى الخاتم ، علي أكبر سعدي ، ص ٥٠ .

تَعْمَلُونَ بَصِيرَةً) سبأ (١٠) - (١١).

أي : (آتينا داود) من لدنا و من عندنا فضل (النبوة و القضاء بالعدل...) و فضل إغنائه عن الناس بما ألهمه من صنع دروع، و (أوبى معه) أمر تكوين و تسخير، و إلانة الحديد أي تسخيرها لأصابعه حينما يلوي حلق الدروع و يغمز المزامير، و أوحينا إليه أن اعمل دروع، و (السرد) صنع درع الحديد، أي تركيب حلقها و مساميرها التي تشد شقق الدروع بعضها ببعض^١.

٣- التجارة :

قال تعالى : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا)) النساء (٢٩).

٤- الصيد :

قال تعالى : ((لَيُبْلَوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ)) المائدة (٩٤).

و قال تعالى : ((أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)) المائدة (٩٦).

٥- الصياغة :

قال تعالى : ((وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا)) الأعراف (١٤٨).

جاء في بعض التفاسير ما يتعلق بصناعة العجل : صنع السامري تمثالاً

^١ : التحرير والتنوير ، الطاهر بن عاشور ، مجلد ٩ ، ص ١٥٧ .

على هيئة عجل، و كان السامري ذا مهارة في أمر الصبّ و السبك، فصّبّه بحيث يخرج الصوت من منافذه إثر نفوذ الهواء فيه^١.

٦- النحت :

قال تعالى : ((وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ)) الشعراء (١٤٩).

٧- البناء :

قال تعالى : ((أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ)) الشعراء (١٢٨).

و الريع : المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة، ينون هناك بنياناً محكماً هائلاً باهراً، و لهذا ورد (أتبنون بكل ريع آية) أي معلماً مشهوراً. و تشير الآية المباركة إلى قوم عاد و هم جماعة عاشوا في أرض الأحقاف بالقرب من حضرموت إحدى ضواحي اليمن الواقعة جنوب شبه جزيرة العرب، و قد كذبوا رسل الله سبحانه على ما جاء في صريح القرآن الكريم.

كانوا ينون على قُلل الجبال و كل مرتفع من الأرض أبنية كالأعلام، يتنزهون فيها و يفاخرون بها من غير ضرورة تدعوهم إلى ذلك بل لهواً و اتّباعاً للهوى^٢.

٨- الوزن و الكيل :

قال تعالى : ((وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ

* وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ)) المطففين (١ - ٣).

٩- الزراعة و الحراثة و الفلاحة :

^١ : تفسير الأنوار الساطعة ، ج ١٠ ، ص ٥٠١ ، (طه : ٨٨) .

^٢ : تفسير الميزان ، مجلد ١٥ ، ص ٤٢١ .

فالقرآن الكريم يحث على العمل بالزراعة، و الحراثة، و الفلاحة، و إحياء الأرض الميتة، و ذلك بجعلها صالحة للزراعة، و قد أشار القرآن الكريم إلى أهمية الزراعة لعدة أسباب منها: أنها دليل على قدرته تعالى، و دليل على وجوده. و منها: أنها مظهر من مظاهر نعمه على مخلوقاته جميعاً.

قال تعالى: ((وَزُرُوعٌ وَنَخْلٌ طَلْعُهَا هَضِيمٌ)) الشعراء (١٤٨).

و قال تعالى: ((وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ)) يس (٣٣).

و قال تعالى: ((وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُخْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) فصلت (٣٩).

و الخشوع و هو مستعار لحال الأرض إذا كانت مقحطة لا نبات عليها، و الاهتزاز حقيقة لربو الأرض بالنبات، شبه حال أنباتها و ارتفاعها بالماء و النبات بعد أن كانت منخفضة خامدة^١.

و قال تعالى: ((اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ)) إبراهيم (٣٢).

إن استغلال الأرض بالزراعة و إنتاج الثمار و الحبوب المتنوعة و المختلفة يحتاج إلى العمال المهرة في التعامل مع الأرض، و مع الثمار، و مع آلات الزراعة.

١٠- الفخارة:

^١: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، مجلد ٩، ص ٣٠٢.

قال تعالى : ((فَأَوْقَدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ)) القصص (٣٨).

١١- الرعي :

قال تعالى : ((كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى))

طه (٥٤).

١٢- الصناعة : و منها :

أولاً : صناعة السفن و النجارة :

قال تعالى : ((وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ

قَالَ إِنَّ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ) هود (٣٨).

أي أوحى إلى نوح (اصنع الفلك) و عبر عن صنعه بصيغة المضارع لاستحضار الحالة لتخيل السامع أن نوحاً بصدد العمل (في عمل سفينة)^١.

و لقد كان قومه يسخرون منه و يقولون : لقد تحول عن النبوة إلى النجارة. و لكن نوحاً استمرّ في عمله حتّى أنهى صناعة السفينة. و قد كان ذلك في مسجد الكوفة^٢.

ثانياً : صناعة الجلود، و الغزل، و الأثاث، و الأمتعة، من جلود الحيوانات و أصوافها و أوبارها :

قال تعالى : ((وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ

الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ)) النحل (٨٠).

ثالثاً : صناعة الملابس و الدروع :

^١ : التحرير والتنوير ، الطاهر بن عاشور ، مجلد ٥ ، ص ٦٧ .

^٢ : التفسير الجامع ، المجلد ٣ ، ص ٢٦٦ .

قال تعالى : ((وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سُرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسُرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ)) النحل (٨١).

١٣- الملاحة البحرية :

قال تعالى : ((أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدَتْ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا)) الكهف (٧٩).

١٤- الغوص و استخراج الحلي :

قال تعالى : ((وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ)) الأنبياء (٨٢).

وقال تعالى : ((وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)) النحل (١٤).

أسباب الكساد و الانهيار الاقتصادي في المنظور القرآني

لانهيار و الكساد الاقتصادي أسبابه الخاصة، و القرآن الكريم يورد

لنا جملة من هذه الأسباب و التي منها :

١- الحروب، و الإحتلال و الاستعمار و الغزو :

قال تعالى : ((إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا

أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)) النمل (٣٤).

و قال تعالى : ((فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً

وَهُمْ صَاغِرُونَ)) النمل (٣٧).

٢- الحرص و الاحتكار :

قال تعالى : ((وَسَأَلْنَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ

فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ

كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)) الأعراف (١٦٣).

فالحرص : هو الإفراط في حب المال، و الاستكثار منه، دون أن

يكتفي بقدر محدود. و هو من الصفات الذميمة.

قال الامام محمد الباقر (عليه السلام) : ((مثل الحريص على الدنيا،

مثل دودة القز كلما ازدادت من القز على نفسها لفاً، كان أبعد لها من

الخروج، حتى تموت غماً))^١.

٣- الربا :

قال تعالى : ((قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ

جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّقِهَا فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ

^١ : الوافي ، ج ٣ ، ص ١٥٢ .

أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)) البقرة (٢٧٥).

و قال تعالى : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ *)) البقرة (٢٧٨) - (٢٧٩).

قال الامام الصادق (عليه السلام) : ((إنما حرم الله عز وجل الربا لكي لا يمتنع الناس عن اصطناع المعروف))^١.
٤- الترف :

قال تعالى : ((وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا)) الأسراء (١٦).
٥- كنز الأموال :

قال تعالى : ((وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)) التوبة (٣٤).
٦- الإسراف و التبذير :

قال تعالى : ((وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)) الأنعام (١٤١).
و قال تعالى : ((إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ)) الأسراء (٢٧).
قال الامام علي (عليه السلام) : ((ألا إن إعطاء المال في غير حقه تبذير و إسراف، و هو يرفع صاحبه في الدنيا و يضعه في الآخرة، و يكرمه في الناس و يهينه عند الله))^٢.

٧- وقوع الأموال بيد السفهاء :

^١ : وسائل الشيعة ، الحر العاملي ، ج ١٢ ، ابواب الربا ، الباب ١ ، ص ٤٢٢ .

^٢ : نهج البلاغة ، الخطبة رقم ١٢٦ .

قال تعالى : ((وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا))
النساء (٥).

٨- منع الحقوق الشرعية عن مستحقيها :
قال تعالى : ((فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)) المؤمنون
(٧).

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ((وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ
أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مَنَعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يَمْطُرُوا))^١.
٩- الظلم :

قال تعالى : ((فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ
وَبَصَدَّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا)) النساء (١٦٠).
فهو بخس الحق، والاعتداء على الغير قولاً وعملاً، ووضع الأشياء
في غير موضعها الصحيح.

قال الامام علي (عليه السلام) : ((من أكل ما أخيه ظلماً ولم يرده إليه،
أكل جذوة من النار يوم القيامة))^٢.
١٠- الطغيان :

قال تعالى : ((يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ
جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى * كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا
رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحِلُّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ

^١ : سنن أبن ماجه ، ج ٢ ، ص ١٣٣٢ ، رقم ٤٠١٩ ، المستدرک ، الحاكم النيسابوري ، ج ٤ ، ص

٥٨٢ ، رقم ٨٦٢٣ .

^٢ : نهج البلاغة .

هوى)) طه (٨٠) - (٨١).

١١- كفران النعمة :

قال تعالى : ((وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)) النحل (١١٢).

عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ((من أنعم الله عليه بنعمة فجاء عند تلك النعمة بمزمارٍ فقد كفرها، و من أصيب بمصيبة فجاء عند تلك المصيبة بنائحةٍ فقد فجعها))^١.

^١ : الكافي ، الكليني ، ج ٦ ، ص ٤٣٢ .

سادسا : الأنثروبولوجيا الدينية

بدأت الأنثروبولوجيا^١ بالتنظير حول (الدين) وما يتعلق به، و كان السؤال المحوري هو : كيف بدأت و تطورت الديانة ؟.

لقد أعطى الكثيرون أجوبة و آراءً تنوعت و اختلفت بتنوع و اختلاف انتماءاتهم من حيث : (الأصل، و المنشأ، و الأساس، التطور).

يذهب الدارس في الأنثروبولوجيا (عِلْم الإنسان) إلى السؤال : من هو الإنسان ؟ و ما هي الجماعة البشرية ؟ و ما هي معتقداتها ؟ و كيف تتداخل هذه المعتقدات في حياته اليومية و تؤثر على سلوكيات الناس في المجتمع ؟ و كيف تتداخل هذه المعتقدات الدينية في السلوك الاجتماعي و الاقتصادي لذلك المجتمع ؟ و كيف تدخل هذه المعتقدات في التنشئة الاجتماعية و الثقافية لأفراد المجتمع المعني ؟ لتشكل هذه الأمور في النهاية شخصية الفرد و الجماعة بغض النظر عن نوع الديانة، و طبيعة المجتمع المعني، كبيراً كان أم صغيراً، أحادي العرق أو متعدد الأعراق أو الأثنيات، بدائياً كان أم متطوراً^٢.

ف(الأنثروبولوجيا الدينية) هي : دراسة متعمقة للشعوب و معتقداتها، و كيف تعمل هذه المعتقدات في التشكيلة الثقافية لشخصية الإنسان في المجتمع المعني أو المجتمع تحت الدراسة، و في هذا المضمار لا تشكل الأنثروبولوجيا الدينية دراسة لاهوتية، و لا تشكل أيضاً دراسة حول الحقيقة الإلهية للدين، بقدر ما هي دراسة للإنسان ما يعتقد به دينياً. إذ (تقوم بين تاريخ الأديان و الأنثروبولوجيا أكثر من علاقة مواكبة. فهاتان المعرفتان

^١ : علماء و علماء و باحثون .

^٢ : مع الإشارة إلى أن أكثر آراء علماء الأنثروبولوجيا و السوسيولوجيا في الغرب و أوروبا تشير إلى أن الدين صناعة إنسانية .

تشابكان مع بعضهما، لكون كل واحدة منهما تشكل وجهة نظر حول كمالية الأخرى. ولا يعني ذلك بالمطلق أن هذين المجالين المتقاربين متطابقان. بل يبدو أن نقاط الالتقاء بينهما هي بالتحديد نقاط تقاطع. فالسؤال الذي يُطرح هو التالي: كيف اتخذ تاريخ الديانات الشكل الذي هو عليه اليوم لكي يتوصل إلى التوافق مع إشكالية الأنثروبولوجيا؟^١.

إن الديانة و المعتقد ليست أشياء مادية نتعامل معها، وربما أن مثل هذه المفاهيم المعنوية تشابك مع مفاهيم معنوية أخرى نتعامل معها ك(العادة، والقيمة، و المعيار، و الأخلاق). جميع هذه مفاهيم غير مادية لا نعرفها إلا من خلال الكلمات و السلوكيات التي تدل عليها و تشير إليها.

فالمعتقد ليس شيئاً حسيّاً نستطيع وصفه فهو شيء لا يعرف إلا بما يعبر عنه صاحب المعتقد أو ما نفهمه منه بنفسه من خلال تصرفاته بما فيها من افعال و تعاملات و غير ذلك.

لقد وقع الاختلاف في الآراء حول مدى التفاعل ما بين الدين و الثقافة، و هل أن الثقافة تركز على الديانة؟ و هل أن الديانة هي أصل الثقافة؟ أم أن الديانة هي إحدى المكونات لثقافة الفرد و المجتمع؟. ذلك لأن الديانة في لحظة ما تصبح منسوجة بالثقافة، كما و أن الثقافة تصبح مندمجة مع الرؤية الدينية بحيث يصعب الفصل فيما بينهما.

إن التركيز في الأنثروبولوجيا الدينية يقع على مفهوم الحضارة أكثر مما يقع على مفهوم الديانة لأن الحضارة التي توجد فيها الديانة - ديانة ما -

^١: معجم الأنثولوجيا والأنثروبولوجيا، بيار بونت، وميشال ايزر، ترجمة: مصباح الصمد، ص

هي التي تحدد طبيعة هذه الديانة، و يمكننا أن نذهب إلى أبعد من ذلك لنقول : إن اهتمام الأنثروبولوجيا الدينية يتركز على الخصائص الاجتماعية للدين. و عندما نتكلم عن الديانة - هنا - فإننا نتكلم عن ديانة مجموعة إنسانية لها ثقافة معينة كما هو الحال في الحديث عن الحضارة. و الديانة هي دائماً ديانة مجموعة معينة من الناس، فحين نتكلم عن ديانة الفرد فإننا نفكر بديانة الجماعة التي ينتمي إليها ذلك الفرد و التي يشاركها حضارتها أو ثقافتها. و من المؤسف له أن كثيراً من المفكرين يغفلون عن أهمية الارتباط بين ظاهرة الدين و جماعة معينة من الناس.

الأنثروبولوجيا والدين

مثّل الدين - بصفته كظاهرة مركزية في الحياة الإنسانية - محوراً أساسياً انشغل به الفكر الإنساني منذ آلاف السنين وفي مختلف مجالات الثقافة الإنسانية وفروع المعرفة البشرية. فقد كانت دراسة الدين حاضرة في الكثير من العلوم الإنسانية كالقانون والفلسفة والأخلاق واللاهوت والتاريخ والعلوم الاجتماعية والعلوم الأخرى. كما وإن تناول الظواهر الدينية موجود في الدراسات الرائدة في علم الاجتماع، بل نستطيع القول أن الظواهر الدينية كانت محفزاً ودافعاً لهذه الدراسات.

إن علم الاجتماع الديني ولد في قلب تساؤل علم الاجتماع حول الحداثة والمعاصرة ومدى تأثيرها على الدين وإمكانية تأثير الدين عليها، وقد اقترح الرواد الكبار مثل (دوركهايم)^١ و (فيبر)^٢ تحليلاً للظواهر الدينية من منطلق علم الاجتماع، وتركزت دراساتهم على المجتمع المعاصر والتغيرات العميقة التي طرأت على الدين من جرائه^٣.

تعد محاولات علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا في الوصول إلى شرح للدين ودوره في المجتمع جزءاً من التوجه العام في الأنثروبولوجيا الاجتماعية نتيجة التحول من أفكار البناء إلى أفكار الفعل. جاء هذا بدوره نتيجة لتجدد الاهتمام بالتغير الاجتماعي الناتج من الحركات (الدينية - السياسية) أو الحركات الدينية المؤثرة في السياسة^٤.

^١: دوركهايم (١٨٥٨ - ١٩١٧ ميلادي).

^٢: ماكس فيبر أو ويبر (١٨٦٤ - ١٩٢٠ ميلادي).

^٣: الأديان في علم الاجتماع، جان بول ويليم، ص ٩.

^٤: مع سلبية هذه الشروح وتطرفها وانحيازاتها المادية.

يؤكد العالم (لييك) في كتابه المسمى (اصول الحضارة) انه كانت لدى اقل الشعوب تحضراً مرحلة أولى كانت خلواً من كل ديانة على وجه الاطلاق، لكن المتأخرين من المستكشفين لم يعترفوا بالامثلة التي ضربها (لييك) فهم يقولون انه ليس ثمة وجود على الاطلاق لأثر من اللادينية المزعومة لدى الانسانية البدائية^١.

أما من جانب الدراسات الأنثروبولوجية الخاصة بالدين فقد شكّلت الظاهرة الدينية محوراً أساسياً في الدراسات الرائدة في العلوم الاجتماعية مثل علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، وذلك لأن الرواد الأوائل لهذين العلمين في أوروبا كانوا مدفوعين بدافع البحث عن بدائل للانهيارات في المؤسسات الدينية بسبب الثورة الصناعية و الثورة السياسية التي حصلت منذ منتصف القرن الثامن عشر، وكأنهم كانوا يبحثون عن علم أخلاق بديل للأخلاق التي كانت تفرضها المنظومات الدينية.

إن المادة التي استخدمها العلماء الرواد في مجال الأنثروبولوجيا ودراسة الظواهر الدينية، هي تقارير استخدمها هؤلاء العلماء من أجل إثبات نظرياتهم.

ان هذه التقارير لم تكن مليئة بالمغالطات فحسب، بل لقد كانت انتقائية تماماً وهذا هو صلب الموضوع. فالرحالة والمغامرون والضباط الإستعماريون كانوا يبحثون عن كل ما هو غريب وجذاب وملفت للمجتمع الغربي ليركزوا عليه ملاحظتهم و مذكراتهم، وهكذا كان للسحر والطقوس

^١: نشأة الدين ، النظريات التطورية والمؤلفة ، علي سامي النشار ، ص ٣٠.

الدينية البدائية و الغيبيات الحصة الاكبر في هذه الكتابات، بل نستطيع القول إنها شكّلت تسع اعشار دراسة المجتمعات البدائية^١.

إن اعتماد الرواد على (التاريخ الظني) أو الافتراضي أوقعهم في كثير من الأخطاء، لأنهم كانوا يحاولون رسم خط التطور التصاعدي للمجتمعات الإنسانية من أوطأ درجات سلم التطور الذي اعتبروا أولى خطواته هي المجتمعات البدائية المعاصرة لهم، و تعاملوا معها على أنها نوع من المتحجرات الاجتماعية، معتمدين على طريقة قياس أثبتت خطأها، وهي أن المجتمعات المتخلفة تقنياً لا بد و أن تكون نظمها الاجتماعية بدائية مثل تقنياتها، بينما اثبت العلماء اللاحقون أن كثيراً من نظم و انساق المجتمع البدائي كانت متطورة و عملية، فالفن البدائي مثلاً متطور إذا ما تعامل معه الناقد بموضوعية، و كذلك نظم الادارة و الحريات الفردية التي يعيشها الفرد في ضمن بدنته الاجتماعية^٢.

و لو جئنا إلى واقعنا (العربي - الإسلامي) - على سبيل المثال - لوجدنا بأن أغلب الكتب العربية التي تدور حول الديانات الأخرى - كتاريخ و دراسة - قد كتبت بطريقة (حجبية) أو (محاجباتية)^٣ و ذلك لإثبات عدم صحة تلك

^١: نظريات الدين البدائي، إدوارد ايفان ايفانز بريشارد، ص ١٥٢.

^٢: البدائية، اشلي مونتيانو، ص ٢٥٠ - ٢٥٢.

^٣: حاج: (فعل)، حاج يحاج، حاجج / حاج، مُحاجَّةٌ و حجاجاً، فهو مُحاج، والمفعول مُحاجَّ - للمتع -

حاجَّ الشَّخصُ: أقام الحُجَّةَ والدَّلِيلَ لِيُثْبِتَ صَحَّةَ أمر، برهن بالحُجَّةَ والدَّلِيلَ ليقنع الآخرين حاجَّ الشَّخصُ: جادله وخاصمه، نازعه بالحُجَّةَ، ناظره.

الديانات من المنظور الإسلامي^١. إن هذه الكتب لا تعتمد في دراساتها على تصوير القناعات التي تمتلكها تلك الشعوب حول طبيعة الديانة والقوى الخارقة للطبيعة التي يؤمن بها معتنقوها، فعلى سبيل المثال وعلى الرغم من وجود أكثر من مائتي طائفة مسيحية مختلفة بالمعتقدات والقناعات وطبيعة الإيمان، إلا أنها تدرج جميعها تحت إسم (المسيحية)، وكأن كل هذه الطوائف والكنائس المتعددة تمتلك ذات المعتقد!؟

الدين

يعتبر تعريف الدين من أصعب الموارد على الإطلاق وذلك للتنوع الهائل في الأديان داخل المجتمعات البشرية قديماً وحديثاً. نعم يمكن أن نسعى لتحصيل الوجوه المشتركة والمتقاربة في تعريف الماهية العامة للدين من خلال الوقوف على المشتركات وبالخصوص الروحية والفطرية منها، ومع ذلك فإنه كان من الصعب الحصول على تعريف مشترك وسط هذا الكم الهائل من التنوع البشري. و ظل يدور ما بين الإيمان، والأعتقاد، والطاعة، والإتباع، والعبادة، وبذلك فقد عُرف بملازماته لا بحقيقته.

تصنيف الأديان :

يمكننا أن نصف الأديان بتصنيفات متعددة وفق ما نريده أو ما نريد معرفته منها، وهي بشكل عام تصنف إلى :

^١: بحسب المدعى العام .

- ١- الأديان البدائية : وهي السائد بين الأقوام القديمة، و يدخل فيها الأديان البائدة في الشرق الأوسط.
- ٢- الأديان البسيطة : كالأرواحية، و الطوطمية، و الفتشية.
- ٣- الأديان الفلسفية : كالهندوسية، و البوذية، و الكونفشيوسية.
- ٤- الأديان الوحيانية : كاليهودية، و المسيحية، و الإسلام.
- ٥- الأديان الآرية : كأديان إيران القديمة، و الهند، و الروم، و اليونان القديمة.

٦- أديان الشرق الأقصى : كالطاوية، و الشنتو.

مع العبادة من أجل فهم صحيح لها

علينا و عند القيام بممارساتنا العبادية أن لا يكون همنا الأول و الأخير شكلها الخارجي و مظهرها ، و لا رأي الناس بها ، بل لا بد أن يكون الأساس فيها هو رضا الله تعالى و مدى مقبوليتها عنده سبحانه تعالى .

إن من أهم أسرار العبادات هو تطبيق ما أمر الله تعالى به ، و اجتناب ما نهى عنه بالقول و العمل ، ظاهراً و باطناً .

كما و من أسرارها الطهارة ، إذ لابد لكل عبادة من طهارة بنحو من الأنحاء ، و الطهارة في الواقع تُحقق المحبوبة و المقبولية على طريق كمالها .

قال تعالى : ((وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ)) التوبة (١٠٨).

و الطهارة لا تتحقق بالماء فقط ، و لا تختص بالظاهر ، بل المراد حقيقتها المتمثلة بالطهارة الداخلية ، كالطهارة من الانانية و حب الذات ، فليس هناك من عدو للإنسان أكبر من العدو الداخلي ، أي النفس ، و ليس

هناك من خبث أكبر من خبث النفس. لقد جاءت العبادات بما بها من اسرار روحية لإنقاذ الإنسان من الأمراض النفسية الفتاكة.

قال تعالى : ((وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)) طه (١٢٤).

إن تعاليم الدين الحنيف جاءت لتطهير الإنسان ، فهو عندما يصلي و يصوم و يجاهد و يزكي ، كل ذلك يفعله من أجل أن يتطهر ليكون نقياً و خالصاً من الغرور.

كما و إن ميدان التسابق إلى الله تعالى لتحصيل رضوانه مفتوح أمام الجميع ، فهو ليس حكراً على أحدٍ دون أحد ، و ليس مغلقاً بوجه أحدٍ أبداً. فنحن ننوجه له تعالى و نقول : (و اجعلني من أحسن عبيدك نصيباً عندك ، و أقربهم منزلة منك ، و اخصهم زلفة لديك...)¹. إن الطريق لم يغلق بوجه أحد ، و لن يغلق أبداً ، و الطرق إلى تحصيل رضوان الله تعالى (بعدد أنفاس الخلائق)².

لذا فلزاماً علينا أن نسعى إلى معالي الأمور لتحصيل الأحسن ، و لا نكتفي بالقليل من الأعمال ، بل نظل في حركة دائمة ليكون غدنا أفضل من يومنا ، و أن نسعى إلى أن يتطور عملنا و يرقى في كل يوم إلى مرتبة أعلى. فعن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) : ((إن الله يحب معالي الأمور و يكره سفاسفها))³.

¹: دعاء كميل ، كتاب مفاتيح الجنان في الأدعية والزيارات ، الشيخ عباس القمي (رحمه الله) .

²: أسرار الحكم ، الحكيم السبزواري ، ص ٣٥٦ .

³: معجم الطبراني الكبير ، ج ٣ ، ص ١٣١ .

إن الله سبحانه و تعالى يحب ذوي الهمم العالية ، و الأفكار الصحيحة. على أن يكون دستورنا الروحي هو القرآن الكريم ، و أحاديث أهل البيت (عليهم السلام).

إن القرآن الكريم يدلنا على الجانب الروحي للعبادات ، لننتقل منه إلى معرفة بقية الأحكام ، فقد بدأ القرآن الكريم بالطهارة وصولاً إلى بقية الأحكام الإلهية صعوداً ، و الظاهر من هذه الأحكام أن الله تعالى يريد للإنسان أن يكون عبداً خالصاً له تعالى لا لسواه.

قال تعالى : ((وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)) الذاريات (٥٦). إن هناك ملاحظة مهمة لا بد من التنبه لها، ذلك بأن لا يدعونا الاهتمام الزائد بالعبادة و التأكيد عليها - إفراطاً - أن نكون من الدعاة إلى الرهبانية ، و الانزواء ، و بالتالي إهمال كافة المسؤوليات الإنسانية و الاجتماعية من الركون إلى الصوامع ، و العيش في انزواءٍ عن المجتمع.

إن الإنسان مخلوق اجتماعي ، و تكامله المادي و المعنوي مبني على هذا الأساس ، و ما جاءت به الأديان السماوية لا ينافي دور الإنسان في المجتمع ، كما و أن هناك فرقاً واضحاً و جلياً بين الزهد و الرهبانية ، فالزهد - اسلامياً - يراد به البساطة في الحياة ، و الابتعاد عن الكماليات ، و عدم الوقوع في أسر المال ، أما الرهبانية فتعني الانفصال و الغربة عن المجتمع وسط أعمال و تعاليم بعيدة عن أي تشريع. فالزهد يدعو إلى التحرر من الماديات و الترفع عن المغريات في جهادٍ مع النفس لتحصيل الرقي الروحي المنشود.

قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) : ((... إنما رهبانية أمتي

الجهاد في سبيل الله))^١.

و قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) في كلامه عن حكمة العبادات : ((حرس الله عباده المؤمنين بالصلوات و الزكوات و مجاهدة الصيام في الأيام المفروضات ، تسكيناً لأطرافهم ، و تخشيعاً لأبصارهم ، و تذليلاً لنفوسهم ، و تخفيضاً لقلوبهم ، و إذهاباً للخيلاء عنهم ، و لما في ذلك من تعفير عتاق الوجوه بالتراب تواضعاً ، و التصاق كرائم الجوارح بالأرض تصاغراً و لحوق البطون بالمتون من الصيام تذلاً ، مع ما في الزكاة من صرف ثمرات الأرض و غير ذلك إلى أهل المسكنة و الفقر))^٢.

و هنا نود الكلام عن سياق عبادي معين يحدده لنا الامام موسى بن جعفر الكاظم (عليه السلام) إذ يقول : ((اجتهدوا في أن يكون زمانكم أربع ساعات : ساعة لمناجاة الله، و ساعة لأمر المعاش، و ساعة لمعاشرة الاخوان و الثقة الذين يعرفونكم عيوبكم و يخلصون لكم في الباطن، و ساعة تخلون فيها للذاتكم في غير محرّم. و بهذه الساعة تقدرون على الثلاث ساعات))^٣.
على أن العبادة و الدين قائم على (شعائر) خاصة به تمثل دستوره، و توضح حقيقته، و تبين أهدافه.

قال تعالى : ((ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ))

سورة الحج، الآية (٣٢).

ما لهذه الشعائر من دور في تثبيت الاعتقادات، و الحفاظ على

^١ : بحار الأنوار، المجلسي، ج ٧٠، ص ١١٤، ح ١.

^٢ : نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

^٣ : تحف العقول، ص ٣٠٢.

الثقافات الدينية الخاصة ضمن اطار (المحاكاة) و (القدوة) و (الأنموذج).
 (إن عمليات المحاكاة تؤدي من متساوقٍ و متوالٍ، دوراً مهماً في نجاح الفعل الشعائري، فخلال عرض الشعائر يرتبط المشارك فيها في نفس اللحظة و مباشرة بأفعال المشاركين الآخرين فيها، و يحصل ذلك جوهرياً بصورة محاكية عن طريق الحواس و حركات الجسد و العلاقة المشتركة بالكلمات و النغمات و اللغة،... إن عمليات المحاكات ينتج عنها توسيع أفق الأشخاص الذين يسلكون سلوكاً يحاكي الممارسة الشعائرية، و تؤدي هذه الحالة إلى انتاج مماثلة مع الأفعال المشعرية، فتؤدي خلالها جسديتهم و طابعهم الانشائي دوراً مهماً، و في هذه العمليات المحاكية تتجسد التشكيلات الشعائرية و المناظر و سلاسل الأحداث و الصور و نماذج الفعل، و هي بمقتضيات أخرى تمكن من صوغ كفاءة الأشخاص في الممارسة المشعرية)^١.

^١ : علم الأناسة : التاريخ و الثقافة و الفلسفة ، كريستوف فولف ، ترجمة : ابو يعرب المرزوقي ،

التوحيد والشرك الأسبقية والمنشأ

إن الإنسان ومنذ أول يوم نزل فيه إلى الأرض كان موحداً ، وعابداً ، ومطيعاً لله سبحانه و تعالى ، إلا أنه و بعد سنوات من التوسع ، والتكاثر ، و مع كثرة المتطلبات و الاحتياجات ، وما ألت إليه المجتمعات من انقسامات ، وهجرة مما أدى إلى تعدد الشعوب ، و إلى تشعب الجماعات ، و تفرق القبائل ، و تكثر اللغات و اللهجات.

نتيجة لكل ذلك ابتعد الإنسان عن سيرة أبيه الأول آدم (عليه السلام) ، وعن نهجه و شريعته. فخسر الأمان الذي كان يظله، والبركة التي كانت لديه. فعرضت له أزمات و نكبات ورأى أهوالاً و أشياء مخيفة جعلته يفكر في كيفية توفير الحلول لها.

الا أن الحلول كانت فردية تدل على قصر نظره ، و اعتماده على حواسه المجردة ، فما كان من الشيطان الا أن يتدخل - فهذه فرصته - لإبعاد هذا الإنسان عن الطريق الصحيح. فبدت للعيان ظاهرة جديدة ألا وهي عبادة غير الله تعالى ، ابتدأت بعبادة الطبيعة وانتهت بنصب وعبادة الأوثان و الأصنام مما زاد في اختلاف الناس و تكثر مذاهبهم في ذلك ، و أدى إلى تمردهم على الفطرة السليمة ، وابتعادهم عن العبودية الأصيلة لله سبحانه و تعالى.

يقول الفيلسوف الأمريكي (ماكس مولر)^١ : (أن هذه الآلهة المجسمة ليست إلا تمثيلاً طراً على الإنسان ، بعد تلك الفكرة الطبيعية. وبناء على هذا

^١ : ماكس مولر أو مولر : (١٨٢٣ - ١٩٠٠ م) عالم ألماني ، ولد في مدينة ديساو الألمانية ، أهتم باللغة السنسكريتية الهندية القديمة . أسهم في الدراسة المقارنة في مجالات اللغة و الدين و علم الأساطير ، على الرغم من أن علماء العصر الحديث قد نبذوا الكثير من نظرياته . سافر إلى المملكة المتحدة سنة (١٨٤٦ م) وعاش فيها بقية حياته ، عمل استاذاً للغات الأوربية الحديثة

فقد ركع آباؤنا و سجدوا أمام الله الحق حتى قبل أن يجسروا على الإشارة إليه باسمه^١.

كل ذلك كان بفعل أسباب متعددة منها على سبيل المثال :

١- عبادة الهوى.

قال تعالى: ((أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)) الجاثية (٢٣).

٢- اتباع الشيطان إلى حد العبودية له.

قال تعالى: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)) البقرة (١٦٨).
و قال تعالى: ((أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)) يس (٦٠).

فما كان من الله سبحانه وتعالى ، وبعد شيوع كل ذلك الاختلاف إلا أن يبعث الأنبياء و الرسل (عليهم السلام) لإرجاع الإنسان إلى أصله الأول ، و إلى فطرته السليمة.

قال تعالى: ((كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا

بجامعة أكسفورد من سنة (١٨٥٤) حتى سنة (١٨٦٨) ، على الرغم من عمله المتعلق بالفلسفة واللغات والديانات الهندية ، إلا أنه لم يزر الهند أبداً في حياته
^١: أصل الدين وارتقاؤه ، ماكس مولر ، ص ٢٣ .

اِخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)) البقرة (٢١٣).

فكان هذا الاختلاف امتحاناً للإنسان.

قال تعالى : ((وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ*)) هود (١١٩).

إن دور الأنبياء و الرسل (عليهم السلام) هو إزالة حالة الشرك لدى المجتمعات، و إرجاع الناس إلى الفطرة السليمة.

ف((عندما يذكر القرآن قصص نهضة الأنبياء العظام فإنه يؤكد في عدة مواضع على هذه النقطة ، وهي : أن الرسالة الأصلية للأنبياء تتمثل بإزالة أثار الشرك و الوثنية. و ليس إثبات وجود الله، لأن هذا الموضوع مخبأ في أعماق فطرة كل إنسان))^١.

وهذا جلي واضح للمتصفح لآيات القرآن الكريم الموضحة لدعوات الأنبياء و الرسل (عليهم السلام) لأقوامهم ، فالأصل في كل الدعوات واحد ألا وهو : الرجوع إلى الله سبحانه و تعالى و طاعته و عبادته.

قال تعالى: ((وَسئَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَ جَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ)) الزخرف (٤٥).

و قال تعالى: ((فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)) الروم (٣٠).

^١ : نفحات القرآن ، ناصر مكارم الشيرازي ، ج ٢ ، ص ٢٧ - ٢٨ .

فالمتحصل : إن نشأة الإنسان الأولى قائمة على التوحيد ، أما الشرك فأمر عرضي في حياة الإنسان ، فالإنسان موحد بالفطرة. فالمتصفح للحقائق التاريخية - غير المحرفة - يجدها تدل و بشكل قاطع على وجود الدين لدى الإنسان و منذ القدم ، وأن الإنسان الأول و المجتمعات الأولى كانت موحدة، ومعرفة بوحدانية الله سبحانه و تعالى.

يقول الأستاذ الشهير (هرشل) : (كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزلي لا حد لقدرته و لا نهاية...)¹. كما ويقول المؤرخ الكبير (ويل ديورانت)²: (.. فأن الإلحاد الديني من الحالات النادرة وهذا الاعتقاد القديم بأن التدين حالة بشرية عامة يتطابق مع الحقيقة)³.

ويقول الفيلسوف الأمريكي (ماكس مولر) : (خلافا لما تقوله النظرية الشهيرة بأن الدين ظهر أولا بعبادة الطبيعة، و الأشياء ، و الأصنام ثم وصل إلى عبادة الله الواحد ، فلقد اثبت علم الآثار بان عبادة الله الواحد كانت سائدة منذ أقدم الأيام)⁴.

إذن فالإنسان الأول و المجتمع الأول كان موحداً ، أما الشرك فأمر عارض دخل على المجتمع الإنساني. إن الصراع ما بين الشرك والتوحيد صراع أزلي ، ومستمر على طول حياة بني الإنسان.

(ولذا كانت روح الشرك و الوثنية سارية في المجتمع الإنساني سراية

¹: الدعوة الإسلامية ، محمد حسين آل كاشف الغطاء ، ج ١ ، ص ٨٢.

²: ويل ديورانت (١٨٨٥ - ١٩٨١ م) .

³: قصة الحضارة ، ويل ديورانت ، ج ١ ، ص ٨٧.

⁴: الفطرة ، مرتضى مطهري ، ص ١٤٨.

تكاد لا تقبل التحرز و الاجتناب حتى في المجتمعات الراقية الحاضرة وحتى في المجتمعات المبنية على أساس رفض الدين فترى فيها من النصب و تماثيل الرجال و تعظيمها و احترامها و البلوغ في الخضوع لها ما يمثل لك وثنية العهود الأولى و الإنسان الأولي^١.

إن المتتبع لحالة الصراع المحتدم على مر العصور بين جند الرحمن و جند الشيطان ، يلحظ ان جوهر الصراع يكمن في : (من الذي تكون له العبودية ؟).

فنعلم و بما لا يقبل الشك ان صراع التوحيد ضد الشرك هو منهج الرسالات الإلهية إزاء الملاء المستكبر ، والطاغوت المتجبر. نعم لقد كان هذا الصراع يمثل خطأ ثابتاً في المنطق القرآني ، حيث يدعو لتخليص الناس من الشرك و عبودية العباد و الشهوات ، ليرتقي بهم إلى عبودية الله سبحانه و تعالى رب العباد و خالقهم و سيدهم.

يقول مولى الموحدين أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب (عليه السلام) : ((... أما بعد، فإن الله بعث محمداً صلى الله عليه و آله ، ليخرج عباده من عبادة عباده إلى عبادته ، و من عهود عباده إلى عهوده ، و من طاعة عباده إلى طاعته ، و من ولاية عباده إلى ولايته))^٢.

قال تعالى: ((وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ)) النحل (٣٦).

^١ : الميزان ، الطباطبائي ، ج ١٠ ، ص ٢٩٣ .

^٢ : الكافي ، الكليني ، ج ٨ ، ص ٣٨٧ .

فالصراع مع الشرك و أتباعه و أدعياءه هو الأصل و الأساس، و ذلك لأنهم العقبة الكئود في طريق الأنبياء و المرسلين (عليهم السلام)، الذين بعثهم الله عز و جل لإنقاذ الإنسان من الضلالة و الجهالة و الضياع. والهدف من وراء كل ذلك كما يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) هو: ((... لنرد المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك...))^١.

فصراع التوحيد و أولياء الرحمن، ضد الشرك و أدعياء الشيطان، يمثل الهوية المتكررة في كل زمان و مكان، نحو الحقيقة المتمثلة في العبودية الخالصة لله سبحانه و تعالى.

قال تعالى: ((لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)) الحديد (٢٥).

وأساساً فإن ملحمة الصراع الفكري و المبدئي بين التوحيد و الشرك تمثل رأس المواجهة و سنام المعركة و ذروة الاحتدام و قمة التحدي، حيث يقوم التوحيد بفضح الأفكار الضالة، و المفاهيم المنحرفة و مواجهتها بجدية و صراحة، في الدعوة إلى نبذ الشرك و التخلي عنه، والعزوف عن متبنياته، والخروج من دائرة تأثيراته، و اعتباره سلطاناً غاشماً على العقول، و سرطاناً فتاكاً للنفوس.

216

قال تعالى: ((إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا)) النساء (١٦٧).

^١: نهج البلاغة.

سابعا : الأنثروبولوجيا الإستعمارية

إن الفعل الإستعماري قديم قدم التجمعات البشرية، ولا يمكن لقائل أن يقول بأن الإستعمار قد اتخذ في البداية معنى ايجابياً ثم تحوّل إلى السلب فيما بعد. فباستثناء تعمير المناطق غير المأهولة - على سبيل المثال - فإنه توافقت مع الفعل الإستعماري ردود أفعالٍ شتى كالإستهجان، و التنديد، و الاستنكار، و المعاداة الصريحة، مضافاً إلى ردود أفعال المناطق المستعمرة، و كذلك ردود أفعال بعض أفراد المجتمع الاستعماري نفسه.

إن ارتباط نشأة الأنثروبولوجيا ، و بداياتها التاريخية بالاستعمار ، حيث كانت الدراسات تتم على المجتمعات غير المتحضرة بهدف معرفة بنيتها التركيبية ، و طبيعتها الثقافية ، ليسهل استعمارها ، فأصبحت (الأنثروبولوجيا) أداة استعمارية بامتياز هدفها تسهيل مهمة الاستعمار في السيطرة و استعباد الشعوب.

ف(الإستعمار) (Colonization) هو : الاستغلال و الاضطهاد السياسي و الاقتصادي و النفوذ الثقافي اللذان تتعرض لهما بلدان هي عادة أقل تطوراً في المجالات الاقتصادية و الاجتماعية من الطبقات السائدة في الدول المستعمرة و التي تكون أكثر تطوراً.

ظهر بعده مصطلح : (الإستعمار الجديد) و هو : السياسة الكولونيالية التي تنتهجها الدول الامبريالية في ظروف تفكك و انهيار النظام الكولونيالي ، و تعاظم حركة التحرر الوطني ، حيث تعتمد الدول الامبريالية إلى المحافظة على جوهر السيطرة الكولونيالية (الاستعمارية) باللجوء إلى أساليب اقتصادية و سياسية و عسكرية و ثقافية عديدة تنسجم مع الظروف الجديدة ، هدفها إخضاع الأقطار المتحررة حديثاً (المستعمرات السابقة) إلى السيطرة الفعلية

للامبريالية ، لكن بصورة جديدة و أسلوب جديد مخادع، و تحت عناوين اكثر خداعاً.

لا يمكن إنكار دور المدرسة الأنثروبولوجية التي نشأت في ظل الإستعمار و التي خدمته، و قدمت له المعلومات اللازمة حتى يتمكن من السيطرة على الشعوب المستعمرة و تحقيق مصالحه على حسابها و حساب مستقبلها.

و إذا، كان تاريخ العلم الأنثروبولوجي لا ينكر على الإطلاق أن المدرسة الإستعمارية، و خاصة تلك الموجودة في ردهة من ردهات الخارجية البريطانية لعبت دوراً مهماً في تأسيس العلم الأنثروبولوجي، و من ثم تطويره. إلا أن بعض علماء هذا العلم كانت تتنازعهم رغبة التحرر من هذه المدرسة، و الانطلاق إلى دراسة المجتمعات مدفوعين بغايات إنسانية و منهجية، من أجل أن يفهم العالم نفسه، و ما له و ما عليه، و ما هو المطلوب منه حتى يظفر بالتقدم و خاصة المجتمعات الأقل تطوراً و تقدماً في امريكا اللاتينية و آسيا و أفريقيا^١.

لقد تحولت (الأنثروبولوجيا) أداة بيد السلطة، أو بالأحرى أداة بيد السلطات الحاكمة في البلدان الأوروبية التي كانت تشهد مع توسع البحث الأنثروبولوجي توسعاً جغرافياً مذهلاً حملها من حدودها الضيقة لتجد لها في كل جهة من جهات الأرض موطن قدم، و مواقع، و مساحات جغرافية تفوق مساحتها الأصلية بمرات. إن العصر الإستعماري الكلاسيكي، هو عصر البحث

^١: بحث من أجل مدرسة عربية في الأنثروبولوجيا النقدية ، عز الدين دياب ، ص ٢ ، الفكر السياسي ، ص ٢٢٢ .

عن مستعمرات، و أسواق، و عن أيدي عاملة، و عن مواد خام، و عن زبائن جدد يشتررون صناعات غير متوفرة في أراضيهم كل هذا كان المنطلق الاساس للسياسات الإستعمارية الأولى. و الإستعمار - بشكل عام - لم يكن عسكرياً و حسب، بل كان إستعماراً شكلت الثقافة و في أكثر الأحيان سلاحه الأمضى.

يقول (جيرار لكرك): (إن موقف الأنثروبولوجيا الإستعماري لم يتوضح بالفعل إلا بعد أن بدأت مرحلة إنهاء الاستعمار في العالم الثالث... يمكن القول إذن إن الإمبريالية الإستعمارية المعاصرة تتوافق زمنياً مع الأنثروبولوجيا المعاصرة...)^١.

لقد بدأ علم الأنثروبولوجيا و تحت تأثير الإستعمار المصطبغ بالصبغة الدينية المسيحية (التبشيرية) بالتعرف على الشعوب - التي سيستعمرها و من كل جوانبها - لكي يتعرف على كيفية التعامل معها، و بالتالي الهيمنة عليها.

لقد اعتمد المستعمرون - و تحت تأثير المؤسسات التبشيرية - على علماء الأنثروبولوجيا في دراسة ديانات الشعوب، و طباعهم الاجتماعية و النفسية، و مواردهم الاقتصادية، كي يعرفوا كيف تفكر هذه الشعوب، و كيف تعيش، و ما هي أهدافها، و ما الذي يمكن أن يجتذب الناس في هذه المجتمعات. و مما لا شك فيه أن الدراسات التي قام بها علماء الإنسان لهذه البلدان قد أفادت الدوائر الإستعمارية فائدة كبرى في تسهيل السيطرة عليها، فكانت نتيجة ذلك انطلاق الحركة الإستعمارية الكبرى و التي طالت أكثر من نصف الكرة الأرضية.

لا شك في أن مشروع (عسكرة الأنثروبولوجيا) الذي اعتمده الجيش

^١: الأنثروبولوجيا و الإستعمار، جيرار لكرك، ص ١٢.

الأمريكي - على سبيل المثال - في حروب العراق و افغانستان تحت ما يسمى
 برنامج (إقحام علماء الأنثروبولوجيا في ميدان الحروب) (HTS) يمثل أوضح
 صور توظيف الأنثروبولوجيا التطبيقية في ميدان الحروب و النزاعات.

و يشرح العقيد الأمريكي (ستيفن فونداكارو) أهداف هذا المشروع
 بالقول : (إن مهمة العلماء تقوم على تقديم فهم واضح للمشكلات التي
 يواجهها الجيش مع السكان المحليين، حيث يتلقى الضباط هذه المعلومات و
 يقررون بموجبها طبيعة الإجراءات العسكرية التي عليهم اتخاذها).^١

لقد أسست الدول الإستعمارية مراكز للبحوث و الدراسات و أوكلت
 مهامها للأنثروبولوجيين المنضوين تحت سلطتها لدراسة ثقافات الشعوب و
 كل ما يتعلق بذلك وفق رؤيا ايديولوجية بامتياز.

لا يمكن إنكار الخدمات المتبادلة بين الإستعمار و الأنثروبولوجيا،
 فكما قدمت الأنثروبولوجيا خدمات جلييلة للحركة الاستعمارية، فلقد
 استفادت الأنثروبولوجيا من الحركة الإستعمارية و التي كان لها أثر كبير في
 (تقدم الدراسات و المناهج الأنثروبولوجية. فمن المعروف أن القرن " ١٩ "
 كان يمثل قرن التوسعات الإستعمارية بهدف استعمار المجتمعات البدائية من
 أجل احكام السيطرة عليها و استغلالها سياسياً و اقتصادياً و ثقافياً و دينياً، و من
 هنا نشطت الدراسات الأنثروبولوجية بأهدافها النظرية و التطبيقية متخذة من
 هذه المجتمعات الصغيرة مجالاً لدراساتها).^٢

^١: في الأنثروبولوجيا والمجتمع ، عسكرة الأنثروبولوجيا ، كامل جاسم المراتي .

^٢: المدخل إلى الأنثروبولوجيا ، وسام العثمان ، ص ٧٢ .

نعم، لقد شغل (إيفانز بريثارد)، و (ليتش)، و (نادل) وظائف في المستعمرات، كما و ان (هنري مين) العضو القانوني في مجلس نائب الملك في الهند يعد واضح أسس علم الإنسان الخاص بدراسات القرية في الهند كما في كتابيه (القانون القديم - ١٨٦١ ميلادي) و (مجتمعات القرى في الشرق و الغرب - ١٨٧١ ميلادي). و كذلك (ليال) الذي أصبح فيما بعد حاكم المقاطعات الشمالية الغربية فقد قام بنشر كتابه (دراسات آسيوية : عقائدية و اجتماعية - ١٨٨٢ ميلادي).



الفصل الثالث



نحو علم إنسان إسلامي

إن الباحث في علم ما و من يريد تأصيل علم ما عليه أن يراعي عدة أمور ، و التي قد تمثل (العوائق) التي تقف في وجه التقدم و التطور العلمي ، كما و أن جملة من هذه العوائق وضعها و أسس لها ما يشاع تسميته بـ(النخبة المثقفة) بقصدية ، أو بسذاجة ، أو بتماهي ، و من جملة هذه العوائق:

١- تقليد الغرب في مجال نظريات العلوم بسبب التأثير الأيديولوجي ، و الذي يتزعمه تيارين رئيسيين هما (التيار الماركسي) ، و (التيار الليبرالي) ، و بالتالي نرى بأن التماهي يأتي بشيء مقارب أو موافق أو مطابق لإحدى هذه النظريات و كأنه جاء بشيء جديد ، و كأن الذي جاء به هو العلم و ما دونه الجهل.

ف(مما يؤسف له أن الكثير من النظريات و المفاهيم التي تولت دراسة مجتمعاتنا لم نقم بها ، بل نعول فيها على غيرنا ، و مدارسنا تعتمد على الجاهز، و ليس على توظيف رأس المال الحقيقي...)¹.

٢- مراوحة (العالم) ، أو (المنظر) ، أو ما يسمى بـ(صاحب الاختصاص) ، أو (المعلم) على نفس المنهج الذي درسه ، و الذي يُدرّسه ، بدون أن يظهر أي عنصر تطوري ، أو إبداعي ، أو تجديدي متمخض عن فهمه للعلوم التي حفظها عن ظهر قلب ، و التي هو (مختص بها).

٣- النقل ، و التفريع ، أو بالأحرى (الإجتراح) من المدارس ، و النظريات الأخرى (السابقة)، و (القديمة) ، و قولبتها في قوالب معروفة مسبقاً ، و هي في الحقيقة بعيدة كل البعد عن الواقع العلمي ، و عن التطور الزمني،

¹: الإسلام و الأنثروبولوجيا ، أبو بكر أحمد باقادر ، ص ٤٠ .

والمكاني ، و البشري، بل و حتى الحضاري.

٤- عدم وجود تيار ثقافي يهتم بدراسة مُثل ، و قيم المجتمع الإسلامي الحقيقي داخل المجتمعات المسلمة ، بل نرى إستعمالاً مفرطاً للنماذج الغربية بما فيها من قيم و آراء ، و معتقدات بعيدة كل البعد عن واقع المجتمع الإسلامي و مبادئه ، و أسسه ، و أعرافه. بل إن هناك الكثير من الآراء ، و المعتقدات الموجودة في المجتمع الغربي هي وليدة ظروف معينة لا يوجد مثل أو مطابق لها في المجتمعات الإسلامية حتى نأتي بها كـ(العلمانية) على سبيل المثال. هذا من جانب.

أما من الجانب الآخر ، ألا و هو ما يسمى بـ(أسلمة العلوم) فما هي إلا دعوات تعيش ضبابية خائفة، و يثار عليها الكثير من علامات الاستفهام، فالإسلام يشجع على العلم و المعرفة، فهو دين (إقراء) و (القلم) فلا نحتاج إلى أسلمة علومٍ ليست مكلفة شرعاً بـ(نطق الشهادتين).

تعتبر محاولات السيد محمد باقر الصدر (رحمه الله) الأساس و المنطلق لمضمار توضيح الأسس الإسلامية الخاصة بتناول العلوم ، و الذي تجلّى واضحاً في كتابيه (فلسفتنا) ، و (إقتصادنا). كذلك تعتبر محاولات الشيخ مرتضى المطهري (رحمه الله) رائدة في هذا المضمار. لذا و من اللازم علينا أن نجعل هذه المحاولات ، و غيرها المنطلق لحركة علمية هدفها (توضيح رأي الإسلام بالعلوم جميعها).

إن (علم الإنسان الإسلامي) غير موجود في عالمنا الإسلامي ، إذ إننا نفتقر إلى دراسات رصينة في مجال (الأنثروبولوجيا) و بالخصوص الأنثروبولوجيا الإسلامية.

يقول الأستاذ (تقي زادة) مسؤول مركز الدراسات الشيعية : (إن مسألة المعتقدات مثلاً تدرس لكن بأسلوب إجتماعي علمي ، بل في مضمار كلامي ، و هنا يكمن النقص في ذلك ، كذلك الحال بالنسبة للمطالعات في الفقه و الحديث و الفلسفة و العرفان ، لكن هناك مجالات مفتقدة كعلم الاجتماع مثلاً ، أو علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) الشيعية ، فلا يوجد لها حيز في الحوزة إطلاقاً ، وليست الحوزة وحدها ، بل في جميع مؤسسات البلد ، و بعد عامين أو أقل وصلت إلى نتيجة تقول ؛ إنه لا يوجد أي بلد يمارس هذا العمل أساساً...)^١.

نعم، (لقد ظل علم الإنسان الغربي ردحاً من الزمن أسير نظرة ثقافية محدودة إلى الحقائق و الإنسان ، حتى أنه لم يكن يعرف معنى الإنسان إلا من خلال الرؤية الثقافية الغربية العوراء التي لا مصدر لتكوينها إلا الوجود الحسي ، و أما الوحي و هو المصدر الأهم للمعرفة عند الإنسان المسلم فلم تكن ترى فيه مصدراً للمعرفة أو الثقافة ، و لا تزال هذه الرؤية الخاطئة هي المسيطرة حتى الآن)^٢.

فالواجب على (أصحاب الاختصاص) ، و (أصحاب القرار) أن يقدموا على بلورة و تأسيس (علم إنسان إسلامي) نابع من خلال النظرة الإلهية لهذا الكائن ، و التي تنطلق من كتاب الله تعالى (القرآن الكريم).

إن على (علماء الإنسان) المسلمين أن يقدموا هذا العلم بنظرة و منهجية قرآنية ، و التي قوامها تكريم الإنسان ، و رفع مكانته ، فهو خليفة الله

^١ : مجلة المنهاج ، العدد ٣٩ ، ص ٧٩ .

^٢ : نحو علم الإنسان الإسلامي ، أكبر أحمد ، ص ١٢ .

في أرضه ، و حامل الأمانة الإلهية.

ف(على علم الإنسان أن يدرس من جديد الحقائق الأولية البسيطة في المعرفة ، و هي ذاتها الحقائق الأولى في الإسلام فالله - جل ثناؤه - واحد ، و الحقيقة واحدة ، و بنو الإنسان جنس واحد)^١.

و يمكننا أن نعرف علم الإنسان الإسلامي : بأنه دراسة المجتمعات الإسلامية على يد علماء ملتزمين بالمبادئ الإسلامية، على أن لا نستبعد غير المسلمين من تلك الدراسة.

إن (علم الإنسان) يعتبر من الأدوات المهمة في دراسة المجتمع الإسلامي ، فيمكن لهذا العلم أن يقدم المساعدة الكبيرة في فهم المشكلات الاجتماعية ، و إنعكاساتها على الجوانب الأخرى ، و وضع الحلول لها.

لا بد أن نعلم أن المسلمين لا يعيشون وسط فراغ أو أنهم بعيدون عن غيرهم ، أو إنهم فقط سكان هذا الكوكب ، بل إنهم يعيشون في وسط اجتماعي كبير ، و في عالم واسع تنعكس تأثيراته عليهم على مستويات متنوعة و مختلفة منها الداخلي ، و منها الخارجي ، و منها المتسامح ، و منها المحايد ، و منها العدائي. فلا يمكن أن نجعل أمزجة الناس واحدة ، فهم بالأساس متنوعون ، و يتنوعون أكثر فأكثر من حيث الانتماءات المختلفة ، و هذا التنوع يخلق - و بنسبة ما - الاختلاف ، و مع عدم إيجاد الحلول ، أو المبادرة إليها تزداد الخلافات ، و تتوسع ، و تكبر حتى تصل إلى مواجهات ، و حروب ، و ابادات كبرى ، و هذا ما تجلّى واضحاً في الحريين العالميتين (الأولى) و (الثانية) إذ وجدنا أبناء البلد الواحد ، بل و المذهب الواحد

^١ : المصدر السابق ، ص ١٣ .

يحارب بعضهم البعض الآخر بشكل بعيد كل البعد عن روح الإنسانية الحقيقية أو المدعاة.

إن كانت المهمة الأولى و الرئيسية لـ(علم الإنسان) هي مساعدتنا على فهم أنفسنا ، و أن نصل إلى أن الناس جميعاً في جوهرهم وحدة واحدة ، فهذا هو هدف (الإسلام) ، و الذي بينته آيات القرآن الكريم ، و الأحاديث الشريفة.

لذا نرجع و نقول انه و على الرغم من غنى العلوم في التراث العربي ، إلا أن علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) لم يلق الأهتمام اللائق به في الدوائر العلمية ، و البحثية العربية ، كما عليه الحال في المؤسسات العلمية الغربية ، سواء على مستوى البحوث الميدانية التطبيقية ، أو في الدراسات الأكاديمية ، كالدراسات الفلسفية ، و النفسية ، و التربوية.

إن نظرية النشؤ و الأرتقاء ، و كون الأنثروبولوجيا أداة من الأدوات المهمة التي خدمت الإستعمار في طريقه التوسعي ، و أسباب أخرى هي التي شكلت الحساسية من هذا العلم كما أسلفنا¹.

إن مجال الأنثروبولوجيا واسع سعة الحياة ، و يشمل الكثير من مظاهر الحياة الفكرية باتجاهاتها و تياراتها و مذاهبها العديدة ، و هو الأمر الذي لم يفهمه الكثيرون من الأنثروبولوجيين في العالم العربي ، ممن ضاقت آفاق أفكارهم بحيث انحصرت في عدد من الموضوعات التقليدية ، لا يكادون يخرجون عنها ، دون أن يجدوا في أنفسهم الجرأة الكافية على أرتياد ميادين المعرفة المختلفة ، المتنوعة ، و المتباينة ، و قد يكون ذلك راجع إلى ضعف

¹: في مقدمة الكتاب .

في الأعداد العلمي و التكوين الثقافي ، و عدم إدراك مدى اتساع البحث ، و لكنه يرجع - بلا شك - و في المقام الأول إلى قصور في ملكة التخيل ، و إلى الخوف من الانطلاق و المبادرة^١.

لا بد لنا من العمل على صياغة و تأسيس (علم إنسان إسلامي) بامتياز ، يكون بعيداً عن المؤثرات الداخلية ، و الخارجية ، و نابغاً من رحم الدين الإسلامي الأصيل ، أساسه (القرآن الكريم) ، و (الأحاديث الشريفة) ، و التطبيق العملي من حياة المعصومين (عليهم السلام).

و قد بينّا فيما سبق من أبحاث (دور القرآن الكريم) في قضايا الإنسان، و صلته بـ(علم الإنسان) مستشهدين بالآيات القرآنية الكريمة الدالة على ذلك كتطبيق عملي على موضوع (علم الإنسان القرآني).

و هنا نقف عند التصنيف الانثروبولوجي لأنواع الناس عند الإمام علي (عليه السلام) إذ يقول : ((فالناس على أربعة أصناف: منهم من لا يمنع الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه و كلاله حده، و نضيض وفره.

و منهم المصلت لسيفه و المعلن بشره و المجلب بخيله و رجله، قد أشرط نفسه و أوبق دينه لحطام ينتهزه، أو مقنب يقوده، أو منبر يفرغه.

و منهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة و لا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، قد طامن من شخصه، و قارب من خطوه و شمر من ثوبه، و زخرف من نفسه للأمانة و اتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية.

و منهم من أقعده عن طلب الملك ضؤولة نفسه، و انقطاع سببه، فقصرته الحال على حاله، فتحلى باسم القناعة، و تزين بلباس أهل الزهادة

^١ : الطريق إلى المعرفة ، أحمد أبو زيد ، ص ٧.

وليس من ذلك في مراح ولا مغذى.
وبقي رجال غص أبصارهم ذكر المرجع وأورق دموعهم خوف
المحشر، فهم بين شريد ناد، وخائف مقموع، وساك مكعوم، وداع
مخلص، و ثكلان موجع^١.
ففي أحاديثهم (عليهم السلام) الكثير مما قد تطرق لكل ما يختص
بالبشر و بمعيشتهم.

^١: نهج البلاغة، الخطبة: ٣٢.

الأنثروبولوجيا في الفكر الإسلامي

إن المراد بالأنثروبولوجيا في الفكر الإسلامي : دراسة الإنسان و وجوده و طبيعته باعتباره الكائن المتميز في الكون كله، و بيان مكانته بين الكائنات الأخرى وفق الأسس الفكرية الإسلامية، من خلال الكشف عن متناقضاته التي يحويها داخله، فهو أرضي و سماوي، و هو في فرح تارة و في ألم تارة أخرى، يحب و يكره، فهو متغير لا يثبت على حال.

و الأنثروبولوجيا - هنا - تدرس جميع صفاته النافعة و الضارة و الظاهرة و الباطنة وفق أسس القرآن الكريم و السنة النبوية المطهرة.

و هنا لا بد أن نورد نقطتين مهمتين يتعلقان بموضوع الأنثروبولوجيا الإسلامية و هما :

١- إن الإسلام يشدد على ضرورة فهم الإنسان لذاته.

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) : ((معرفة النفس أعرف المعارف))^١.

٢- إن الإسلام يهتم بالإنسان المشخص و الواقعي لا الإصطلاحي أو (المجرد).

إن الألفاظ المجردة و العامة مثل (الإنسانية) و (البشرية) و غيرها أصبحت كثيرة الإستخدام في أيامنا هذه، بحيث أصبحت لا تعني شيئاً سوى الادعاء بالدفاع عن إنسانية الإنسان، في الوقت الذي يعاني فيه الإنسان القمع والاضطهاد و مصادرة الحقوق و الحريات في كل بقاع الأرض جميعاً.

فالإنسان و على الرغم مما هو عليه من تناقض و ازدواجية و غموض

^١ : الغرر والدرر ، الآمدي ، حديث ٥١ .

فهو سيد هذا العالم، و أن العالم موجود لأجله، فهو الذي يستطيع - دون الكائنات الأخرى - التصرف فيه و تسخير لمصلحته.

فكيف أصبح الإنسان سيد الطبيعة ؟ و كيف تمكن من تطويع الطبيعة بما فيها الحيوانات لمصلحته ؟

الجواب : أصبح كذلك لميزة (العقل)، إذ ان الإنسان يختلف عن كل الحيوانات التي ينتمي إلى نفس فئتها^١ بأنه قادر على التفكير و التخطيط. و بالعقل استطاع أن يتغلب على أقوى الحيوانات، و على الطبيعة، و أصبح القادر الوحيد من المخلوقات على استغلال الطبيعة لخدمته رغم ضعفه الواضح مقارنة بباقي المخلوقات.

كما و أن الإنسان كائن أخلاقي كذلك، فالإنسان بالإضافة إلى الغريزة التي تتحكم فيه فهو يتبع قواعد و مبادئ قابلة للتطور حسب ظروف و متطلبات حياته و وجوده.

ف((يمكننا أن نسمي الإنسان كائناً أخلاقياً بينما لا نسمي الحيوان كذلك، إذ لا معنى للحديث عن قيم و مبادئ خلقية و سلوك خلقي، و مسؤولية و جزاء في عالم الحيوانات. و يبدو أن الأخلاق مرتبطة بالإختيار، و يقوم الإختيار على الوعي بمبادئ قواعد يسلك الإنسان وفقاً لها، و لا ترتبط هذه القواعد و المبادئ بالغريزة و الحاجة القريبة دائماً، لكن سلوك الحيوان محدد بحاجاته القريبة فقط))^٢.

^١ : أو جنسها (الفئة الحياتية أو الحيوانية) .

^٢ : في النفس والجسد بحث في الفلسفة المعاصرة ، محمود فهمي زيدان ، بحث في الفلسفة

المعاصرة ، ص ١٦ .

لقد شمل الإسلام بكل تشريعاته الإنسان واهتم به من كل جوانبه المادية، و الروحية، و النفسية، و المجتمعية، و لم يترك جانباً إلا و أكد عليه، فالإنسان بنظر الإسلام وحدة واحدة لا تتجزأ.

إن المسألة الأساس للأنتروبولوجيا في الفكر الإسلامي تكمن في : الربط بين المادة و الروح. و إذا نظرنا إلى الفكر الغربي من هذه الناحية لوجدناه ؛ أما أنه يعلو بالنفس و الروح على حساب الجسد، أو أن يشدد على أهمية الجسد على حساب الروح و النفس.

أما الإسلام فإنه يختلف عن باقي الفلسفات البشرية سواء التي تشدد على جانب الروح و تقلل من الجسد و العكس، لأنه يأخذ في الاعتبار الجانبين الروحي و الجسمي على حدٍ سواء.

و القرآن الكريم الذي يعتبر دستور الإسلام لا ينظر إلى الإنسان على أنه كائن حامل للخطيئة كما في الديانة المسيحية، و لا هو كما تصوره الديانات الأخرى كاليهودية أو الديانات الوضعية الأخرى مجرد مادة و جسد فاني.

فالقرآن و في أصل الخلقة يصف الإنسان بالعز و تسخير كل شيء له، و يعطيه مكانة كبرى و سامية، و يصرح بخلق الكثير من الأشياء لأجله، و أنه أفضل مخلوقات الخالق عز و جل.

قال تعالى : ((لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَن تَقْوِيمٍ)) التين (٤).
و قال تعالى : ((أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)) لقمان (٢٠).

وقال تعالى : ((وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً))
الجاثية (١٣).

القرآن الكريم وعلم الإنسان □

إن علم الإنسان القرآني هو العلم الذي يتخذ من القرآن مرجعاً و منطلقاً لكل ما يتعلق ببني الإنسان ، من أجل صياغة تصور جديد و حقيقي نابع من الواقع و مبعد لهيمنة النظريات المادية البحتة على هذا العلم و ذلك من خلال تأسيس ما يمكن أن يرجعه إلى حظيرته الأولية و الحقيقية ، و بما يحفظ للإنسان كرامته و موقعه الحقيقي في النظام الكوني ككل ، و ما التعدد الشكلي و اللوني و اللساني و الثقافي و الإنساني إلا عنصر تنوع و إثراء و قوة للحضارة البشرية.

قال تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْوَانِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ) سورة الروم الآية (٢٢).

إن مسألة اختلاف الألوان ، و اللغات ، و غيرها ، و تفسيره بأن سبب ذلك يرجع إلى اختلاف الدماء ما هو إلا على وفق نظرية (النشؤ و الارتقاء) ، أو أن قضية التطور في الأنواع القائلة بانتهاء النسل في كل لون إلى غير ما ينتهي إليه نسل اللون الآخر ، و بذلك يصبح لكل نوع أب رئيسي ، أو (آدم) خاص به.

و عند التأمل في ظاهر آيات القرآن الكريم نجدها تشير إلى أن هذا النسل الحاضر من الإنسان - في كل مكان - ينتهي إلى ذكر و أب واحد سماه الله تعالى في كتابه (آدم) ، و إلى أنثى و أم واحدة لم يُسمَّها تعالى في كتابه ، و لكن الروايات تسميها (حواء).

(و لو شاء الله لخلق الناس كلهم على نسق واحد و باستعداد واحد.. نسخاً مكرورة لا تفاوت بينها و لا تنوع فيها، و هذه ليست طبيعة هذه المقدرة على هذه الأرض، و ليست طبيعة هذا المخلوق البشري الذي استخلفه الله في

الأرض... شاء الله ألا يكون الناس أمة واحدة، فكان من مقتضى هذا أن يكونوا مختلفين^١.

إن السبب الأساسي و الرئيس في جعل القرآن مرجعاً لتأصيل علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) لكونه كتاب الإنسانية الخالد ، فهو المرجعية الربانية في العقيدة و الشريعة و السلوك.

إن دراسة الإنسان من منطلق قرآني يمثل النظرة الحقيقية و الموضوعية للمراد الإلهي ، و النظرة الألهية لبني البشر هي نظرة الخالق و العارف و العالم بالجنس البشري فميزتها كونها مستوعبة لكل دقائق الأمور ، فهي النظرة الشاملة و الواضحة و المتوازنة المندرجة ضمن نظام دقيق لتسيير المخلوقات ليس فيها أي خلل أو قصور ، و لا يعترئها العطب أو التعب أبداً. قال تعالى : (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ) سورة يس الآية (٣٦).

و قال تعالى : ((فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)) سورة المؤمنون الآية (١٤).

إن مسألة التواصل و التلاقح الثقافي منهج هدفه إزالة السلبيات من اجل الرجوع إلى قاعدة الأصل الواحد التي نادى بها الإسلام عن طريق كتابه الذي يعتبر الدستور الإنساني الخالد.

قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) سورة النساء الآية (١).

^١ : في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ج ٤ ، ص ١٩٣٣ ، سورة هود ، الآية (١١٩) .

فقضية تلاقي الثقافات والحضارات ، و نفي السلبات ، و إزالة الفوارق ، و دعم الإيجابيات ، و تنمية عمل الخير ، و نشر المحبة و الألفة و السلام ما هي إلا خطوة نحو التكامل الإنساني الذي هو أصل الخلقة.

إن ما يجمع البشر أكثر مما يفرقهم ، و ما تنوع الأجناس ، و الألوان ، و اللغات إلا آية من آيات الله تعالى و ما وضعها الله تعالى إلا لحكمة بالغة هدفها الوصول إلى التكامل الجمعي الإنساني الوحدوي ، و هذا هو مصداق قوله تعالى :

قال تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ) سورة الروم الآية (٢٢).

و هذا إثبات للإنسان بأن كل ما علمه و سيعلمه لا شيء بالنسبة للعلم الألهي ، و للحكمة الألهية و للمراد الإلهي.

قال تعالى : (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) سورة الأسراء الآية (٨٥).

إن المخلوقات كلها بما فيها الإنسان ما هي إلا خلق الله سبحانه و تعالى ، فعلى الإنسان أن لا يتعالى ، و أن لا يتبطر ، و أن لا يتكبر و أن لا يصنع الفوارق.

قال تعالى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) سورة الأنعام الآية (٣٨)

كما و إن معتقدات بني الإنسان لها أصل واحد ، فالدين واحد و إن ما جرى من تفرق فهو طارئ دخيل ، فالفطرة الأولية ، و الدين الأولي هو

التوحيد ، و إن تبدلت مسمياته^١.

قال تعالى : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ) سورة الشورى الآية (١٣).

كما و إن الإنسان الأول كامل بخلاف كل النظريات اللادينية و التي ترجع الإنسان إلى القرد أو إلى السمك أو إلى الحشرات و ما شاكلها^٢.
قال تعالى : (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ) سورة السجده الآية (٧).

قال تعالى : (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ *) سورة الطارق الآيات (٥ - ٧).

الدفق : الدفع بشدة، و الدافق هنا بمعنى المدفوق.

و قال تعالى : (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ *) سورة السجدة الآيات (٧ - ٩).

^١ : هنالك أبحاث تؤكد إن الدين ومنذ بزوغ فجر البشرية هو (الإسلام) المتوافق مع التسليم

الإلهي .

^٢ : يراجع لذلك الكتب التي تناولت (اصل الخليقة) و(تاريخ الديانات) و(الملل و النحل) .

إن قضية تطور و ارتقاء الإنسان من المشي على أربع ثم على اثنين ،
و إن أصل الإنسان قرد ما هي إلا مزاعم باطلة ، مخالفة للشرع و العقل ، فالله
سبحانه و تعالى هو الذي خلق المخلوقات كما هي عليه أشكالها اليوم .
قال تعالى : (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) سورة آل عمران الآية (٦).

فالمخلوقات لها خصوصياتها التي أختصها الله تعالى بها لحكمة بالغة
من عنده ، و هي مخلوقة منذ الخلق و لحد اليوم بنفس أشكالها فلا تغيير و لا
تبديل و لا غير ذلك أبداً.

قال تعالى : (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ
وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ
اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) سورة النور الآية (٤٥).

أسس مهمة في الأنثروبولوجيا القرآنية

إن لكل بحث أسسه التي يجب أن ينطلق منها، والتي تشكل الدستور أو القانون الذي يسير عليه والذي لا تجوز مخالفته^١، وهنا وفي بحث (الأنثروبولوجيا القرآنية) أسس مهمة لابد أن ننطلق منها في دراستنا هذه والتي هي :

١- إن القرآن الكريم يحتوي على تفاصيل كثيرة حول سيرة الإنسان، و ذكر لتفاصيل حياته ، و معتقداته، و طقوسه، و ممارساته الحياتية و العبادية، و نظمه الاجتماعية.

٢- إن سيرة الإنسان في القرآن الكريم تدخل ضمن المنهج الوصفي و التحليلي. إذ لا تدخل ضمن المنهج الأميريقي الميداني، لأنه^٢ أورد ذكر حوادث قد مضت.

٣- إن القرآن الكريم قد تناول سيرة الإنسان في ضمن نطاق جغرافي معين و محدد، و الذي هو نطاق ضيق مقارنة بسعة الكرة الأرضية بمن يعيش فيها من بني الإنسان. و ليس في هذا مثلبة أو مأخذ على القرآن الكريم أبداً بل في ذلك حكمة بالغة لا يعلمها إلا الله تعالى.

٤- إن القرآن الكريم قد تناول ذكر ديانات محددة كـ(الإسلام، و المسيحية، و اليهودية، و الصابئية، و المجوسية، و عبادة الأصنام من قبل المشركين). لكن هناك ديانات كثيرة - سواء كانت وضعية أم غيرها - لم

^١ : عدم الجواز هنا ليس بالمعنى الشرعي الذي يستلزم الحرمة ويساق الذنب ، إنما المراد هو

عدم الجواز (علمياً) .

^٢ : أي القرآن الكريم .

يتناولها القرآن الكريم قد تزامنت - تاريخياً - مع الديانات السماوية المعروفة أو ربما قد سبقتها.

إن معرفة هذه الأسس يعطينا الانطلاقة الصحيحة نحو الأهداف المنشودة أو بعضها، فإن (من سار على الدرب وصل).

فلا بد من أن نسير على وفق هذه الأسس لفهم (الأنثروبولوجيا القرآنية) قدر المستطاع. من أجل بناء تصور كامل عن الإنسان من خلال العلم الخاص به¹ و المبني وفق القواعد القرآنية.

¹: أي علم الإنسان .

القواعد القرآنية

لا بد وقبل الدخول في موضوع القواعد القرآنية أن نبين مقدمة

تعريفية :

فأما (القواعد) فهي جمع قاعدة، وأصلها اللغوي يعود إلى مادة (قعد) وهي - كما يقول ابن فارس -: (أصلٌ مطرد منقاس لا يُخْلَفُ، وهو يضاهي الجلوس، وإن كان يُتكلّم في مواضع لا يُتكلّم فيها بالجلوس... وقواعد البيت : أساسه)^١.

وفي القرآن الكريم : (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ) البقرة (١٢٧). (فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ) النحل (٢٦).

قال الزجاج : القواعد : أساطين البناء التي تَعْمِدُه^٢.

أما تعريف القاعدة اصطلاحاً : فهي : قضية كلية منطبقة على جزئياتها^٣.

و عرفت ايضاً : بانها الأصل الكلي... ينطبق على مصاديقه أنطباق الكلي الطبيعي على مصاديقه^٤.

فالقواعد : هي تلك الخطابات التي تمتلك قوة الإلزام، والتي لا يمكن مخالفتها عقلاً، فهي تعتبر الطرق، والإشارات، والعلامات الدالة على الطريق

^١ : مقاييس اللغة ، ج ٥ ، ص ١٠٨ .

^٢ : المحكم والمحيط الأعظم ، ابن سيده ، ج ١ ، ص ١٧٢ .

^٣ : التعريفات ، ص ١٧١ .

^٤ : القواعد ، محمد كاظم المصطفوي ، ص ٩ .

الصحيح، و الموضوعة من أجل تحصيل الفائدة، و التي لها أسسها الخاصة بها.

أما بالنسبة للقواعد القرآنية فيمكن تعريفها هي : (الأحكام الكلية المستخرجة من نصوص القرآن الكريم، و التي تتمتع بنوع من الإلزام)^١.

و بشكل عام يمكن ذكر بعض الأسباب لشروط القاعدة القرآنية و التي منها :

- ١- وجود سبب و داعي من أجله جاءت أو تأسست القاعدة القرآنية.
- ٢- وجود نموذج تنطبق عليه القاعدة، فأساس قيام القاعدة وجود نماذج تطبيقية لها، فلا بد من وجود ولو نموذج واحد فقط حتى يتحقق وجود القاعدة القرآنية.
- ٣- وجود متلقي، أو جمهور، أو مكلفين بالخطاب، فمع وجود هؤلاء فما الداعي للتأسيس و للتقعيد.
- ٤- وجود إمكانية للاستفادة من القاعدة القرآنية، و بعكس ذلك فما الداعي لمجيئها أو لجريانها مع إنتفاء الفائدة منها.
- ٥- إمكانية تطبيقها فعلاً، آناً و مستقبلاً، فعلاً أو من باب أخذ العبرة فقط، و مع عدم امكانية التطبيق سينتفي الاهتمام بها.

^١ : يراجع لذلك : بحث (القواعد القرآنية) للمؤلف .

القواعد القرآنية ودورها في التأسيس للقضايا العلمية

إن الأنثروبولوجيا كعلم إنساني انطلقت من قواعد - عامة - قامت على أساس الاستقراء، و التخمين، و على (المخيل) القائم على مجموعة من الأساطير الخيالية. فمن هذه الأسس الثلاث - و غيرها - قام ما يمكن تسميته بـ(أسس الأنثروبولوجيا) و تشكلت فروعها، و اتجاهاتها، و قواعدها. و يمكن ملاحظة الخلل الواضح في كثير من هذه الأسس و القواعد، أما على مستوى التنظير، أو على مستوى التطبيق. و الدليل على ذلك انه - و بشكل عام - يوجد تقسيمان للأنثروبولوجيا الا و هما :

١- الأنثروبولوجيا النظرية (التنظرية) :

٢- الأنثروبولوجيا التطبيقية :

و كذلك يمكن ملاحظة الخلل من خلال تتبع الكثير من الكتابات الأنثروبولوجية لشخصيات معروفة في هذا المجال، و الذين كتبوها و هم جالسون على مكاتبهم في بلدانهم من دون أن يخرجوا - حتى - من غرفهم، و لم يسافروا إلى البلدان التي كتبوا عنها أبداً.

روي أنه حتى في نهاية القرن التاسع عشر فإن (سير جيمس فريزر) الشهير حين سئل عما إذا كان رأى قط إنساناً من البدائيين الذين كتب عن عاداتهم العديد من المؤلفات أجاب : (لا سمح الله). و مع ذلك فإن هؤلاء الكتاب كانوا بصورة لا يمكن تجاهلها طلائع علماء علم الإنسان الاجتماعي المحدثين. و علم الإنسان الاجتماعي المعاصر يدين بالكثير لهؤلاء العلماء من القرن التاسع عشر رغم كل الأخطاء التي شابت أعمالهم^١.

^١: نحو علم الإنسان الإسلامي، أكبر أحمد، ص ٢٠.

نعم، قد نجد هناك نوع من الإبداع و التنميق الكلامي للكثير من النظريات الأنثروبولوجية على المستوى (النظري). لكننا سنلاحظ تهافتها و مدى شططها على المستوى (التطبيقي).

بل، قد نجدها تتكلم عن أشياء ليس لها وجود إلا في صفحات الكتب. و من ذلك قضية (البدائية) و (تقسيمات الاعراق) و (نظريات نشأة و تطور الإنسان) و (مسألة اصل الإنسان).

أما لو جئنا إلى القرآن الكريم فإنه تميز بـ(التشخيص التطبيقي) أي : التشخيص الذي لا ينفك عن التطبيق، فكل تشخيص له تطبيق خاص به، و لو كان فرداً واحداً فقط.

و يمكن إدراج هذا (التشخيص) تحت مسمى (القواعد القرآنية) التي تعطينا أحكاماً كلية لها واقعيتها و مشخصاتها.

القواعد القرآنية حول الوجود الإنساني

إن الباحث في علم الإنسان القرآني ينتهي إلى نتائج محورية و التي تشكل قواعد مهمة عليه أن يسلم بها و يستفيد منها ، و هذه القواعد - بشكل عام - كثيرة تحتاج إلى دراسة موسعة و هنا و من باب إعطاء صورة مجملة سوف نتعرض لهذه القواعد و بشكل إجمالي و التي منها :

١- وحدة الخلق لجميع المخلوقات :

فكل المخلوقات مرجعها لخالق واحد ألا و هو الله سبحانه و تعالى .
قال تعالى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) سورة الأنعام ،
الآية (٣٨).

٢- وحدة الجنس البشري :

إن الجنس البشري واحد من حيث عدم تشابهه مع المخلوقات الأخرى ، فهو كائن فريد يتميز بميزات كثيرة أهمها و أفضلها (العقل).
كما و أن الجنس البشري واحد لم يتغير منذ أن خلق الإنسان الأول و لحد الآن ، فالإنسان الأول لا يختلف عن الإنسان الحالي ، بل الإنسان كما هو ، و مثل ما هو عليه منذ أن خلق أول مرة^١.

قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ

^١ : يراجع بحث (وحدة الأصل الإنساني) في هذا الكتاب .

وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) سورة النساء و الآية (١).

٣- وحدة الدين :

الدين واحد ، نزل من الواحد ، إلى بني البشر ، فكيف تختلف الشرائع السماوية لنرى فيها هذا البون الشاسع ؟
في الحقيقة ان ذلك قد حصل بسبب التحريف ، و التزوير الإنساني المصلحي ، و إلا فالدين واحد نزل من عند الواحد^١.

قال تعالى : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ) سورة الشورى ، الآية (١٣).

علم الإنسان القرآن

فالقرآن الكريم يعلن أن الدين عند الله (الإسلام) بما هو استسلام و طاعة لأوامر الله سبحانه و تعالى، و كذلك إجتنب نواهيه.
قال تعالى : ((إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)) آل عمران (١٩).

(فالإسلام في لغة القرآن ليس اسماً خاصاً لدين خاص، وإنما هو اسم للدين المشترك الذي تجمعه وحدة المصدر، و وحدة المصير، و وحدة القيم، و وحدة الغايات و الأساليب. و هو الدين الذي هتف به جميع الرسل، و انتسب إليه كل أتباع الأنبياء... و بالجملة نرى اسم الإسلام شعاراً عاماً يدور

^١ : يراجع لذلك بحث (الانثروبولوجيا الدينية) في هذا الكتاب .

في القرآن على ألسنة الأنبياء و أتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر النبوة المحمدية...^١.

٤- خصوصية و ميزة اللغة و وحدتها بما هي لغة :

إن اللغة واحدة من حيث التأسيس لها كلغة رغم وجود اختلافات و نظريات حول نشأة اللغة قد ناقشها الأصوليون ، و اللغويون ، و بالخصوص في مسألة تعددت اللهجات ، حتى وصلت إلى لغاتٍ مستقلة لها خصوصيتها ، و كيانها الخاص بها^٢.

قال تعالى : (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) سورة البقرة ، الآية (٣١).

٥- الإنسان الأول إنسان سوي و كامل من حيث الخلقة ، و

العلم ، و الإيمان :

قال تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا * ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ *) سورة المؤمنون ، الآيات (١٢) - (١٤).

قال تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا

لَادَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ) سورة الأعراف ، الآية (١١).

٦- الاختلاف البشري من حيث (الشكل ، و اللون، واللغة،

^١ : العلاقة مع الآخر في ضوء الأخلاق القرآنية ، محمد الناصري ، ص ٩٢ .

^٢ : يراجع بحث (الانثروبولوجيا الثقافية) و علم اللغويات بالتحديد في هذا الكتاب .

والثقافة) هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد :

قال تعالى : (يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) سورة الحجرات ، الآية (١٣).

و ما ذلك الاختلاف و التنوع إلا آية من آيات الله سبحانه و تعالى.
قال تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَاللَّوْنِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ) سورة الروم ، الآية (٢٢).

٧- هناك حضارات كثيرة و متنوعة سبقتنا لربما تكون أكثر منا
تطوراً و تقدماً :

قال تعالى : (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ) سورة غافر ، الآية (٢١).

قال تعالى : (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ) سورة محمد الآية (١٣).

٨- الإنسان منذ خلق و إلى أن يموت هو محتاج إلى الله تعالى

في كل :

قال تعالى : (يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) سورة فاطر ، الآية (١٥).

٩- للبشر خصوصيات تختلف عن باقي المخلوقات:

قال تعالى : (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) سورة الأسراء ، الآية (٧٠).

١٠- الإنسان هو العنصر الأرقى في سلسلة الموجودات الأخرى

، خلق كما هو عليه الآن ، كان خلقه لغاية و هي وراثة الأرض ، و عبادة الله و طاعته :

قال تعالى : (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) سورة البقرة ، الآية (٣٠).

و قال تعالى : (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) سورة الأنبياء ، الآية (١٠٥).

و قال تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) سورة الذاريات (٥٦).

١١- رغم تكبر الإنسان و تجبره إلا أنه خلق ضعيف و سيبقى :

قال تعالى : ((وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا)) سورة النساء (٢٨).

إن (القواعد) و (النظريات) و (النماذج) التي رسمها القرآن الكريم للإنسان و التي لها أهميتها الكبيرة و البالغة في مجال (علم الإنسان) تحتاج إلى دراسة حقيقية و تطبيق عملي ، و ذلك من أجل تأسيس (علم إنسان) قرآني بامتياز.

قراءة في النماذج القرآنية

إن النموذج : هو مثال الشيء ، و الجمع نموذجات ، و نماذج^١.
 فيمثل النموذج مثلاً مبسطاً يمكن من خلاله التعرف على العناصر الخاصة
 بنظرية ما ، لما يراد ايصاله و ذلك من خلال الوصف ، و التوضيح ، و
 التقريب.

و يعرف الفيلسوف الفرنسي (إيان باربور) النماذج بقوله : (النماذج
 هي مجموعة من المفاهيم أو الظواهر المعروفة ، مع نظام من الاستعارة قادر
 على الشرح و البيان)^٢.

إن المراد بكلمة نموذج - في اللغة العربية - معنيان هما :

١- النموذج : و يراد به (العينة) ، أو المثال التقريبي و التوضيحي ، و
 هو الشكل المقارب للأصل.

٢- النموذج : و يراد به (القذوة) أو (الرمز) ، و ما يتعارف عليه
 بـ(النموذج الصالح). و هذان المعنيان يشتركان في (التوصيل)^٣ ، و يختلفان في
 (الخصوصيات).

النماذج القرآنية :

إن النماذج القرآنية تتشكل - و بشكل عام - بخصوص موردين

252 رئيسيين هما :

١- نموذج إيحائي : و المراد به استخدام كلمة أو وصف أو فعل معين

^١ : المعجم الوسيط .

^٢ : Barbour , Religion in Age of Science , Harper , Saint Francisco , 1990 , pp49 .

^٣ : أي توصيل المراد منهما فكلاهما (مثال) .

لإعطاء معلومة معينة بشكل غير مباشر، و ذلك عن طريق المثال، و القصة الهادفة، و ما شاكل ذلك.

قال تعالى : ((قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)) سورة الزمر (١٠).

و قال تعالى : ((وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)) سورة الحشر (٩).

و قال تعالى : ((يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)) سورة العنكبوت (٥٤).

٢- نموذج حقيقي : و ذلك بالإشارة إلى شخص موجود أو قد كان موجوداً، أو بالكلام عن نموذج ما على السامعين أن يعتبروا به، و النموذج الحقيقي يقسم إلى قسمين هما :

أولاً : النموذج الحقيقي الصالح :

قال تعالى : ((لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)) سورة الأحزاب (٢١).

و قال تعالى : ((إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)) سورة النحل (١٢٠).

و قال تعالى : ((وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا)) سورة مريم (٥٤).

ثانياً : النموذج الحقيقي الغير صالح :

قال تعالى : ((إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)) سورة القصص (٤).

و قال تعالى : ((وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)) سورة الأعراف (١٧٥) - (١٧٦).

مميزات النموذج الإنساني :

أما لو تكلمنا عن مميزات النموذج الذي يرسمه الإنسان لنفسه أو لغيره في كلامه، وقصصه، وحكاياته، وفي كتبه، و تراثه، فإن مميزات هذا النموذج هي :

١- الوقتية : فإن النموذج الإنساني يعتبر نموذجاً مؤقتاً له زمن معين، أو أنه ذكر من أجل قضية ما، أو جاء لمورد معين.

٢- الخيالية : فالنموذج الإنساني يتميز بالخيالية، والأسطورية، والمبالغة، وربما الكذب في بعض الأحيان.

٣- الخصوصية : فأكثر النماذج الإنسانية قد تكون خاصة بدين ما، أو مذهب ما، أو طائفة ما، أو عرق ما، وما شاكل ذلك من موارد الخصوصية و (التحيز).

٤- التباين : فالنموذج الإنساني يتميز بالتباين في أسلوب و نوعية الطرح الخاص به، فلكل لغة أسلوبها الخاص، و لكل منطقة طريقته الخاصة

في عرضها لنماذجها، إذ قد تتحكم الخيالية و الأسطورية و المبالغة في أكثر النماذج المطروحة، مع حفظ خصوصية كل عرق أو شعب أو لغة في استعراض نماذجها، مما يشير إلى التباين بخصوص النماذج المطروحة.

٥- التقديس المكتسب : فالجامع المشترك لكل النماذج الإنسانية انها تحتل (رمزية) خاصة، و تحظى بـ(قدسية) خاصة بها (مكتسبة)^١ لا يجوز انتهاكها بالفعل، أو الكلام، و لا حتى في الخيال أو الأحلام.

مميزات النموذج القرآني :

أما النموذج القرآني فإن له ميزاته الخاصة و التي منها :

- ١- الواقعية : فالنموذج القرآني واقعي، و يتميز بالصدق عند ذكره، فهو نموذج موجود - حقيقة - أما سابقاً أو حال نزول النص، فليس هناك أي نموذج قرآني غير واقعي أبداً، حتى لو كان فرداً واحداً فقط.
- قال تعالى : ((إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)) آل عمران (٥٩).
- ٢- حكمويته : فإن للنموذج القرآني حكمة بالغة في ضربه (أمثال) و (عبر) و (الحجة).

قال تعالى : ((وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)) إبراهيم (٢٥).

و قال تعالى : ((إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ)) النور (٤٤).

و قال تعالى : ((قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ))

^١ : فهي مكتسبة أو مصطنعة و ليست حقيقية ، تفرض فرضاً .

الأنعام (١٤٩).

٣- رمزيته : إن النموذج القرآني يشكل رمزية كبرى في ضربه، و عند التعرض له، سواء أكان نموذجاً صالحاً، أم غير صالح.
قال تعالى : ((كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)) (الأنعام ٢٠).

أساسيات النموذج القرآني :

إن كل قاعدة تحتاج إلى أساسيات تقوم عليها لتصل إلى مرحلة تشكلها بشكل (قاعدة). أما النماذج، و بالخصوص النماذج القرآنية فلا بد أن نعرف - بشكل إجمالي - الأساسيات التي تقوم عليها، و من هذه الأساسيات :

١- التصوير : فلا بد من تصوير النموذج من حيث الحقيقة و الماهية، أي رسم الصورة الخاصة بالنموذج المراد ضربه من خلال الحادثة الخاصة به سرداً للحدث وصولاً إلى الكشف الحقيقي عن النموذج.

٢- التمثيل : فبعد أن تم تصويره تأتي مرحلة التمثيل العامة له من خلال توضيح (الحيز العام) الذي يشغله.

٣- الحكم : و هي المرحلة الأخيرة، و المراد بها إعطاء الحكم الأخير و النهائي على هذا النموذج، و هل هو نموذج صالح يحتذى به، أم نموذج غير صالح لابد من الابتعاد عنه.

256

لقد (رسم القرآن في خلال تعبيره عن الأغراض الدينية المختلفة عشرات من " النماذج الإنسانية " في غير القصص. رسمها في سهولة و يسر و اختصار، فما هي إلا جملة أو جملتان حتى يرسم " النموذج الإنساني " شاخصاً من خلال اللمسات، و ينتفض مخلوقاً حياً خالداً السمات ! تارة هذه

النماذج صورة للجنس الإنساني، و تارة تكون صورة لأفراد منه مكرورين، و هي في كلتا الحالتين نماذج خالدة، لا يخطئها الإنسان في كل مجتمع، و في كل جيل. و لقد جاءت هذه الآيات لمناسبات خاصة، و لرسم نماذج شخصية واقعة. و لكن المعجزة الفنية في التصوير، جعلت هذه النماذج أبدية خالدة؛ تتخطى الزمان و المكان، و تتجاوز القرون و الأجيال)^١.

^١: التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص ٢١٦.



الفصل الرابع



الأنثروبولوجيا القرآنية: (علم الإنسان القرآني)

إن المراد بـ(الأنثروبولوجيا القرآنية) هي الصورة التي رسمها القرآن الكريم للإنسان ، فالقرآن الكريم قد شكّل صورة رفيعة مليئة بالقيم الروحية للإنسان بشكل عام، إلا من شذ عنها و خالف أصل الخلقة. إن علاقة علم الإنسان بالقرآن علاقة وثيقة ، لأن القرآن الكريم أنزله الله سبحانه و تعالى لهداية البشرية جمعاء ، و محور القرآن الكريم الأساس هو (الإنسان).

إن (علم الإنسان) و المعروف بـ(الأنثروبولوجيا) هو علمٌ وضعي، وضعه الإنسان لدراسة (بني الإنسان) و ذلك ليصل إلى الفهم الصحيح للإنسان ، و من خلال هذا الفهم يمكن أن نعرف ما يحقق التقارب و الوئام ، و نبذ ما يسبب التباعد و الخصام.

إن الحروب ، و المشاكل ، و المشاحنات التي حدثت و تحدث بين الشعوب سببها الأساس كون الإنسان لا يفهم أخيه الإنسان ، و لا يعطي مساحة للآخر الإنساني في فكره ، و حياته ، و لا في مستقبله ، فوصلت هذه المشاحنات إلى داخل البلد الواحد ، و الطائفة الواحدة، و حتى الأسرة الواحدة.

إن علم الإنسان يهدف للوصول إلى إجماع على ان الجنس البشري واحد، و أن له أصل واحد فـ(كلكم لآدم ، و آدم من تراب).

إن عنصر المفاضلة في الإسلام بين بني الإنسان يختلف عنه في (البراغماتية) ، و (الرأسمالية) ، و (الشيوعية) ، و باقي النظريات الوضعية ، و الفلسفات (اللا دينية)، فالمفاضلة هي بالآيمان و التقوى و شدة الورع. قال تعالى : ((إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)) الحجرات (١٣).

إن الأنثروبولوجيا تدرس الإنسان من حيث جسمه و طبيعته البيولوجية ، و من خلال هذه الدراسة وصلت إلى أمور مهمة ، لكن القرآن الكريم قد سبق هذا العلم في أمور كثيرة ، و في مواضيع هامة ، و ذلك قوله تعالى : (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) سورة الأسراء ، الآية (٧٠).

فتفضيل الإنسان على باقي المخلوقات كان لأسباب عديدة ، و كثيرة منها طبيعة الخلق المعقد لهذا الكائن الفريد. لكن مع الأسف إن كتب الأنثروبولوجيا مليئة بنظريات (داروين) ، و الأراء (المادية) البعيدة عن العقل ، و الدين ، و طبيعة الخلقة.

قال تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) سورة العنكبوت ، الآية (١٩).

إن البحث في القضايا الإنسانية المصيرية المتعلقة بخلق الإنسان و نشأته و تطوره و تفاعله سلباً أو إيجاباً مع محيطه ، و مع أخيه الإنسان ، و القدرة على التواصل باللغة و غيرها ، و التنوع الديني ، و الثقافي ، و اللغوي ، و الشكلي ، و اللوني ، و إنتاج العلم و المعرفة ، و إبتكار وسائل تكنولوجيا ، كل هذه قضايا و مباحث مهمة من شأنها أن تقرب المسافات بين الشعوب و الأمم ، أو قد تعمل على تعميق الفارقة و الهوة بينها بناءً على نوع الطريقة ، و الوجهة ، و الأهداف ، و الغايات المرادة من وراء ذلك.

لابد أن نؤمن بأن الفروق الموجودة بين بني البشر هي ليست فروق حقيقية ، و ليست ذاتية ، و لا تؤخذ بنظر الاعتبار ، و ليس على البشر أن يؤمنوا بها ، و يتعاملوا وفقها ، فكل ذلك ما هو إلا تكريس لمبدأ الإستعلاء

والهيمنة ، و مبدئ النفعية الضيقة ، و لنزعة الاقصاء و التهميش .

قال تعالى : (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) سورة الروم ، الآية (٤١).

لقد ظلت الرؤية العلمانية تستأثر بعلم (الأنثروبولوجيا) ، و توظفه لخدمة مصالحها ، و أغراضها الاستراتيجية ، منتهجة في ذلك منهجاً بعيداً كل البعد عن أسس البحث العلمي النزيه ، و عن طريق نظرياتها و مناهجها و مبرراتها فقد أورثت الإنسان - في علاقته بالكون و الإنسان - رؤية غير سليمة ، و غير موضوعية في كثير من العلوم و التعاملات. و على الرغم من دحض الكثير من نظرياتها ، و مناهجها إلا أنها لا زالت مهيمنة على الساحة العلمية و التعليمية ، إن النظرة المادية الأحادية البعد و التوظيف و الغير الإنسانية للأنثروبولوجيا الغربية ، و التي وصم بها هذا العلم الإنساني تفرض علينا اليوم اقتحام هذا العلم ، و إتخاذ منطلق للبحث فيه من زاوية علمية ، و إنسانية متعددة الأبعاد ، و تكوين رؤية متناسقة متسمة بالحياد ، و الموضوعية ، و النزاهة ، و الشمول ، مبنية على الواقع ، و البرهان العلمي ، و التطبيق الواقعي ، لكي نتجاوز نظريات الحالة الراهنة ، و التي جعلتنا مُقلدين بامتياز بلا أدنى تفكير ، فارضة علينا رؤية محدودة ، و أفق مسدود ، مما يجعلنا - لو تمسكنا بها - بنبي مصيرنا على أوهام و تخرصات ، و على نظريات لا تمت - في أكثرها - إلى الواقع بصلة ، أساسها الاعتماد على جزئيات ، و أعتقادات ، و إستقراءات ، و نقولات بعيدة عن أرض الواقع ، فالله سبحانه و تعالى هو القائل : (وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) سورة الأسراء ، الآية (٨٥).

و المشكلة إن مراكزنا التعليمية ، و جامعاتنا ، و كلياتنا ، و بعض

الصحف و المجالات ، و أنصاف المثقفين يتحدثون عنها و يعممون عليها على إنها حقائق مطلقة مما يورث - إثر ذلك - واقعاً مختلاً ، و ازدواجية في التفكير لدى الإنسان المسلم ، و الذي يرى تناقضاً كبيراً ما بين ما تنادي به الكثير من النظريات الأنثروبولوجية ، و بين آيات القرآن الكريم ، و أساسيات الدين الإسلامي.

إن علم الإنسان القرآني يتخذ من القرآن منطلقاً تأسيسياً للبحث ، فموضوعه الإنسان ، و مجاله القرآن الكريم ، كل ذلك بقصد بلورة تصور جديد لهذا العلم ، يحفظ للإنسان خصوصيته و كرامته ، و يجعله يعيش الوحدة الإنسانية في إطار التعدد و التنوع الشكلي و اللوني و اللغوي و الثقافي ، و ذلك باعتبار أن القرآن مصدر غني للحضارة البشرية ، و عامل قوة. قال تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاخْتَلَفَ الْأَلْسِنَتَكُمْ وَالْوُحُوشَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ) سورة الروم ، الآية (٢٢).

و لعل هناك من يتساءل عن السبب الداعي لإتخاذ القرآن أساساً للتأصيل الأنثروبولوجي ؟

لذا و في معرض الجواب عن ذلك نقول : لأن القرآن الكريم هو كتاب الإنسانية الخالد ، و مرجعيته الربانية في العقيدة و الشريعة و الأخلاق و السلوك ، و لأن الدين الإسلامي هو دين الفطرة الإنسانية.

قال تعالى : (فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) سورة الروم ، الآية (٣٠).

إن دراسة الإنسان من منطلق قرآني ، و بنظرة موضوعية ، و بأسلوب علمي ، و برؤية الوحي التي تمتاز بالشمولية و الوضوح ، و سعة الأفق ،

تكشف عن جهاز مفاهيمي يؤصل لبنية التفكير الإسلامي القائمة على تحقيق التوازن بين طرفي الثنائية التي يقوم عليها الوجود.

قال تعالى : (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ) سورة يس ، الآية (٣٦).

فالحقيقة ليست في أحد طرفي الثنائية ، وإنما في الجمع بينهما ، و لذلك كانت أمة الإسلام ، أمة وسط ، تجمع ولا تفرق.

قال تعالى : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) سورة البقرة ، الآية (١٤٣).

فالإسلام قد استوعب قبائل ، و شعوباً ، و أمماً ، و ثقافات ، و حضارات ، و لم ينتهج سياسة الإلغاء ، أو الإقصاء ، أو الهيمنة و السيطرة ، و إنما ترك للناس حرية الاختيار ، و لهم الحق في الاختلاف ، و القناعة في الرؤيا.

إن بنية التفكير الإسلامي قائمة على التعايش و قبول الآخر. فالإنسان و من منطلق التصور القرآني يتفاعل مع محيطه تفاعلاً إيجابياً يغيب عنه منطق الهيمنة ، و السيطرة ، و الاستعلاء ، و يحضر فيه المشترك الإنساني.

إن تلاقي الحضارات عن طريق التواصل ، و نفي السلبات ، و البحث عن المشتركات ، و تطوير الإيجابيات ، و نشر المحبة ، و السلام ، و الأمن وفق رؤية : (أن ما يجمع بين البشر هو أكثر مما يفرقهم) هو أفضل الحلول و انجعها.

قال تعالى : (تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) سورة آل عمران ، الآية (٦٤).

و ذلك في التعامل وفق نظرة قرآنية بحتة ذات طابع إنساني حقيقي.
قال تعالى : (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) سورة فصلت ، الآية (٣٤).

إن مبدأ الإنسان هو البحث عن نقاط الالتقاء ، و عن أفضل أساليب التفاهم ، فالقرآن الكريم و في مجمل آياته المباركة يبحث عن (صديق) ، و لا يبحث عن عدو ابداً.

قال تعالى : (وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) سورة الشورى ، الآية (١٥).

فمن المؤمل لهذه الرؤيا القرآنية أن تقلب الموازين لتصبح الوحدة هي الأصل.

قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) سورة النساء ، الآية (١).

كما و ان التنوع في الجنس و اللون و اللغة و الثقافة ما هي إلا آية من آيات الله سبحانه و تعالى ، و إنها نعمة تستوجب الشكر من جانب ، و التوقف عن (آيوتها) من جانب آخر.

قال تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَنَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ) سورة الروم ، الآية (٢٢).

لعل القرآن الكريم برؤيته الفاحصة و المطلقة يفتح آفاق الممكن ، حيث حديثه عن الحضارات البائدة - مثلاً - يجعلنا نراجع أنفسنا ، و أحكامنا

عن الحضارات الأخرى ، و يدفعنا إلى التحلي بالتواضع باعتبار أن حضارتنا الحالية ما هي إلا دورة من الدورات التي عرفها تاريخ الحضارات البشرية.

قال تعالى : (ما لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً) سورة نوح الآيات (١٣) – (١٤).

و قال تعالى : (قُلِ اللَّهُ يُبْدِئُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتَ تُؤَفَكُونَ) سورة يونس ، الآية (٣٤).

لكن و مع كل ما قد ذكرنا ليست هناك اهتمامات بهذا العلم في الوسط الإسلامي بشكل عام ، و في الوسط الشيعي بشكل خاص، لكننا نتمنى أن تكون الأيام القادمة، و المستقبل القريب أكثر تفاعلاً للاهتمام بهذا العلم الحيوي و المفيد.

خلق الإنسان وتطوره في المنظور القرآني

إن من أهم الأشياء في دراسة شيء ما هو معرفة حقيقته ، و كل ما يتعلق بذلك من موارد و خصائص ، و بما أن دراستنا هنا هي حول الإنسان ، و خلقه ، و نشأته ، و كل ما يتعلق بذلك. لذا فعلينا إلا أن نقف لاستعراض خلق هذا (الكائن) و ما يتعلق به من أمور ذاتية ، و عرضية و التي لها مساس كبير بالموضوع وفق نظرة (قرآنية) بحتة.

لا بد أن نعلم بأن أهمية (علم الإنسان) تتجلى في دراسة الإنسان ، و في معرفة حقيقته ، و تكوينه ، و دراسة الثقافات المختلفة لبني الإنسان ، و دراسة التطور الذي وصل إليه من أقدم العصور ، مضافاً إلى دراسة التنوع البشري و تقسيم المجتمعات ، و اختلاف اللغات ، و ما شاكلها من مواضيع ذات صلة بهذا الكائن الفريد.

(تشكل كينونة الإنسان و وجوده - كمبدأ عام - القضية الأساسية في كل رؤية دينية أو فلسفية للعالم. السؤال الأبدي المتكرر دائماً : من أين جاء الإنسان ؟ و ما هو مصدر وجوده بالذات هنا في العالم ؟ هذه واحدة من تلك المشكلات الرئيسية التي أقلقعت العقل الإنساني دوماً. و الجواب الوحيد الصحيح لهذا السؤال في التصور القرآني ليس بعيداً عن المتناول : إن مصدر الوجود هو الله نفسه، فقد منح الوجود للإنسان هبةً من غير مقابل. بكلمات أخرى، إن بين الله و الإنسان علاقة جوهرية هي علاقة الخالق و المخلوق... فهو خالق العالم كله، بدءاً من الملائكة في المرتبة العليا فالجن و السماوات و الأرض و الشمس و القمر و النهار و الليل و الجبال و الأنهار و الشجر و الثمر و الحبوب و العشب و كل أنواع الحيوانات... و لن تكون هناك نهاية إذا

واصلنا تعداد ما قد خلق الله. إنه باختصار "خالق كل شيء"، وليس الإنسان سوى واحد من هذه المخلوقات، وإن كان أكثرها أهمية...^١.

و نحن في هذا الموضوع سوف نحاول أن نتعرض إلى مراحل الخلق الإنساني و مراحل التكوين التي مر بها حتى أقام الحضارات و ساد البلدان ، سيراً وفق ذلك حتى نهاية دورة حياته كما بينها القرآن الكريم. و من هذه المراحل المهمة :

١- الخلق من تراب :

فالإنسان الأول (آدم) قد خلق من تراب. إذ إن القرآن الكريم يؤكد في العديد من آياته أن الإنسان قد خلق من تراب.

قال تعالى : (فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ) سورة الحج ، الآية (٥).

و قال تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْشُرُونَ) سورة الروم ، الآية (٢٠).

و في جملة من الآيات القرآنية نجد بأن الإنسان مرتبط بالأرض إرتباطاً شديداً، يظهر منه صعوبة الانفكاك.

قال تعالى : (وَاللَّهُ أَتْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نباتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً) سورة نوح، الآيات (١٧ - ١٨).

و قال تعالى : (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) سورة طه، الآية (٥٥).

فواقع أن الأرض هي الأصل في المنشأ و هي المرجع مشدّد عليه في

^١ : الله و الإنسان في القرآن ، علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم ، توشيهيكو إيزوتسو ، ترجمة :

الآيات القرآنية المباركة، من ثم عُجن التراب بالماء ، فصار التراب طيناً، فنجد أن كلمة (طين) قد وردت في جملة من الآيات القرآنية لتحديد مصدر العناصر المكونة للإنسان.

قال تعالى : (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ) سورة ص ، الآية (٧١).

ثم تعفن الطين فأصبح (لازباً).

قال تعالى : (إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ) سورة لصافات الآية (١١).

و اللازب في اللغة : الثابت، الشديد التماسك بين الأجزاء^١.

ف(طين لازب) بمعنى لزج متماسك، فهو لا سائل ولا صلب^٢

ثم صار طيناً أسود متغير الرائحة (الحماً) ، ثم يبس فصار (صلصالاً).

قال تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ) سورة

الحجر ، الآية (٢٦).

و الصلصال : هو الطين اليابس ، وقد سمي بذلك لأنه يصل أي يُحدث صوتاً عند نقره ، ويتكون من حبيبات صغيرة ، ويدخل الماء في تكوين (١٥٪) من وزن الصلصال الذي يحتوي سيليكات الألومنيوم المائية ، بالإضافة إلى ذرات من مئات العناصر الأخرى^٣.

و أصل الصلصال تردد الصوت من الشيء اليابس، ومنه قيل : صل

المسمار^٤.

^١ : فتح القدير ، محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، ج ٤ ، ص ٣٨٨ .

^٢ : معجم الألفاظ والاعلام القرآنية ، محمد اسماعيل ابراهيم ، ص ٤١٣ .

^٣ : خلق الإنسان بين العلم والقرآن ، حمد الرقعي ، ص ١٧ .

^٤ : المفردات ، الراغب الأصفهاني ، ص ٢٨٤ .

و يتضح أنه و في مرحلة (صلصال كالفخار) بهذا الوصف تنتفي عنه مظاهر الحياة.

و الحمى المسنون : أي طين مصور على هيئة إنسان من سن الوجد أي صورة و صقله^١.

أو يراد به (مسنون) : بمعنى متغير^٢، فهو طين متين أسود^٣.
و قد صرح القرآن الكريم بتحول الحمى المسنون إلى صلصال كالفخار.

قال تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ) سورة الحجر ، الآية (٢٦).

٢- سنة التزويج ، و المزوجة :

قال تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) سورة الروم ، الآية (٢١).

فتعتبر سنة التزويج إحدى السنن التي وضعها الله سبحانه و تعالى ليسير على أساسها الكون ، فكانت هذه السنة سائدة بين الكائنات البشرية على مر العصور ، و كانت سبباً لتواصل الحياة في هذا الكون ، و لا يوجد خروج عن هذه القاعدة إلا في حالات نادرة كـ (خلق آدم) ، و (حواء) ، و كذلك خلق عيسى (عليه السلام) من غير أب. و ما تلك الحالات إلا معجزات إلهية تدل

^١ : معجم الألفاظ و الاعلام القرآنية ، محمد اسماعيل إبراهيم ، ص ٢٥٤ .

^٢ : المفردات ، الراغب الأصفهاني ، ص ٣٤٥ ، مادة (مسنون) .

^٣ : فتح القدير ، الشوكاني ، ج ٣ ، ص ١٢٩ .

على قدرته سبحانه و تعالى. فـ(آدم) و (حواء) خُلِقَا من التراب مباشرة.

٣- الخلق من النطفة :

أما الخلق الآخر ، أو الجيل الثاني من الإنسان المنتسب لآدم فكان خلقه من (نطفة) بواسطة سنة التزويج.

قال تعالى : (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ) سورة يس الآية (٧٧).

إن الآيات القرآنية تشهد بأن الله سبحانه و تعالى جعل بقاء و تكاثر الجنس البشري محصور بـ(النطفة) مع إنه تعالى أظهره و خلقه أول مرة من تراب ، فـ(آدم) خُلِقَ من تراب ، و إن البشر - كل البشر - بنوه.

فتأتي هذه النطفة من جانب الأب لتخصب البويضة الآتية من جانب الأم لتتكون بذلك البويضة المخصبة ، و التي تتجه إلى الرحم لتكون علقة تتعلق بجدار الرحم.

و قد أشير للنطفة بعدة مسميات منها (الماء المهيّن)، و ذلك دلالة على نجاستها، أو دلالة على كونها مقدوفة من قبل طرف الجهاز البولي، مستخدماً المسلك الذي يخرج منه البول.

قال تعالى : (ثُمَّ جَعَلْ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ) سورة السجدة الآية (٨).

إن القرآن الكريم و منذ أكثر من ألف سنة مضت أشار إلى وجود الحيوان المنوي، و الذي بُرهن على وجوده - أو اكتشافه - في القرن السابع عشر الميلادي من قبل بعض العلماء. و إن هذا الحيوان المنوي الموجود في

السائل النطفي الذي يحتوي على شريط (D.N.A) حامل الجينات الممنوحة من الأب و التي ستتحّد مع جينات الأم لتشكّل الإِراث الجيني للإنسان.

٤- إن النطفة قد مرت بتحوّلات عديدة :

قال تعالى : (فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ) سورة الحج، الآية (٥).

فالمرحلة الأولى للتكون في الرحم مرحلة (النطفة) و النطفة تطلق على ثلاثة أشياء هي : نطفة الذكر، و هي الحيوانات المنوية، و نطفة الأنثى، و هي البويضة، و النطفة الأمشاج، و هي النطفة المختلطة من ماء الرجل و ماء المرأة، أي أن البويضة الملقحة و النطفة الأمشاج هي بداية مرحلة خلق الإنسان.

ثم بعد ذلك تتحول هذه النطفة إلى (علقة) أي قطعة من الدم، و (العلقة) هي الطور الثاني الذي تنتقل إليه النطفة، و يبدأ العلوق منذ اليوم السابع من التلقيح عندما تلتصق أو تعلق بجدار الرحم. (لاشك أن أهم ما يميز هذه المرحلة هو هذا التعلق. و أن وصف العلقه العالقة بجدار الرحم و المحاطة بالدم المتجمد " المتخثر " هو أدق وصف لهذه المرحلة)^١.

ثم يتحول إلى مرحلة (المضغة) أي ما يشبه قطعة اللحم الممضوغ. و يتعهد جسم الأم هذه المضغة بالعناية داخل الرحم ، و يمدّها بالغذاء لتواصل نموها ، و يتم بعد ذلك تكوين العظام التي تغطى فيما بعد باللحم و ذلك ضمن الترتيب المتتالي الذي توضحه الآية الكريمة.

قال تعالى : (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ

^١ : التمهيد في علوم القرآن ، محمد هادي معرفة ، ج ٦ ، ص ٨٣.

عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)
سورة المؤمنون ، الآية (١٤).

و بعدها تأتي مرحلة (الجنين) حيث تبدأ الأعضاء بالتميز و التكامل و النمو و من ثم التحول إلى شكل جديد ، و ذلك هو مصداق قوله تعالى :
قال تعالى : (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) سورة
المؤمنون ، الآية (١٤).

و قد اختلف التفسيرات في المعنى المراد من (الخلق الآخر) منها : أن
القرآن الكريم يذكر هذه المراحل التي مر بها حتى صار خلقاً جديداً و كأن
لم يكن أصله نطفة. و هذا الخلق المتمثل بـ(الإنسان) و الذي يقف العقل
منبهراً عندما يقارن ما بينه ، و بين النطفة التي تحدر منها.

و منها : إنه عندما تنمو المضغة فقد وجد أنها خلال الأسابيع الأولى
تشبه مضغة الزواحف و الطيور و حتى الخنازير ، و لكن ما إن يكتمل الشهر
الثاني حتى يبدأ تخلق الإنسان ، و ينشأ نشأً جديداً^١.

و منها أيضاً : إحلال الروح فيه ، أي في الجسد ، و هو دلالة على أن
الروح شيء آخر مغاير لما سبق من تغيرات حدثت^٢.

فإذا وصل الجنين إلى مرحلة معينة من الاستواء بث الله تعالى فيه

الروح.

274

قال تعالى : (ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ
وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) سورة السجدة ، الآية (٩).

^١ : الطب محراب الأيمان ، خالص حلبي كنجو ، ص ٧٧ .

^٢ : خلق الإنسان بين العلم و القرآن ، حمد الرقعي ، ص ١٨ .

فالتسوية و التعديل مرحلة مستمرة في بناء جسم الإنسان منذ طوره الأول عندما كان جنيناً إلى أن يصبح شيخاً كبيراً. (و لا يمكن أن تتم التسوية و التعديل إلا بعد وضع الأسس، و الأسس لجميع الأعضاء توضع في الفترة ما بين الأسبوع الرابع و الثامن، و لهذا تعتبر هذه الفترة هي الفترة الحرجة التي تكون فيها الجينات أشد ما تكون قابلية للتغيير، و لذا فإن تأثير الأدوية و العقاقير أو الأشعة أو الحُمَيَّات مثل الحصبة الألمانية تكون في أوج تأثيرها على الجنين في هذه الفترة...)^١.

٥- هذه التحولات يتكون منها الجنين في الرحم الذي يبقى مدة محددة معينة و معلومة :

قال تعالى : (وَنُقَرِّطُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) سورة الحج ، الآية (٥).

فإلى أجل معين و هو (أربعين) يوم يتم تحديد نوع الجنين أهو ذكر أم أنثى، ففي هذه الفترة تتكون الأعضاء التناسلية، و التي تبدأ من الأسبوع الرابع و تنتهي في الأسبوع الثامن، فإن قمة تكوين الأعضاء التناسلية و تحديد الذكورة و الأنوثة يكون في الفترة التي ذكرناها.

و وسط بيئة تسيطر عليها الظلمات يتكون الجنين المحاط بثلاثة أغشية و التي يسميها العلماء بـ(الساقط ، و الكربوني ، و الأنوسي).

قال تعالى : (يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنِي تُصَرِّفُونَ) سورة الزمر ، الآية (٦).

^١ : التمهيد في علوم القرآن ، محمد هادي معرفة ، ج ٦ ، ص ٨٩.

فالظلمات الثلاث هي هذه الأغشية الثلاث ، لأن الآية الكريمة أشارت إلى الظلمات الثلاث و إنها في بطن الأم ، لا كما يشير البعض إلى غير ذلك.

٦- يمر بفترة حمل ، و وضع شديدة و مريرة على الأم.
قال تعالى : (حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا) سورة الأحقاف ، الآية (١٥).

تحمل الأم الجنين في بطنها لتسعة أشهر قمرية تتحمل خلالها متاعب هذا الثقل الذي تحمله ، فالبداية بالوحام و ما يرافقه من شعور بالتعب و الغثيان ، ثم يبدأ تأثير ثقل الجنين على جسدها يوماً بعد يوم ، فتتورم الساقين و القدمين نتيجة الثقل ، و تحتبس السوائل في الجسم ، و لقد أشار القرآن الكريم في الآية المتقدمة إلى ما تقاسيه الأم أثناء الحمل من متاعب و صعاب.
٧- ثم يولد ما يسمى (طفلاً) :

قال تعالى : (ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً) سورة الحج ، الآية (٥).
فعندما تنتهي المدة المقررة للحمل تبدأ عملية الولادة التي هي سلسلة من الحوادث ، الغاية منها خروج الجنين خارج بطن الأم ، فتمر الولادة بثلاث مراحل متتابعة هي :

أ - مرحلة المخاض : و يحدث خلال هذه المرحلة إمحاء عنق الرحم و اتساعه ، و دخول الجنين فيه.

ب - مرحلة الإنقذاف : حيث يخرج الجنين خلال القناة التناسلية ، و لا تستغرق هذه المرحلة سوى زمن قصير جداً.

ج - مرحلة الخلاص : و تعتبر آخر مرحلة من مراحل الولادة ،

ويتم خلالها خروج المشيمة خارج الرحم.

٨- ثم تأتي فترة الرضاعة و الفطام :

قال تعالى : (وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) سورة الأحقاف ، الآية

(١٥).

و قال تعالى : (وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ) سورة لقمان ، الآية (١٤).

و قال تعالى : (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ

أَنْ يُنَمَّ الرِّضَاعَةَ) سورة البقرة ، الآية (٢٣٣).

تتجلى قدرة الله تعالى و حكمته في إستمرار قدرة الأم على إدرار الحليب ما دام الطفل مستمراً في الرضاعة ، و كذلك توقف حدوث العادة الشهرية عند قيام المرأة بالإرضاع ، في حين تفقد الأم القدرة على الإرضاع عند حدوث الحمل ، و بالتالي لا يقع على الأم عبء الحمل و الإرضاع في الوقت نفسه ، كما أن هذا يوفر الحماية لكل من الجنين و الرضيع.

٩- ثم يكبر و يتطور ليلبغ أشده :

قال تعالى : (ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ) سورة الحج ، الآية (٥).

١٠- ثم يسمى بعد ذلك (رجلاً) :

قال تعالى : (ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا) سورة الكهف ، الآية (٣٧).

١١- ثم تحين لحظة أحد السنن الألهية المهمة إلا و هي سنة (الزواج)

:

قال تعالى : (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا

لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا) سورة الأعراف ، الآية (١٨٩).

١٢- بعد ذلك تأتي مرحلة أخرى مهمة في استمرار الجنس البشري ألا

و هي مرحلة الحمل و الانجاب المسماة بـ(النسل).

قال تعالى : (فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا) سورة الأعراف ، الآية (١٨٩).

١٣- و من ثم يتكوّن النسل ، و كان منوعاً ما بين (ذكور) و (إناث) لتتواصل عملية التكاثر.

فقال تعالى : (وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً) سورة النساء ، الآية (١).

١٤- ثم تتكون الأسرة ، و التي سوف تكون نواة المجتمع ، و هذه الأسرة مكونة من الزوجين ، و من البنين ، و من ثم من الأحفاد.

قال تعالى: (وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً) سورة النحل ، الآية (٧٢).

١٥- ثم من الأسرة تنشأ أسر ، و منها ينشأ المجتمع ، ثم تتكون القبائل ، و الشعوب المتعددة ، و المختلفة ، و المتنوعة :

قال تعالى : (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) سورة الحجرات ، الآية (١٣).

١٦- و بعد ذلك يأتي التنوع و نشأة اللغات و اللهجات و ألوان البشر المتعددة لحكمة إلهية بالغة :

قال تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ) سورة الروم ، الآية (٢٢).

فمن جراء هذا التنوع كَوّن الإنسان حضارات مختلفة ، حضارات لازالت أثارها باقية لحد الآن ، حضارات في كل أصقاع الكرة الأرضية ، إذ لم تكد تخلوا بقعة من أثر لهذا المخلوق و لو مروراً.

إلى كل ما تقدم يشير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) بقوله :

(ثم جمع سبحانه من حزن الأرض - أي وعرها - و سهلها ، و عذبها و سبخها ، تربة سنها - أي صبها - بالماء حتى خلصت ، و لاطها - أي خلطها و عجنها - بالبله حتى لزبت - أي أشدت - فجبل منها صورة ذات أحناء و وصول ، و أعضاء و فصول ، أجمدها حتى استمسكت ، و أصلدها حتى صلصلت ، لوقت معدود ، و أمد معلوم ، ثم نفخ فيها من روحه فمثلت إنساناً ذا إذهان يجليها ، و فكر يتصرف بها ، و جوارح يختدمها ، و أدوات يقلبها ، و معرفة يفرق بها بين الحق و الباطل ، و الأذواق و المشام ، و الألوان و الأجناس ، معجوناً بطينة الألوان المختلفة ، و الأشباه المؤتلفة ، و الأضداد المتعادية ، و الأخلاط المتباينة ، من الحر و البرد ، و البله و الجمود...)¹.

١٧- ثم يصبح هذا الإنسان (كل إنسان) شيخاً كبيراً :

قال تعالى : (ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا) سورة غافر ، الآية (٦٧).

١٨- ثم يموت ذلك الإنسان بسبب إنتهاء دورة حياته :

قال تعالى : (ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ) سورة النحل ، الآية (٧٠).

١٩- و الموت قاعدة كلية تنطبق على جميع البشر بلا إستثناء :

قال تعالى : (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) سورة الأنبياء ، الآية (٣٥).

لقد أنشأ الله سبحانه و تعالى الإنسان مركباً من جزأين (بدن) و (روح)

، و هما متلازمان ، و متصاحبان ما دامت الحياة الدنيا ، ثم يموت البدن ،

فتفارقه الروح و التي تبقى حية، أو بالأحرى لا تتأثر بموت الجسد.

٢٠- ثم إن هذا الإنسان قد خُلق بأحسن تقويم ، و أفضل خلقه.

¹: نهج البلاغة ، الخطبة (١) ، ص ٢٨ .

قال تعالى : (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَن تَقْوِيمٍ) سورة التين ، الآية (٤).

فقد أراد تعالى بذلك جنس الإنسان و هو (آدم) و ذريته ، خلقهم الله تعالى في أحسن صورة ، و في أفضل شكل ، و في أحسن تقويم ، أي جعل الإنسان منتصب القامة عكس سائر المخلوقات المكبة على وجوهها.

لابد أن نعلم ان الإنسان يتميز بصفات خلقية و عضوية خاصة لا يشاركه فيها أي من الكائنات الحية الأخرى و هي :

- ١- انتصاب القامة ، و السير على قدمين اثنين.
- ٢- تركيب الرأس من حيث شكله ، و مكوناته.
- ٣- تركيب الجسم من حيث شكله العام ، و مقاييس أطرافه (الذراعين) و (الساقين) ، و مدى تناسبهما مع الأعضاء الأخرى في الجسم.
- ٤- محدودية المساحات التي ينبت فيها الشعر ، و تحديد أماكن وجودها.
- ٥- فترة الطفولة الطويلة ، مقابل قصرها عند الكائنات الرئيسة الأخرى (الثدييات).

إبطال نظرية النشوء والارتقاء

لا بد أن نقف هنا على ماهية (نظرية التطور) أو (نظرية النشوء و الارتقاء) التي اشتهرت باسم مخترعها (داروين) و التي نادى بها دعاة المذهب اللاديني و غيرهم حتى حال الحاضر.

لقد زعم البعض بأن فكرة التطور كانت نتيجة لدراسة (فكرة النشؤ في علم الحياة) و التي دعى إليها الطبيب الفرنسي (لامارك)^١ في كتابه (التاريخ الطبيعي للحيوانات اللاقصرية) عرض فيه لقضية تطور الأحياء ، و بين طريق التطور ، و لكنه عجز عن بيان الصلة بين أنواع الأحياء ، كما عجز عن بيان العوامل التي أدت إلى التطور.

ثم جاء بعد ذلك الانكليزيان (تشارلز داروين) ، و (ولاس) ليكملا نظرية (لامارك) ، و في عام (١٨٤٢ م) نشر داروين رسالة موجزة عما سماه بـ(نظرية النشؤ و الارتقاء) فتلقفها دعاة البوهيمية و أحدثوا حولها ضجة ملأت أرجاء العالم ، و لا زالت لها بقايا حتى يومنا هذا في عقول البعض^٢.

في الحقيقة اننا لو دققنا بهذه الفكرة لوجدناها عبارة عن تصوير لما ورد في (أسفار الفيدا) الهندية عن أصل الخليقة و لكن بشكل معكوس ، مع إضافة بعض التعديل و التغيير و الترتيش عليها.

ففكرة (النشؤ و الارتقاء) تزعم بأن تطور الخليقة بدأ من الأدنى (الرواشح و الديدان و الحشرات) إلى الأعلى (القرد) ، ثم (القروود العليا) ، ثم (الإنسان الأول) ، كل ذلك بعيداً عن وجود خالق.

^١: لامارك (١٧٤٤ - ١٨٢٩ م) .

^٢: فلسفة الخليقة ، كاظم ناصر الحسن ، ص ١١١ .

لقد عجز (داروين) عن إيجاد حلقة تربط الزواحف بالطيور ، كما فشل في إيجاد مثل هذه الحلقة بين القرد و الإنسان ، فما كان إلا اللجوء للتزوير^١.

إن هناك كلام يُنقل بأن داروين لم يكن ملحداً ، و لم يقل بالمصادفة ، بل أراد من خلال نظريته أن يقول : (إن الخلق جميعاً نشأ من أصل واحد). لكن - و بحسب من يقول بذلك - أستغلت هذه النظرية من قبل الملاحدة الماديون بعد أن تبَنُّوها ، و أخذوا يدافعون عنها ، و من أشهرهم العالم البيولوجي الألماني (أرنست هيجل) إذ قام هذا الشخص بتزوير عدة نماذج أحيائية لاثبات نظرية النشوء و الارتقاء و ذلك عندما رأى أن صورة الأجنة لا تتطابق تماماً مع نظرية التطور ، فقام بعمليات (ترتيش) و (حذف) في صورة الأجنة البشرية لكي يطابقها مع النظرية التي يتزعمها ، لكن أحد العلماء أكتشف عملية التزوير ، و أعلنها في الصحف ، و تحدى (هيجل) في ذلك ، فما كان من (هيجل) إلا أن يعترف بهذه الجريمة بعد فترة صمت و تردد، و ذلك في مقالة كتبها في (١٤ - ١٢ - ١٩٠٨ ميلادي) قال فيها : (إن ما يُعزیه هو أنه لم يكن الوحيد الذي قام بعملية تزوير لإثبات صحة نظرية التطور ، بل إن هناك المئات من العلماء و الفلاسفة قاموا بعمليات مماثلة من التزوير لإثبات هذه النظرية...)².

١: يراجع لذلك : تهافت نظرية داروين لأورخان محمد علي ، و نظرية التطور هل تعرضت لغسيل دماغ للبروفيسور داون . ث . كيس ، و نظرية التطور ليست ثابتة لأورخان محمد علي ، و نقد نظرية داروين للشيخ رضا الأصفهانى ، و الردود الكثيرة لعلماء الشيعة على هذه النظرية و كل ما يتعلق بها .

٢: تراجع الكتب التي ذكرناها مسبقاً .

و إلى رد مثل هكذا نظرية يشير السيد الطباطبائي (رحمه الله) بقوله :
 (إن النوع الإنساني ، و لا كل نوع إنساني ، بل هذا النسل الموجود من الإنسان
 ليس نوعاً مشتقاً من نوع آخر حيواني أو غيره حولته إليه الطبيعة المتحولة
 المتكاملة ، بل هو نوع أبدعه الله تعالى من الأرض ، فقد كانت الأرض و ما
 عليها و السماء و لا إنسان ، ثم خلق زوجان أثنان من هذا النوع و إليهما ينتهي
 هذا النسل الموجود... و أما ما أفترضه علماء الطبيعة من تحول الأنواع ، و أن
 الإنسان مشتق من القرد ، و عليه مدار البحث الطبيعي اليوم ، أو متحول من
 السمك على ما أحتمله بعض ، فإنما هي فرضية ، و الفرضية غير مستندة إلى
 العلم اليقيني ، و إنما توضع لتصحيح التعليلات و البيانات العلمية ، و لا ينافي
 اعتبارها اعتبار الحقائق اليقينية ، بل حتى الأمكانات الذهنية ، و إذ لا اعتبار لها
 أزيد من تعليل الآثار ، و الأحكام المربوطة بموضوع البحث...)¹.

كما و يقول العالم الفرنسي موريس بوكاي : (ثم طرأت العاصفة
 الداروينية التي، بتعد مبدئي واضح من قبل أنصار عالم الطبيعة الأنجليزي، قد
 استكملت، و ذلك بتطبيقهم على الإنسان، تطوراً حيث أن أدلتهم بالشمول لم
 يكونوا قد برهنوا عنها بعد عند الحيوان. و زعموا في ذلك العصر، و بطريقة
 تجاوز الحد، بأنهم يملكون الدليل على انحدار الإنسان من سلالة القروود، و
 هذا الدليل الذي لا يقدمه أي علم صادق للإحاثة حتى و لا في إيماننا هذه ، لا
 شك بأن ثمة فارقاً كبيراً بين تصور أصل الإنسان من القرد غير المدعوم كلياً،
 و بين تحولات الشكل البشري عبر التاريخ المثبتة بكل دقة. و قد بلغ الغموض
 ذروته عندما نضع بحماقة كبيرة، مزيجاً من تصورين لكلمة واحدة و هي "

¹: الجواهر النورانية ، السيد الطباطبائي ، أعداد و جمع رضوان سعيد فقيه ، ص ٢٢٩ .

التطور". هذا الغموض المؤسف حمل البعض على التصور، وهو خطأ بالتأكيد، بأنه إذا كانت الكلمة الملفوظة تتعلق بالإنسان، فذلك يعني "حكماً" بأننا ننسب أصله إلى السلالة القردية)^١.

نعم ، إن بعض الحفريات التي تمت في مجال (الحفريات البشرية) (paleontology) و الذي يعتبر أحد فروع الأثروبولوجيا العضوية قالت : إن الإنسان القديم و الذي كان يعيش على هذه الأرض منذ ما يقارب من نصف مليون سنة ، كان يختلف عن الإنسان الحالي ، حيث كان أكبر حجماً و أقوى بنية ، و هذا ما أثبتته القرآن الكريم في العديد من آياته.

قال تعالى : (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا) سورة الروم ، الآية (٩).

و قال تعالى : (كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً) سورة التوبة ، الآية (٦٩).

^١ : أصل الإنسان بين العلم و الكتب السماوية ، موريس بوكاي ، ترجمة فوزي شعبان ، ص ١٨٥

ما هي حقيقة المسخ والممسوخات؟

المَسْخُ في اللغة هو تحويل خَلْقٍ عن صورته الأصلية إلى صورة قبيحة، أو تحويل صورته القبيحة إلى صورة أقبح منها، أو تحويل خَلْقٍ إلى صورة أخرى، أو تشويه صورته^١.

فالمسخ ليس خلقاً جديداً، وإنما هو تقبيح لصورة الموجود المخلوق من قبل، وهذا ما تُصرِّح به الآيات القرآنية الكريمة.

فالممسوخين كانوا بشراً مسخهم الله على صورة حيوانات فأصبحوا على هيئة تلك الحيوانات تقبيحاً لهم ولأعمالهم حتى يكونوا عبرة لمن يأتي بعدهم.

وهنا لا بُدَّ من التنبيه؛ بأن الحيوانات التي تعرف بالممسوخات كالكلاب و الخنازير وغيرها الموجودة في العصر الحاضر ليست منحدره من أولئك البشر الذين مسخهم الله على هذه الصور.

فقد رُوِيَ عن الإمام علي بن الحسين (عليه السَّلام) أنه قال: ((... وَ أَمَّا الَّذِينَ تَرَوْنَ مِنْ هَذِهِ الْمُصَوِّرَاتِ بِصُورِهَا فَإِنَّمَا هِيَ أَشْبَاهُهَا لَا هِيَ بِأَعْيَانِهَا وَلَا مِنْ نَسْلِهَا...))^٢.

و الحيوانات التي تُعدُّ من الممسوخات إنما سُمِّيت مُسَوِّخاً استعارةً لكونها على صور أولئك الممسوخين، ولهذه الحيوانات أحكام خاصة في الفقه و الشريعة الإسلامية.

إن الممسوخين لم يبقوا أكثر من ثلاثة أيام ثم ماتوا و لم يتوالدوا،

^١: كتاب العين، الفراهيدي، ج ٤، ص ٢٠٦، لسان العرب، ج ٣، ص ٥٥.

^٢: البحار، ج ١٤، ص ٥٦.

فقد رُويَ أَنَّ الْمُسُوخَ لَمْ يَبْقَ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَأَنَّ هَذِهِ مِثْلُ لَهَا، فَنهَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ أَكْلِهَا^١.

و يظهر أيضا من مراجعة الأحاديث أن أفراداً من الأمم السابقة عوقبوا بالمسخ جزاءً على أفعالهم القبيحة و ارتكابهم لبعض الذنوب.

من أبرز الأقوام التي نالت عقاب المسخ هم أصحاب السبت : وهم قوم من بني إسرائيل (اليهود) الذين عصوا أمر ربهم و خالفوا نبيهم فمسخهم الله صورتهم إلى قردة.

قال تعالى : ((وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)) سورة البقرة ، الآية (٦٥).

^١: الوسائل ، ج ٢٤ ، ص ١٠٨ .

البدائية بين الحقيقة والتنظير

لو تفحصنا أكثر الكتب الخاصة بـ(الأنثروبولوجيا) ، و بالخصوص في مواضيع (علم الآثار) و (التاريخ) ، و المواضيع (الأنثروبولوجية العامة) ، سنلاحظ موضوعاً مهماً ، و مصطلحاً يتكرر كثيراً نردده و نقراه حتى أصبح من المسلمات ألا و هو : (البدائية) و (الإنسان البدائي) ، فما هي يا ترى تلك المرحلة ؟ ، و من هو هذا الإنسان المشار إليه ؟ ، و هل هناك دليل على وجوده ؟ أو وجود مثل هكذا حقبة أو مرحلة تاريخية ؟

في الحقيقة لقد أصبح من المسلمات أن تتناول كتب الأنثروبولوجيا مرحلة (البدائية) كأنها مرحلة حقيقية و واقعية قد مرت على الجنس البشري كونها تشكل مرحلة من مراحل عمر هذا الجنس قبل أن يصل إلى مرحلة (العقل). و هم و وفق ذلك وضعوا النظريات الخاصة بذلك ، و جعلوها من أساسيات دراسة (الأنثروبولوجيا) و (التاريخ).

و لو رجعنا إلى العلماء الأوائل الذين وضعوا هذا (المصطلح) فمن أين جاءوا به ؟ ، و ما الدليل عليه ؟

في الحقيقة إن تثبت مرحلة (البدائية) جاءت من جراء دراسة مجتمعات و أقوام موجودة حالياً بحجة ؛ أنها تحاكي أو تطابق المجتمعات البدائية ، و هذا ما تتبناه الفلسفات المادية ، و أصحاب النظريات اللادينية ، و التجريبية.

لقد قام جملة من علماء الإنسان السذج بدراسة أقوام في (الكونغو) ، و (الأمازون) ، و أستراليا ، و أماكن أخرى) باعتبارهم الأمتداد للطور البدائي ، و إنهم يحاكون تلك المرحلة. فكثيراً ما نجد هؤلاء العلماء يحددون النظر ما بين ما يسمى بـ(الإنسان البدائي) و بين الشعوب اللاكتائية المعاصرة بدون أي دليل

مطلقاً، بينما و من المفروض أن لا يصح استعمال تعبير (الإنسان البدائي) إلا لوصف من تنطبق عليه صفات البدائية.

إن المشكلة في أننا و لكي نثبت وجود هذه المرحلة ، ثم نتعرف عليها و نحاكمها ، أو نبني النظريات حولها ، أو نبحث عن ما يشابهها ، لابد أن نعقد مقارنات نتحصل من خلالها على الحقائق اللازمة حول تلك المرحلة الزمنية، لو كانت موجودة حقاً؟!

لقد استخدم مصطلح (بدائي) ليدل على ما وجدته علماء الأنثروبولوجيا من معلومات قديمة لأقوام قديمة، إذ أن هناك - و بحسب مدعاهم - علم بدائي، و دين بدائي، و اقتصاد بدائي، و عقلية بدائية، و مجتمعات و ثقافات بدائية.

ف نجد أنه و من الفرضيات الشائعة حول (البدائية) بأن شعوبها و أقوامها هي أقرب إلى الإنسان القديم و أكثر شبهاً به، و هي بذلك بعيدة كل البعد عن ما نسميه بـ(الشعوب المتقدمة) أو (المتحضرة).

في الحقيقة إن هذه الفرضية هي محل شك و عدم قبول، ذلك أننا لو حكمنا منطق العقل السليم لوجدنا أن الشعوب المسماة بـ(البدائية) لها تاريخ لا يقل طولاً عن تاريخ الشعوب المتمدنة، فضلاً عن خضوع الجماعات الإنسانية لعوامل التغير المستمر صعوداً و نزولاً. فلا بدائية ثابتة و لا تحضر ثابت.

إن الله سبحانه و تعالى هو خالق الإنسان ، و هو الذي وضع فيه العقل ، و جعله مفكراً عاقلاً ، تواقاً لبني جنسه ، إجتماعياً بطبعه ، محباً للتعرف على الأشياء ، و تواقاً للمعرفة ، و لكل ما يساهم في راحته و سكينته ، يدينه التغير و التبدل و التطور لما هو أحسن و أفضل دائماً.

لقد أرسل الله سبحانه و تعالى الرسل و الأنبياء (عليهم السلام) ، و أشار إلى أن إرسالهم كان (بلغة أقوامهم).

قال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) سورة إبراهيم الآية (٤).

فإن كانت البدائية و التي تساقق الحيوانية و البهيمية - كما يدعون - مرحلة حقيقية فما الفرق حينها بين الإنسان و الحيوان ؟ ، و ما هذا إلا تأكيد على النظرية (الدارونية) البعيدة كل البعد عن الواقع الإنساني.

فما الحكمة من إرسال الرسل و الأنبياء (عليهم السلام) من أول يوم للإنسان على وجه الأرض حتى سني خاتم الأنبياء و المرسلين (صلوات الله و سلامه عليه و على آله) ، و الذين بلغ تعدادهم (١٢٤٠٠٠) نبي و مرسل . قال تعالى : (ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا) سورة المؤمنون ، الآية (٤٤).

و إذا كانت (البدائية) مرحلة سابقة لمرحلة (العقل) و (التطور) فهذا مخالفٌ للعدل الإلهي ، و للخطاب الإلهي القائل بالكرامة الإنسانية لميزة العقل.

قال تعالى : (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) سورة الأسراء ، الآية (٧٠).

نحن نعلم بأن الإنسان الأول هو (آدم) و زوجته (حواء) نزلا إلى الأرض حيث لا إنسان ، ثم كوَّنا عائلة ، و من ثم تكون المجتمع ، و كذلك نعلم بأن الهداية سابقة للظلال ، و التوحيد سابق للشرك ، و إن الحضارة و المدنية سابقة للبدائية و التخلف ، و ما (البدائية) إلا مرحلة إفتراضية طارئة

جاء بها أصحاب الفلسفات المادية ، و دعاة الفكر العلماني و اللاديني لضرب جميع الأسس الدينية.

لكن المشكلة التي لا بد أن نلفت لها بان قضية (البدائية) موجودة في الكتب و المناهج الدراسية للدول الإسلامية ، سواء في (التاريخ) ، أو (علم الاجتماع) ، أو (علم الإنسان) ، أو (علم الآثار). و بذلك أصبحت واقعاً يشكل حيزاً في ذهنيات أبناءنا يتعلمونه من المدارس التابعة لدول ترفع شعار الإسلام ؟؟؟ !!!

تقول الكاتبة الأمريكية (أشلي مونتاغيو) : (إن اصطلاح " البدائية " هو واحد من هذه الاصطلاحات الجامدة. إن هذه الكلمة ضارة تربك، و تمنع الفهم الصحيح ، و لا تطابق أي شيء في الواقع، و تقف حجر عثرة في سبيل تقدمنا في فهم المتغيرات الهائلة التي يمثلها الإنسان في تنوعاته الكثيرة. لا شك أن هناك معنى سليماً يمكن أن تستعمل كلمة " البدائية " و المفهوم الذي تمثله لتؤديه، لكننا لن نستطيع استعمالها بهذا المعنى إلا إذا بدأنا باطراح الاستعمالات الخاطئة للكلمة أولاً. و من بين الاصطلاحات التي اقترحت كبدائل " بدائية " كلمة " أولية " Primary " بالمعنى الذي يستخدمها به " كولي " ليشير إلى جماعات تتصف بالترابط و التعاون الوثيقين القائمين على المواجهة المباشرة... فمنذ عدة سنوات وجدت أعداد متزايدة من علماء الأنثروبولوجيا و غيرهم إن هذا المفهوم غير مقبول. و كنت أنا شخصياً بدأت حملة على هذا الاصطلاح سنة ١٩٤٥ في بحث أعيد نشره في هذا الكتاب بشكل منقح. كما إن الاصطلاح تعرض لنقد متزايد من قبل عدة أوساط

انثروبولوجية خلال الأعوام الأخيرة)^١.

كما و أن (هرسكوفتز) قد اقترح إحلال مصطلح (اللاكتائية) محل (البدائية) لتكون التعبير البليغ عن حقيقة المراد^٢.

إن الإنسان الذي عاش في حقبة ما قبل التاريخ في العصر المسمى بالعصر الحجري و الذي أبدع في نحته و رسوماته، و التي دعت البعض من الفنانين المعاصرين وقتها إلى إدعاء رسمها، إذ زعموا أنه و لسبب ما يصعب فهمه زحف هؤلاء الفنانون إلى داخل قبو طبيعي و زينوا سقفه على غرار ما فعل مايكل أنجلو في كنيسة (السستين). لقد أظهرت رسومات الإنسان القديم حيوية و قوة تعبير قل نظيرها في كل العصور، و الشواهد دالة على ذلك و بما يحير العقول. فكيف يقال عن ذلك الإنسان أنه بدائي، و أن عصره عصر بدائي، و أن دينه دين بدائي؟!

(إن في الأعمال الفنية التي أنتجها إنسان ما قبل التاريخ الذي عاش ما بين ١٥٠٠٠ إلى ٣٠٠٠٠ سنة خلت أوضح دليل على أن هذا الإنسان بوصفه فناً قد بلغ من الرقي ما بلغه أي إنسان عاش بعده... و ليس من شك في أن الأفراد القادرين على استخدام مثل تلك المهارات كانوا يتميزون بدرجة من الذكاء لا تقل روعة عن تلك التي يملكها الإنسان المتمدن المعاصر... إن وجود الإنسان البدائي باعتباره إنسان ما قبل التاريخ حقيقة مسلم بها. و كلما تعلمنا كيف نفهمهم أزددنا فهماً لأنفسنا. و لكن المساواة بين الشعوب اللاكتائية الموجودة في الوقت الحاضر و بين إنسان ما قبل التاريخ خطأ مشين، اللهم إلا

^١: البدائية ، أشلي مونتافيو ، سلسلة عالم المعرفة (٥٣) ، ص ١٠-١١ .

^٢: Herskovits, MJ, 1948, Man and his works : The science of cultural anthropology , New York: Knopf. p75 .

إذا كان واضحاً أن هذه المساواة ما هي إلا خرافة نافعة يقصد منها رفع المعنويات المنهارة، ففي عالمنا السريع التطور هذا، الذي ستشهد المناطق المتخلفة فيه تقدماً هائلاً في كل مجالات التطور الإنساني، صار من الضروري جداً للشعوب المتمدنة أن تفهم تلك الحقائق و أن تعمل بموجبها^١.

^١: البدائية ، أشلي مونتاغيو ، ص ١٧ .

الملاحق



ملحق (١)

الرحالة والمستكشفون والبلدانيون المسلمون ودورهم في ميلاد علم أنثروبولوجي إسلامي

لقد عرفنا بأن الأنثروبولوجيا هو العلم الذي يدرس الإنسان ، و يدرس أوجه الشبه و أوجه الاختلاف بينه و بين الكائنات الحية الأخرى من جهة ، و أوجه الشبه و الاختلاف بين الإنسان و أخيه الإنسان من جهة أخرى. و هو يدرس السلوك الإنساني ضمن الإطار الثقافي و الاجتماعي بوجه عام ، فلا تهتم الأنثروبولوجيا بالإنسان الفرد ، و إنما تهتم بالإنسان الذي يعيش في جماعات و أجناس ، و تدرس البشر في أحداثهم و أفعالهم الحياتية.

إن هذا هو ما فعله (البلدانيون) ، و (الرحالة) ، و (المستكشفون) المسلمون في رحلاتهم و ما دونوه في كتبهم.

نعم، لقد أقتضت الأوضاع الجديدة التي أحدثتها (الفتوحات الإسلامية) اهتماماً جلياً و واضحاً بدراسة أحوال البلدان المفتوحة ، و الناس الذين يعيشون فيها ، و طبيعة المجتمعات ، و الديانات ، لعدة أسباب منها على سبيل المثال لا الحصر (لادارتها ، و لجباية الخراج منها ، و لغايات علمية أخرى).

لقد برز دور العلماء المسلمين لوضع الكتب و المعاجم البلدانية ، و الجغرافية كـ(معجم البلدان) لياقوت الحموي^١ ، و (مسالك الأمصار) لابن

^١: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (٥٧٤ - ٦٢٦ هـ) خطاط ، و كاتب ، و أديب ، من أصل رومي ، أهم كتبه و مؤلفاته كتاب (معجم البلدان) .

فضل الله العمري^١ ،

و (نهاية الأرب في فنون العرب) للنويري^٢ ، و (عادات الشعوب) للمسعودي^٣ ، و كتاب (البلدان) لليعقوبي^٤ ، و (البلدان) للجاحظ^٥ .
بالإضافة إلى اهتمام الكتب ، و المعاجم ، و الموسوعات - أنفة الذكر - بجانب (ال عمران) فقد تميزت أكثر موادها بأنها اعتمدت على عنصر (المشاهدة) و (التجربة الشخصية) ، و هذا ما ميزها و جعلها مادة خصبة و مفيدة من الناحية (الأثروبولوجية) في دراسة الشعوب و المجتمعات و الثقافات الإنسانية.

^١ : أبو العباس شهاب الدين أحمد بن فضل الله بن يحيى بن أحمد العمري الدمشقي (٧٠٠ - ٧٤٩ هـ) مؤرخ و أديب دمشقي ، صاحب كتاب (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) و كتب أخرى .

^٢ : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد النويري ، نسبة إلى قرية النويرة بمحافظة بني سويف في مصر (٦٦٧ - ٧٣٣ هـ) له العديد من المؤلفات منها موسوعة (نهاية الأدب في فنون العرب) تشتمل على خمسة فنون منها (السماء و الآثار العلوية و الأرض و الآثار السفلية) و هو قسم جغرافي فلكي عام .

^٣ : المسعودي : (٢٨٣ - ٣٤٦ هـ) ، مؤرخ و جغرافي ، و رائد نظرية (الانحراف الوراثي) ، عرف بـ (هيرودوتس) العرب ، هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ، من ذرية عبد الله بن مسعود ، صاحب كتاب (مروج الذهب و معادن الجواهر) ، و (التنبيه و الأشراف) ، و (المعارف) ، و (عادات الشعوب) ، له إسهامات أثروبولوجية عن الشعوب التي زارها و دونها في (مروج الذهب) .

^٤ : أبو العباس أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي (٢٥٨ - ٢٨٤ هـ) كاتب و مؤرخ و جغرافي مسلم ، له (تاريخ اليعقوبي ، كتاب البلدان) .

^٥ : أبو عثمان عمر بن بحر الكناني البصري المعروف بالجاحظ لجحوظ عينيه (١٥٩ - ٢٥٥ هـ) .

إن الدراسات المهمة ، و المتخصصة في هذا المجال - على سبيل المثال - هي دراسة العالم المسلم (البيروني)^١ الذي عاش ما بين (٣٦٢ - ٤٤٠ هـ) ، و الذي وضع كتاباً عن (الهند) يمثل تجربته الشخصية و الميدانية ، و التي دامت (١٣ سنة) ، و عنوان الكتاب هو : (تحرير ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) وصف فيه المجتمع الهندي بما فيه من نظم دينية و اجتماعية و ثقافية ، مع مقارنتها بمثيلاتها لدى العرب و اليونان و الفرس ، و قد تمخضت هذه الدراسة عن حقائق و قواعد و نظريات مهمة في مجال (الأنثروبولوجيا) ، و أكدت ريادة العلماء المسلمين في شتى العلوم ، و منها (علم الإنسان) (الأنثروبولوجيا). و لقد وصفه أحد الأنثروبولوجيين المسلمين المعاصرين ألا وهو (أكبر أحمد) بأنه (أول عالم أنثروبولوجي مسلم)^٢.

كذلك كان لـ (رحلات ابن بطوطة)^٣ و التي أستمريت (٢٥ سنة) ، و كتاباته ذات الطابع الأنثروبولوجي و التي برزت وصفه للناس ، و حياتهم اليومية ، و سلوكياتهم ، و عاداتهم ، و تقاليدهم ، و قيمهم ، و ما شاكل ذلك. و كذلك ابن خلدون^٤ ، و بالخصوص في الكتاب المستل من تاريخه و المعروف بـ (المقدمة) ، و الذي هو مقدمة لكتاب التاريخ المسمى بـ (العبر و ديوان المبتداء و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من

^١: أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني ، عالم مسلم أوزبكي (٣٦٢ - ٤٤٠ هـ) كاتب و رحالة و فيلسوف و فلكي و جغرافي و رياضي و صيدلي و مؤرخ و مترجم لثقافات الهند .

^٢: Discovering Islam by Akber S Ahmed (London - 1988) p101 .

^٣: محمد بن عبد الله بن محمد الطنجي المغربي المعروف بأبن بطوطة (٧٠٣ - ٧٧٩ هـ) رحالة و مؤرخ و قاضي و فقيه مغربي لقب بأمير الرحالين المسلمين .

^٤: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ) .

ذوي السلطان الأكبر) و بالخصوص كلامه عن (العمران)، رغم وجود بعض الإشارات على ان هذه الرؤى قد أخذها ابن خلدون من (إخوان الصفا).^١

كما ولا يمكن إنكار الفائدة العلمية التي وفرتها رحلات (ابن فضلان)^٢، و (ابن جبير)^٣، و (أحمد بن ماجد الملاح)^٤، و رحلات الرحالة الصيني المسلم (تشيونغ هي)^٥. في جانب (علم الإنسان) و التي شكلت المعين،

^١: إخوان الصفا و خلوات الوفا: جماعة من فلاسفة المسلمين الإسماعيلية ظهور في البصرة في القرن الثالث الهجري .

^٢: أحمد بن العباس بن راشد بن حماد البغدادي ، عالم إسلامي من القرن العاشر الميلادي ، كتب وصف رحلته كعضو في سفارة الخليفة العباسي المقتدر بالله إلى ملك الصقالبة المسمى بـ (الموش بن يلطور) في بلاد (بلغار) (الفلوجا) (روسيا) سنة (٩٢١ م) ، فيعتبر أقدم وصف أجنبي لروسيا هو ما مكتبه ابن فضلان من خلال زيارته لروسيا .

^٣: أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكثاني ، بالمعروف بـ (أبن جبير) الأندلسي (٥٤٠ - ٦٤١ هـ) ولد في فالنسيا ، جغرافي و رحالة و كاتب و شاعر عربي أندلسي يرجع نسبه إلى سعيد بن جبير رضوان الله تعالى عليه .

^٤: أحمد بن ماجد النجدي الملاح (٨٢١ - ٩٠٦ هـ) ملاح و جغرافي عربي مسلم ، برع في الفلك و الجغرافيا ، سماه البرتغاليون (أمير البحر) ، و يلقب بـ (معلم بحر الهند) ، ساعد فاسكو دي غاما في اكتشاف طريق جديد إلى الهند حول رأس الرجاء الصالح .

^٥: تشيونغ هي أو زينج هي أو خي ، و يسمى بالعربية (حجي محمود شمس) ، بحار صيني مسلم ولد عام (١٣٧١ م) في أسرة مسلمة تدعى (ما) من قومية (هوي) بمقاطعة (يونان) في جنوب الصين ، تربى في بلاط الأمير (تشو دي) من أسرة (مينغ) ، تعتبر رحلات (تشيونغ هي) سابقة لرحلات البحار الإيطالي (كريستوفر كولمبوس) ، و البحار البرتغالي (فاسكو دي غاما) ، و البحار البرتغالي (ماجلان) ، وقد وصل إلى سواحل أمريكا قبل كولمبوس ، و إلى أستراليا قبل (كوك) ، توفي سنة (١٤٣٣ م) .

بل و الخزين العلمي في الجانب (الانثروبولوجي) التطبيقي في تراثنا (العربي -
الإسلامي).

ملحق (٢)

مصطلحات مهمة

١- المصطلح هو : اختصار و إجمال لقضية أو لعلم ما جاء موافقاً لسياقات التعبير اللغوي و موافقة التأويل المراد.

٢- الإصطلاح : عبارة عن اتفاق قوم على تسمية الشيء باسم ما يُنقل عن موضعه الأول ، و إخراج اللفظ من معنى لغوي إلى آخر لمناسبة بينهما. و قيل : الاصطلاح : اتفاق طائفة على وضع اللفظ بازاء المعنى. و قيل : الاصطلاح : إخراج الشيء عن معنى لغوي إلى آخر ، لبيان المراد. و قيل : الاصطلاح : لفظ معين بين قوم معينين.

٣- علم المصطلح : و هو علم حديث يعتبر من العلوم التي ظهرت في القرن العشرين ، هدفه تحقيق الهدف المطلوب من مواكبة التطور العلمي و التقني الذي يشهده العالم ، و تحقيق الفهم الصحيح لكل وافدٍ جديد بما يلائم اللغة و عقل المتلقي.

٤- السنن القرآنية : هي قضية التكرار المربوطة بالتجربة و الدائرة مدار الوجود الإنساني.

٥- الأنثروبولوجيا : هي العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو

300 كائن عضوي حي ، يعيش في مجتمع تسوده نظم و أنساق اجتماعية في ظل

ثقافة معينة ، و يقوم بأعمال متعددة ، و يسلك سلوكاً محدوداً ، و هو أيضاً العلم الذي يدرس الحياة البدائية ، و الحياة الحديثة المعاصرة ، و يحاول التنبؤ بمستقبل الإنسان معتمداً على تطوره عبر التاريخ الإنساني الطويل ، و لذا يعتبر

علم دراسة الإنسان (الأنثروبولوجيا) علماً متطوراً ، يدرس الإنسان و سلوكه ، و أعماله.

٦- علم اللغويات : و هو العلم الذي يبحث في تركيب اللغات الإنسانية ، المنقرضة ، و الحية ، و لا سيما المكتوبة منها في السجلات التاريخية فحسب ، كاللاتينية ، أو اليونانية القديمة ، و اللغات الحية المستخدمة في الوقت الحالي ك(العربية ، و الفرنسية ، و الأنكليزية).

٧- الثيوقراطية : - (حكومة الدين) ، أو الحكومة الدينية ، (الحكم بموجب الحق الإلهي) و هي الحكومة التي تحكم باسم الدين كائناً ما كان نوع هذا الدين ألحادي أو توحيدي ، و تعتبر أن الشرائع الدينية هي المصدر المباشر للالتزامات السياسية.

٨- الكولونيالزم : - (الاستعمار) : و هو الاستغلال و الاضطهاد

السياسي و الاقتصادي و النفوذ الثقافي للذان تتعرض لهما بلدان هي عادة اقل تطوراً في المجالات الاقتصادية و الاجتماعية من الطبقات السائدة في الدول المستعمرة، و تسمى بـ(الكولنيالية).

٩- النيوكولونيالزم : - (الاستعمار الجديد) : و هي السياسة

الكولونيالية التي تنتهجها الدول الامبريالية في ظروف تفكك و انهيار النظام الكولونيالي ، و تعاضم حركة التحرر الوطني ، حيث تعتمد الدول الامبريالية إلى المحافظة على جوهر السيطرة الكولونيالية (الاستعمارية) باللجوء إلى أساليب اقتصادية و سياسية و عسكرية و ثقافية عديدة تنسجم مع الظروف الجديدة ، و هدفها إخضاع الأقطار المتحررة حديثاً (المستعمرات السابقة) إلى السيطرة الفعلية للامبريالية ، لكن بصورة جديدة و أسلوب جديد مخادع.

١٠- الهيومانيزم : - (الهيومانية) : أي مذهب أصالة الإنسان ، أو النزعة الإنسانية.

١١- الأورينتليزم : - (الإستشراق) ؛ أي الذهاب نحو الشرق لغايات أصلها استعماري توسعي بحث ، و قد ظهر هذا المصطلح لأول مرة في اللغة الانكليزية سنة ١٧٧٩ ، و قبل هذا المصطلح في الأكاديمية الفرنسية سنة ١٨٣٨،

١٢- الاتجاه السوسيوانثروبولوجي : هو ذلك الأسلوب من البحث الذي يجمع ما بين أساليب علم الاجتماع، و ما بين الاساليب الانثروبولوجية التي تتضمن الدراسة الميدانية المباشرة (Field-work)، فقد أخذ علم الاجتماع عن الانثروبولوجي أساليب بحثه و حقوله. و قد ظهرت الحاجة إلى هذا الاسلوب نظراً لتغير المجتمعات و لظروف دراسات المجتمعات من ناحية الانثروبولوجي^١.

١٣- الأسطقس : لفظ يوناني، يرادف كلمة العنصر و الأصل، و جمعه استطقسات، و هي عند قدماء الفلاسفة العناصر الأربعة : (النار، الماء، التراب، الهواء).

١٤- الاقتصاد : مأخوذ من القصد، و معنى القصد : الاستقامة على

302 الطريق، و علم الاقتصاد يبحث في انتاج الثروة و توزيعها و استهلاكها، و تطلق الثروة على كل ما له قيمة في التبادل.

^١: يراجع لذلك و على سبيل المثال كتاب : مقدمة في الاتجاه السوسيوانثروبولوجي ، محمد عبده محجوب .

١٥— أكاديمية : هي مدرسة أسسها أفلاطون تطل على بستان أكاديموس، و هو بطل قديم فنسبت إليه المدرسة.

١٦— الكوجيتو : إشارة إلى قول ديكارت : (أنا أفكر إذن أنا موجود)، و هو إستدلال على وجود النفس بفعل من أفعالها.

١٧— المنهج : طريقة محددة لبحث الموضوع المقصود، و أنه يرتبط ارتباطاً لا ينفصم عن اتجاه الباحث و ثقافته و فلسفته.

١٨— المورفولوجيا : علم يبحث في أصول الأشياء أو أشكالها، و تطلق هذه الكلمة في علم الحياة على دراسة الأنماط المميزة للأنواع الحيوانية و النباتية المرتبطة بالنشأة و التطور.

١٩— تابو (التابو) : جمعها (تابوهات) كلمة بولينيزية تطلق على (المحظور في نظر المجتمع)، أي ما تعتبره أعراف المجتمع (أو السياسة أو جهة أخرى) من المحرمات (وليس حتماً وفق الشريعة التي يدين بها ذاك المجتمع) وإن كانت في بعض الأحيان تقرر لدى البعض بمفهوم (الحلال) و(الحرام). فالتابو أي خط أحمر لا يقبل المجتمع تجاوزه بغض النظر عن مدى كون (التابو) مبرراً أو حتى متناسقا مع القوانين والشرائع.

٢٠— الطقوس : مفردھا (طقس) و هي (رموز، و حركات، و أشياء)

لا تحمل دوماً دلالات دينية، و انما تصطبغ بها في أكثر الأحيان، و ترتبط غالباً بالعادات و التقاليد و القصص و الأساطير. إن من أهم خصائصها أنها تميل إلى التكرار و الاستمرارية مثل الشعائر، من أجل تكريس ديمومة الطقس و إعادته في كل مناسبة كما كان في الماضي.

٢١- الرمز : هو أداة تستخدم في التواصل و التفاهم، يقصد منها الإشارة إلى شيء ما، أو شخص أو مجموعة أو فكرة، وقد يتكون الرمز من صورة كالصليب يرمز إلى المسيحية و الهلال إلى الإسلام، و كالصليب الأحمر و الهلال الأحمر بما يرمزان له من جمعيات إسعافية. و قد يتكون من اشخاص مثل (ماريان) لفرنسا، و (جون بول) لانكلترا، و (العم سام) لامريكا، و ما شاكل ذلك.

٢٢- العادات و التقاليد : تتميز عن القانون بأن الإلزام فيها ذو طبيعة اخلاقية فحسب، و هي تعبير يتعلق على آليات الضبط السلوكي في المجتمع، و هي الوسيلة الوحيدة لانتظام السلوك في المجتمع و من دونها يقع السلوك الاجتماعي في الفوضى.

٢٣- حقل دلالي : مجموعة من المفاهيم أو المصطلحات الأساسية التي تترابط في ما بينها لتؤدي وظيفتها المستقلة في إطار النظام المفهومي الشامل. و هذا الأخير يتكون عادة من عدد يقل أو يكثر من الحقول الدلالية المتعاقبة.

٢٤- شبكة مفهومية : هي مجموعة العلاقات المعقدة و المتشابكة بين الحقول الدلالية ككل و الخاضعة لنظام بعينه.

٢٥- مصطلح مفتاحي : كل كلمة ذات أهمية خاصة و يؤطرها حقل دلالي بعينه ضمن النظام المفهومي الكلي و تؤدي دوراً حقيقياً حاسماً في تشكيل البنية المفهومية لرؤية العالم.

٢٦- المعنى العلاقي : و هو المعنى السياقي، أو الإضافي الذي يلحق بالكلمة نتيجة لدخولها في علاقات مع مفاهيم أخرى في إطار نظام مفهومي موحد.

٢٧- نظام مفهومي : شبكة كلية منظمة من العلاقات المعقدة بين مجموعة أو مجموعات من المفاهيم الأساسية التي يشكل كل منها حقلاً دلاليًا.

٢٨- العادات الجماعية : مجموعة من الأفعال و الأعمال و ألوان السلوك، التي تنشأ في قلب الجماعة، بصفة تلقائية لتحقيق أغراض تتعلق بمظاهر سلوكها و أوضاعها، و تمثل ضرورة اجتماعية تستمد قوتها من هذه الضرورة، لذلك من الصعب على الأفراد الخروج على مقتضياتها.

٢٩- الأعراف : و هو : ما درج الناس على إتباعه من قواعد معينة في شؤون حياتهم و شعورهم بضرورة إحترامها.

و تعرف أيضاً : تلك السنن الاجتماعية التي تدل على المعنى الشائع للاستعمالات و العادات و التقاليد و المعتقدات و الأفكار و القوانين و ما شابه، وبخاصة عندما تحوي حكماً.

٣٠- التقاليد : مجموعة من قواعد السلوك الخاصة بطبقة معينة أو

305 طائفة أو بيئة محلية محدودة النطاق، و هي تنشأ عن الرضى و الإتفاق الجمعي على إجراءات و أوضاع معينة خاصة بالمجتمع المحدود الذي تنشأ فيه، لذلك فهي تستمد قوتها من قوة المجتمع أو الطبقة أو البيئة التي توافقت عليها، و تفرض سلطتها بالتالي على الأفراد بإسمها.

٣١- التراث الشعبي : يتجلى التراث الشعبي في عناصر كثيرة منها،

الفولكلور، و الموروث الثقافي، و المعتقدات الشائعة من خرافات و أساطير.

٣٢- الفولكلور : ظهر هذا المصطلح عام (١٨٤٠ م) في اللغة

الانكليزية عندما استخدمه العالم الانكليزي (دبليو. جي. توماس)، و هو يتألف

من مقطعين (Folk) بمعنى الناس و (Lore) بمعنى معرفة أو حكمة. و عليه

فمعى كلمة (Folklore) حرفيا هو : معارف الناس أو حكمة الشعب. و هو

استخدام ليدل على العادات و المعتقدات و الآثار الشعبية القديمة الماثورة.

٣٣- الميثولوجيا : أي علم الأساطير، و القصص التقليدية، التي تتسم

بالخيال في كثير من الأحيان أو بالمبالغة أحيانا أخرى، و التي تعتبر من عادات

الشعوب و المجتمعات، و التي تمثل مائزاً لها عن غيرها.

المصادر والمراجع

- ١- الجواهر النورانية في العلوم و المعارف الإنسانية (جمع لإبحاث تفسير الميزان)، ترجمة و اعداد و جمع : رضوان سعيد فقيه، دار المحجة البيضاء، بيروت - لبنان.
- ٢- الانثروبولوجيا و الاستعمار، جيرار لكلكرك، ترجمة : جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، ط ٢، ٢٠٠٦ م.
- ٣- الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، إدوارد سعيد، ترجمة : محمد عناني، رؤية للنشر و التوزيع، مصر - القاهرة، ٢٠٠٦ م.
- ٤- نحو علم الإنسان الإسلامي، تعريف و نظريات و اتجاهات، أكبر أحمد، ترجمة : عبد الغني خلف الله، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن، الطبعة الأولى، ١٩٩٠ م.
- ٥- البيان و التبیین، الجاحظ، ابو عثمان عمرو بن بحر البصري (ت ٢٥٥ هـ)، ط ٢، مكتبة الخانجي مصر، مكتبة المثنى بغداد، ١٩٦٠ م، تحقيق : عبد السلام هارون.
- ٦- مفاتيح العلوم، محمد بن احمد بن يوسف الكاتب الخوارزمي (ت ١٣٤٩ هـ)، مطبعة عثمان خليل، القاهرة - مصر، ١٣٤٩ هـ.
- ٧- الصاحبی فی فقه اللغة العربية و مسائلها و سنن العرب و كلامها، ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، تحقيق : مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران للطباعة و النشر، بيروت - لبنان، ١٩٦٣ م.
- ٨- كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي محمد علي بن علي بن محمد الحنفي (ت ١١٥٨ هـ)، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٩٨ م.

- ٩- التعريفات، الجرجاني، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة و الإعلام، بغداد - العراق، بلا تاريخ.
- ١٠- المدرسة القرآنية، محمد باقر الصدر، تراث الشهيد الصدر (١٩)، المؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر، مطبعة شريعت، قم - إيران، ١٤٢٤ هـ.
- ١١- المعجم الموسوعي لمصطلحات الحداثة، مجموعة باحثين، مركز الفكر الإسلامي المعاصر في النجف الأشرف - العراق، مطبعة الرسل، بيروت - لبنان، ٢٠١٠ م.
- ١٢- المدخل إلى علم الأنثروبولوجيا، شاكر مصطفى سليم، مطبعة العاني، بغداد - العراق، ١٩٧٥ م.
- ١٣- قصة الأنثروبولوجيا، فصول في تاريخ علم الإنسان، حسين فهميم، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، تسلسل (٩٨)، ١٩٨٦ م.
- ١٤- مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، عيسى الشماس، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٤ م.
- ١٥- علم خصائص الشعوب، علم الأقوام، علي عبد الله الجباوي، التكوين للطباعة و النشر و التوزيع، ٢٠٠٧ م.
- ١٦- الثقافة، الصحة، المرض، رؤية جديدة في الانثروبولوجيا المعاصرة، يعقوب يوسف الكندري، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت - الكويت، ط ١، ٢٠٠٣ م.
- ١٧- أحاديث في التربية و الاجتماع، ساطع الحصري، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥ م.

- ١٨- علم النفس العام، (فراير) و (هنري) و (سباركس)، ترجمة : ابراهيم يوسف المنصور، ط ٢، مطبعة المعارف، بغداد - العراق، ١٩٦٨ م.
- ١٩- علم النفس في المجال التربوي، عبد الرحمن عيسوي، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٠ م.
- ٢٠- الأنثروبولوجيا و أزمة العالم الحديث، رالف لينتون، ترجمة : عبد الملك الناشف، منشورات المكتبة العصرية، بيروت - صيدا - لبنان، ١٩٦٧ م.
- ٢١- مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة، رالف ل هويجر بيلز، دار نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع، ١٩٩٠ م.
- ٢٢- علم اللغة، علي عبد الواحد وافي، مكتبة نهضة مصر، مصر - القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٥٧ م.
- ٢٣- الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ادوارد ايفان ايفانز بريتشارد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠ م.
- ٢٤- الشخصية العربية و مقارباتها الثقافية، الدكتور قيس النوري، مطبوعات المركز العلمي العراقي - بغداد (٢٨)، طباعة دار البصائر، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠١١ م.
- ٢٥- لسان العرب، ابن منظور الأفريقي، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠٠٥ م.
- ٢٦- وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي بن محمد بن الحسين الحر العاملي (١٠٣٣ - ١١٠٤ هـ)، مؤسسة آل البيت لأحياء التراث، بيروت - لبنان، ط ٢، ٢٠٠٣ م.

٢٧- المدرسة الإسلامية، محمد باقر الصدر، دار الزهراء للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت - لبنان، ط٦، ١٩٨٧ م.

٢٨- إقتصادنا، محمد باقر الصدر، دار التعارف، بيروت - لبنان، بدون تاريخ.

٢٩- نفحات القرآن، ناصر مكارم الشيرازي، مطبعة الحيدري، بلا تاريخ.

٣٠- الدعوة الإسلامية، محمد حسين كاشف الغطاء، دار المعرفة للطباعة و النشر، بيروت - لبنان، بلا تاريخ.

٣١- قصة الحضارة، ويل ديورانت، ترجمة: زكي نجيب محمود، دار الجيل، بيروت - لبنان، ١٩٨٨ م.

٣٢- الفطرة، مرتضى مطهري، ترجمة: جعفر صادق الخليلي، مؤسسة البعثة، بيروت - لبنان، ط٢، ١٩٩٢ م.

٣٣- الميزان، محمد حسن الطباطبائي، منشورات مؤسسة الأعلمي، ط١، بيروت - لبنان، ١٤١٧ هـ، ١٩٩٧ م.

٣٤- الكافي، الشيخ الكليني (ت ٣٢٩ هـ)، دار الكتب الإسلامية، ط٣، ١٣٨٨ هـ.

٣٥- نهج البلاغة (خطب و حكم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب " عليه السلام ")، جمعها: الشريف الرضي.

٣٦- معجم العلوم الإنسانية، ج. ف. دورتيه، ترجمة: جورج كتورة، ط٢، ٢٠١١ م، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت - لبنان.

٣٧- قضايا العولمة و المعلوماتية في المجتمع العربي المعاصر، مفيد الزبيدي، دار اسامة للنشر و التوزيع، الأردن، ٢٠٠٣ م.

٣٨- دور التربية و الثقافة في بناء حضارة إنسانية جديدة، عبد الله عبد الدائم، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت - لبنان، ١٩٨٨ م.

٣٩- الإسلام و الأنثروبولوجيا، أبو بكر أحمد باقادر، دار الهادي، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠٠٤ م.

٤٠- الطريق إلى المعرفة، أحمد ابو زيد، كتاب العربي (٤٦)، الكويت، ط ١، ٢٠٠١ م.

٤١- مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، دوني كوش، ترجمة : منير السعيداني، مراجعة : الطاهر ليب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، ٢٠٠٧ م.

٤٢- المبادئ العامة للعلاقات الدولية، إبراهيم البيومي غانم، سلسلة في ظلال الإسلام (٢٩)، دار المعارف، القاهرة - مصر، ط ١، تاريخ النشر ٢٠١٣ م.

٤٣- أسس التعامل و الأخلاق للقرن الحادي و العشرين، جون باينس، ترجمة : أحمد رمو، دار علاء الدين، سوريا - دمشق، ٢٠٠٦ م.

٤٤- خلق الإنسان بين العلم و القرآن، حمد الرقعي، الدار الجماهيرية للنشر و التوزيع، ليبيا، ١٤٢٥ هـ.

٤٥- الطب محراب الأيمان، خالص حلي كنجو، مكتبة المنار، بغداد - العراق، ١٩٧١ م.

٤٦- فلسفة الخليفة أو أصل الخلائق في مختلف العقائد، كاظم ناصر الحسن، بغداد - العراق، ط ١، ١٩٩٠ م.

- ٤٧- الشفاء، ابن سينا، تحقيق : محمود الخضيرى، الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، بلا تاريخ.
- ٤٨- الأديان في علم الاجتماع، جان بول ويليم، ترجمة بسمة بدران، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الاولى، ٢٠٠١م.
- ٤٩- نشأة الدين، النظريات التطورية و المؤلهة، علي سامي النشار، الاسكندرية، دار نشر الثقافة، ١٩٤٩ م.
- ٥٠- نظريات الدين البدائي، ادورد ايفان ايفانز بريشارد، ترجمة حسن قبيسي، دار الحداثة، ط ١، ١٩٨٦ ميلادي، بيروت - لبنان.
- ٥١- البدائية، اشلي مونتيانو، ترجمة د. محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٢ م، تسلسل و رقم الكتاب (٥٣).
- ٥٢- تنظيم الإسلام للمجتمع، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، بلا مكان طبع ولا سنة.
- ٥٣- أصل الإنسان بين العلم و الكتب المقدسة، موريس بوكاي، ترجمة : فوزي شعبان، المكتبة العلمية، ١٩٨١ م.
- ٥٤- ألفاظ خلق الإنسان في القرآن الكريم، يونس حمش الجوعاني، (رسالة ماجستير)، جامعة الموصل، كلية الآداب، العراق - الموصل، سنة النشر ١٩٩٤ م.
- ٥٥- مقدمة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ترجمة مجموعة مؤلفين، القاهرة - مصر، ٢٠٠٢ ميلادي.
- ٥٦- محاضرات في اللهجات و أسلوب دراستها، أنيس فريحة، معهد الدراسات العالمية، ١٩٥٥ م.

٥٧- الأدوات المعرفية، ليث العتابي، دار الولاء، ط ١، بيروت - لبنان، ٢٠١٤ ميلادي.

٥٨- مقدمة في الأنثروبولوجيا، المجالات النظرية و التطبيقية، محمد عبده محجوب، دار المعرفة الجامعية، السويس - مصر، ٢٠٠٥ م.

٥٩- آداب النفس، محمد العيناوي العاملي، تحقيق: كاظم الموسوي المياموي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٩٥ م.

٦٠- الإنسان في المرأة، علاقة الأنثروبولوجي بالحياة المعاصرة، كلايد كلوكهون، ترجمة: شاعر مصطفى سليم، مؤسسة فرنكلين للطباعة و النشر - نيويورك، و مطبعة أسعد - بغداد، ١٩٦٤ م.

٦١- أسس الأنثروبولوجيا الثقافية، ميلفيل هرسكوفيتز، ترجمة: رباح النفاح، وزارة الثقافة، سوريا - دمشق، ١٩٧٤ م.

٦٢- سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٩ هـ)، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢١ هـ.

٦٣- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠٠٢ م.

٦٤- مقدمة في الإتجاه السوسيوانثروبولوجي في دراسة المجتمع، محمد عبده محجوب، وكالة المطبوعات، الكويت - الكويت، بلا تاريخ.

٦٥- عادات الزواج و شعائره، أحمد الشنتناوي، دار المعارف، سلسلة إقرأ، العدد (١٦٩)، ١٩٩٨ م.

٦٦- بداية المجتهد و نهاية المقتصد، ابن رشد محمد بن احمد القرطبي (٥٩٥ هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي، ط ١، ١٣٧٨ هـ.

٦٧- المرأة بين الفقه و القانون، مصطفى السباعي، المكتبة العربية، حلب - سوريا، ط ٢، بلا تاريخ.

٦٨- شبهات و ردود حول القرآن الكريم، محمد هادي معرفة، مؤسسة التمهيدي، ط ٢، ١٤٢٤ هـ.

٦٩- الزواج و الطلاق في رسالات السماء، محمد محمد طاهر آل شبير الخاقاني، دار نشر الباقيات، قم - ايران، الطبعة الأولى، ١٤٢٦ هـ.

٧٠- صحيح مسلم ، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١ هـ) مطبوعات مكتبة و مطبعة محمد علي صبيح، مصر، ١٣٨٠ هـ.

٧١- الوافي، الفيض الكاشاني، محمد محسن بن الشاه مرتضى (ت ١٠٩١ هـ)، تحقيق: ضياء الدين الحسيني الأصفهاني، نشر: مكتبة أمير المؤمنين (عليه السلام)، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ أصفهان - ايران.

٧٢- الزواج في القرآن و السنة، السيد عز الدين بحر العلوم، دار الزهراء للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت - لبنان، ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م.

٧٣- التحرير و التنوير، الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ)، مؤسسة التاريخ، بيروت - لبنان، ط ١، بلا تاريخ.

٧٤- سنن أبن ماجه ، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، تحقيق: محمود محمد حسن نصار،

ط ١، ١٩٩٨ م.

٧٥- المستدرک علی الصحیحین ، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٢ م.

٧٦- مفاتيح الجنان، في الأدعية و الزيارات، الشيخ عباس القمي.

٧٧- أسرار الحكم، الحكيم السيزواري، الملا هادي (١٢٨٩ هـ) طبعة مصورة للطبعة الخطية.

٧٨- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار (البحار)، المولى محمد باقر المجلسي (ت ١١١١ هـ)، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان، ط ٢، ١٩٨٣ م.

٧٩- أصل الدين و ارتقاؤه، ماكس مولر، بلا أي معلومات.

٨٠- في النفس و الجسد، بحث في الفلسفة المعاصرة، محمود فهمي زيدان، دار النهضة العربية، بيروت - لبنان، ١٩٨٠ م.

٨١- المثلث، ابن السيد البطليموسي، أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليموسي (٤٤٤ - ٥٢١ هـ)، تحقيق: صلاح مهدي الفرطوسي، وزارة الإعلام و الثقافة العراقية، دار الرشيد، ١٩٨١ م.

٨٢- السنة الإسلامية بين إثبات الفاهمين و رفض الجاهلين، عبد الرؤوف شلبي، بلا معلومات.

٨٣- القاموس المحيط، الفيروزابادي مجد الدين محمد بن يعقوب، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.

٨٤- سنن القرآن في قيام الحضارات و سقوطها، محمد هيشور، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن، ١٩٩٦ م.

٨٥- تفسير العياشي، محمد بن مسعود بن عياش السمرقندي العياشي (ت ٣٢٠ هـ) مؤسسة الأعلمي، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤١١ هـ.

٨٦- فتح القدير الجامع بين فني الرواية و الدراية من علم التفسير ، محمد بن علي بن محمد الشوكاني (١٢٥٠ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، بلا تاريخ.

٨٧- معجم الألفاظ و الأعلام القرآنية، محمد إسماعيل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة - مصر، ١٩٩٨ م.

٨٨- مفردات ألفاظ القرآن ، أبو القاسم الحسين بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٤٢٥ هـ)، تحقيق : صفوان عدنان داوودي، دار القلم - دمشق، الدار الشامية - بيروت، ط ٣، ١٤٢٤ هـ

٨٩- معجم الأثنولوجيا و الانثروبولوجيا، بيار بونت، و ميشال إيزار، ترجمة : مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع (مجد)، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠١١ م.

٩٠- العوامل التاريخية لنشأة و تطور المدن العربية الإسلامية، مصطفى عباس الموسوي، منشورات وزارة الثقافة و الاعلام، بغداد - العراق، ١٩٨٢ م، سلسلة دراسات (٢٩٥)، دار الرشيد للنشر.

٩١- مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، طه باقر، دار الوراق للنشر و التوزيع، بيروت - لبنان، ٢٠٠٩ م.

٩٢- ذخيرة علوم النفس، كمال دسوقي، وكالة الأهرام للتوزيع، مصر - القاهرة، ١٩٩٠ م.

٩٣- قاموس الأثنروبولوجيا، شاكر مصطفى سليم، الناشر : جامعة الكويت، ط ١، ١٩٨١ م، دولة الكويت.

٩٤- الأنثروبولوجيا، أسس نظرية و تطبيقات عملية، محمد الجوهري، الناشر : مؤسسة سجل العرب، ١٩٨٠ م.

٩٥- الثقافة الإسلامية و الحياة المعاصرة، مجموعة باحثين، جمع و مراجعة و تقديم : محمد خلف الله، الناشر : مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٢ م.

٩٦- الأسرة في الشرع الإسلامي مع لمحة من تاريخ التشريع إلى ظهور الإسلام، عمر فروخ، المكتبة العصرية، بيروت - لبنان، ١٩٨٨ م.

٩٧- كتاب الأم ، الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس الشافعي (ت ٢٠٤ هـ).

٩٨- تفسير المنار ، الشيخ محمد رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥ ميلادي)، مؤسسة المنار، مصر - القاهرة.

٩٩- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ).

١٠٠- فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني أبو الفضل أحمد بن علي الشافعي المصري (ت ٨٥٢ هـ) ، دار المعرفة، بيروت - لبنان.

١٠١- مجمع البيان في تفسير القرآن ، أمين الإسلام الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ).

١٠٢- الحب و الجنس من منظور إسلامي، محمد علي قطب، دار القلم، ١٩٨٦ م.

١٠٣- النظام التربوي في الإسلام، الشيخ باقر شريف القرشي (ت ١٤٣٣ هـ)، دار التعارف، بيروت - لبنان، ١٩٨٣ م.

١٠٤- نظام الأسرة في الإسلام دراسة مقارنة، الشيخ باقر شريف القرشي (ت ١٤٣٣ هـ)، ط ١، ١٩٨٨ م، دار الأضواء للطباعة و النشر و التوزيع.

١٠٥- مستدرک الوسائل و مستنبط المسائل ، المحقق الميرزا حسين النوري الطبرسي (ت ١٣٢٠ هـ).

١٠٦- الشذوذ الجنسي عند المرأة، هدى رشيد الخرسه، دار النفائس، سوريا - دمشق، ٢٠٠٩ م.

١٠٧- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي المعروف بالبشاري المقدسي (ت ٦٤٣ هـ).

١٠٨- معجم البلدان، ياقوت الحموي شهاب الدين ابي عبد الله ياقوت الرومي البغدادي (ت ٦٢٦ هـ)، مطبعة السعادة، مصر - القاهرة، ط ١، ١٩٠٦ م.

١٠٩- مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن أبن خلدون المغربي (ت ٨٠٨ هـ).

١١٠- انتصار الحضارة (تاريخ الشرق القديم)، جيمس هنري برستد، ترجمة : أحمد فخري، الناشر : المركز القومي للترجمة، ٢٠١٢ م.

١١١- تاريخ اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر العباسي (ت بعد ٢٩٢ هـ).

١١٢- من لا يحضره الفقيه ، الشيخ الصدوق محمد بن علي بن الحسين أبن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ).

١١٣- تفسير نور الثقلين ، الشيخ عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي.

١١٤- قصص القرآن، مقتبس من تفسير الأمثل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، الناشر : مؤسسة أنصاريان للطباعة و النشر - قم، ١٤٢٣ هـ

١١٥- تحف العقول عن آل الرسول ، ابن شعبة الحراني (ق ٤ هـ).

١١٦- المدخل إلى الانثروبولوجيا، وسام العثمان، الناشر : الأهالي للطباعة و النشر و التوزيع، ٢٠٠٢ م.

١١٧- تفسير في ظلال القرآن ، سيد قطب (ت ١٩٦٦ ميلادي)، دار الشروق، مصر - القاهرة.

١١٨- التعريفات، علي بن محمد بن علي الشريف الجرجاني (ت ٨١٦ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٨٣ م.

١١٩- مقاييس اللغة، احمد بن فارس بن زكريا، تحقيق : عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٩٧٩ م.

١٢٠- المحكم و المحيط الأعظم، ابن سيده، تحقيق : عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠ م، ط ١.

١٢١- القواعد (مائة قاعدة فقهية معنى و مدركا و مورداً)، محمد كاظم المصطفوي، مؤسسة النشر الإسلامي لجامعة المدرسين بقم، ١٤١٧ هـ ط ٣.

١٢٢- العلاقة مع الآخر في ضوء الأخلاق القرآنية، محمد الناصري، ط ١، دار الهادي للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت - لبنان، ٢٠٠٩ م.

١٢٣- التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، مصر - القاهرة، ط ١٠، ١٩٨٨ م.

١٢٤- الله و الإنسان في القرآن، علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم، توشيهيكو ايزوتسو، ترجمة : هلال محمد الجهاد.

١٢٥- التمهيد في علوم القرآن، الشيخ محمد هادي معرفة (ت ١٤٢٧ هـ)، مؤسسة التمهيد، قم، ط ٢، ٢٠٠٩ م.

١٢٦- الجينات و الشعوب و اللغات، لويجي لوكا كافالي سفورزا، ترجمة : أحمد مستجير، المشروع القومي للترجمة، القاهرة - مصر، مهرجان القراءة للجميع، ٢٠٠٤ م.

١٢٧- أخلاقنا : في الحاجة إلى فلسفة أخلاق بديلة، إدريس هاني، إصدارات مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي (٣٥)، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠٠٩ م.

١٢٨- علم الأناسة : التاريخ و الثقافة و الفلسفة، كريستوف فولف، ترجمة : ابو يعرب المرزوقي، دار الكلمة، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠٠٩ م.

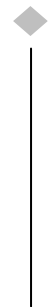
المصادر و المراجع الأجنبية :

1: Levi – Strauss Claude : Introduction a Loeuvre de Mauss " Sociologie & Anthropologe " ,P.U.F.1950.

2 : Pei , Mario , " The Story of Language " , 320 Lippincott C,New York , 1949.

3 : C.Daryll Ford , Habitat , Economy , and Society. Edition , New York , E.P.Dutton and Co.,Inc.,1950.

4 : : Herskovits,MJ,1948,Man and his works :
The science of cultural anthropology , New York:
Knopf.1958.



الفهرس التفصلي

المقدمة.....	ص ٥
الفصل التمهيدي:.....	ص ١٣
مدخل تمهيدي.....	ص ١٥
وقفات مهمة.....	ص ١٥
الوقفة الأولى : محورية الخطاب القرآني.....	ص ١٥
الوقفة الثانية : الأخلاق العلمية.....	ص ١٦
أهداف البحث.....	ص ٢٠
مشكلة البحث.....	ص ٢٣
المؤاخذات و الملاحظات على الأنثروبولوجيا.....	ص ٢٣
السبب الأول :.....	ص ٢٣
السبب الثاني :.....	ص ٢٥
السبب الثالث :.....	ص ٢٨
الفصل الأول :.....	ص ٣١
١- تعريف الأنثروبولوجيا.....	ص ٣٣
٢- الأنثروبولوجيا من حيث الظهور الاصطلاحي.....	ص ٣٨
٣- علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الأخرى.....	ص ٤٠
١- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الأحياء	
(البيولوجيا).....	ص ٤١
٢- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الاجتماع.....	ص ٤١

٣- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم	
الفلسفة.....ص ٤١	
٤- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم النفس.....ص ٤٢	
٥- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الجيولوجيا.....ص ٤٢	
٦- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الجغرافيا.....ص ٤٣	
٧- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الآثار.....ص ٤٤	
الفصل الثاني :.....ص ٤٧	
١- اتجاهات دراسة الأنثروبولوجيا.....ص ٤٩	
٢- فروع الأنثروبولوجيا.....ص ٤٩	
أولاً : الأنثروبولوجيا العضوية (الطبيعية).....ص ٥٢	
فروع الأنثروبولوجيا العضوية.....ص ٥٢	
١- الحفريات البشرية.....ص ٥٢	
٢- الأجناس البشرية.....ص ٥٢	
٣- الايكولوجيا البشرية.....ص ٥٥	
ثانياً : الأنثروبولوجيا النفسية.....ص ٥٦	
نحو فهم أنثروبولوجي حقيقي للنفس.....ص ٥٨	
وقفه مع النفس الإنسانية.....ص ٥٨	
الدوافع السلوكية النفسية.....ص ٦٠	
١- الدوافع الفسيولوجية.....ص ٦٠	
٢- الدوافع النفسية.....ص ٦١	

- القرآن الكريم و القضايا النفسية.....ص ٦٢
- ثالثاً : الأنثروبولوجيا الثقافية.....ص ٦٥
- نشأة الأنثروبولوجيا الثقافية و مراحل تطورها.....ص ٦٧
- الاتصال الثقافي (التثاقف) و (المثاقفة).....ص ٧١
- وقفتان مهمتان:.....ص ٧٣
- ١- الانتشار الثقافي.....ص ٧٣
- ٢- التثاقف.....ص ٧٤
- التشابه بين الثقافات.....ص ٧٦
- الثقافية.....ص ٧٨
- الاحتكاك و الانتشار الثقافي.....ص ٨٠
- اقسام الأنثروبولوجيا الثقافية.....ص ٨٢
- ١- علم اللغويات.....ص ٨٢
- الحيوانات و اللغة.....ص ٨٧
- القرآن الكريم و قضايا اللغة، أهميتها و دورها.....ص ٩٠
- أسباب نشأة اللهجات.....ص ٩٢
- ٢- علم الآثار.....ص ٩٦
- ٣- علم الثقافات المقارن.....ص ٩٨
- وحدة الأصل الإنساني.....ص ١٠٠
- رابعاً : الأنثروبولوجيا الاجتماعية.....ص ١٠٦

أهم فروع الأنثروبولوجيا الاجتماعية: علم الأقوام و الجماعات	
(الأنثوغرافيا).....	ص ١٠٩
فروع الأنثوغرافيا.....	ص ١١١
دراسة أنثروبولوجيا القرابة.....	ص ١١١
أولاً : فهم طبيعة القرابة.....	ص ١١١
ثانياً : معرفة نطاق القرابة.....	ص ١١١
ثالثاً : أسس التصنيف القرابي.....	ص ١١١
رابعاً : أنواع الجماعات القرابية.....	ص ١١٢
الزواج دراسة سوسيوأنثروبولوجية.....	ص ١١٤
القرآن الكريم و مؤسسة الزواج.....	ص ١١٧
أولاً : فهم معنى الزواج.....	ص ١١٧
ثانياً : فهم قواعد الزواج (المحرمات) و	
(المحللات).....	ص ١١٩
ثالثاً : فوائدهم قواعد	
(التحريم).....	ص ١٢٢
رابعاً : أنواع الزواج.....	ص ١٢٤
خامساً : معرفة أسس و قواعد الزواج.....	ص ١٢٨
سادساً : الطلاق ما له و ما عليه.....	ص ١٣٥
سابعاً : وقفات مهمة.....	ص ١٣٩
أولاً : الزنا.....	ص ١٣٩

- ثانياً : العلاقات الشاذة (الشذوذ
الذكوري).....ص ١٤٦
- ثالثاً : العلاقات الشاذة (الشذوذ
الأنثوي).....ص ١٤٩
- رابعاً : الجماع أثناء الطمث.....ص ١٥٣
- الأنثروبولوجيا الاجتماعية و
الإستيطان.....ص ١٥٥
- أسباب نشأة المدن في المنظور القرآني.....ص ١٦٠
- ١- أسباب دينية.....ص ١٦٠
- ٢- أسباب اقتصادية.....ص ١٦٣
- ٣- أسباب سياسية.....ص ١٦٥
- أسباب خراب المدن و اندثارها في المنظور
القرآني.....ص ١٦٩
- ١- الحروب و الصراعات.....ص ١٦٩
- ٢- الغضب الإلهي.....ص ١٦٩
- ٣- العوامل الجغرافية و المناخية.....ص ١٧٠
- نظريات نشأة المجتمعات: النظريات الوضعية لنشأة
المجتمعات.....ص ١٧١
- النظرية الانقسامية.....ص ١٧١
- النظرية القرآنية لنشأة المجتمعات.....ص ١٧٢

- وقفة مع أسباب الانهيار الاجتماعي.....ص ١٧٥
- خامساً : الأنثروبولوجيا الاقتصادية.....ص ١٧٨
- القرآن الكريم وقضايا الإنسان الاقتصادية.....ص ١٨٠
- الإنسان ومتطلباته المعيشية و الاقتصادية.....ص ١٨٢
- اسباب الانتعاش و الازدهار الاقتصادي في المنظور القرآني.....ص ١٨٤
- المهن و الحرف و الانتعاش الاقتصادي.....ص ١٨٨
- اسباب الكساد و الانهيار الاقتصادي في المنظور القرآني.....ص ١٩٥
- سادساً : الأنثروبولوجيا الدينية.....ص ١٩٩
- الأنثروبولوجيا و الدين.....ص ٢٠٢
- الدين.....ص ٢٠٥
- تصنيف الأديان.....ص ٢٠٥
- مع العبادة من أجل فهم صحيح لها.....ص ٢٠٦
- التوحيد و الشرك الأسبقية و المنشأ.....ص ٢١١
- سابعاً : الأنثروبولوجيا الاستعمارية.....ص ٢١٧
- الفصل الثالث :.....ص ٢٢٣
- ١- نحو علم إنسان إسلامي.....ص ٢٢٥

- ٢- الأنثروبولوجيا في الفكر الإسلامي.....ص ٢٣٢
- ٣- القرآن الكريم و علم الإنسان.....ص ٢٣٦
- ٤- أسس مهمة في الأنثروبولوجيا القرآنية.....ص ٢٤١
- ٥- القواعد القرآنية.....ص ٢٤٣
- ٦- القواعد القرآنية و دورها في التأسيس للقضايا العلمية.....ص ٢٤٥
- ٧- القواعد القرآنية حول الوجود الإنساني.....ص ٢٤٧
- ٨- قراءة في النماذج القرآنية.....ص ٢٥٢
- النماذج القرآنية.....ص ٢٥٢
- مميزات النموذج الإنساني.....ص ٢٥٤
- مميزات النموذج القرآني.....ص ٢٥٥
- أساسيات النموذج القرآني.....ص ٢٥٦
- الفصل الرابع :.....ص ٢٥٩
- ١- الانثروبولوجيا القرآنية (عِلْمُ الإنسان القرآني).....ص ٢٦١
- ٢- خلق الإنسان و تطوره في المنظور القرآني.....ص ٢٦٨
- ٣- إبطال نظرية النشوء و الارتقاء.....ص ٢٨١
- ٤- ما هي حقيقة المسخ و الممسوخات ؟.....ص ٢٨٥
- ٥- البدائية بين الحقيقة و التنظير.....ص ٢٨٧
- الملاحق.....ص ٢٩٣

- ١- ملحق (١) الرحالة و المستكشفون و البلدانيون المسلمون و دورهم
في ميلاد علم أنثروبولوجي إسلامي.....ص ٢٩٥
- ٢- ملحق (٢) مصطلحات مهمة.....ص ٣٠٠
- المصادر و المراجع.....ص ٣٠٧
- الفهرس التفصيلي.....ص ٣٢٣